سلسلة قصص مستوحاة من التراث الشعبي الحضرمي

رواية

جحلة رمضان

تأليف الأستاذة

شفيقة عوض عمر مزود

رواية

جحلة رمضان

رقم الايداع في الهيئة العامة للكتاب م:
حضرموت (٢٩١/٢٠٢٤م)

- عنوان الكتاب: جحلة رمضان (رواية)
- اسم المؤلفة: أ. شفيقة عوض عمر مزود
- عدد صفحات الكتاب: ٢٨٨ صفحة
- أبعاد الكتاب: ١٤,٨× ٢١ سم

جميع الحقوق محفوظة

يُمنع طبع هذا الكتاب، أو أيِّ جزءٍ منه بكافة طرق الطبع والتّصوير والنّقل والترجمة والتسجيل المرئي والصوتي والحاسوبي وغيرها من الوسائل، إلا بإذن خطّي من المؤلفة

سلسلة قصص مستوحاة من التراث الشعبي الحضرمي

رواية

جحلة رمضان

بقلم الأستاذة

شفيقة عوض عمر مزروعة

إهداء

- أهدي هذه الرواية إلى الرجل الذي قام بمراجعتها وتدقيقها وتنسيقها بكل مهنية واحتراف...إلى ابني الغالي الدكتور/ حارث رجب مزود.
- وإلى كل محبِّي الروايات في العالم العربي.

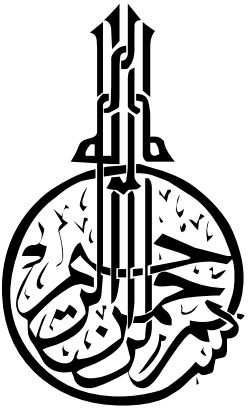

تنويهات هامة

- جميع الأحداث والشخصيات في هذه القصة من نسج خيال المؤلفة، التي استوحت الحدث الرئيس للقصة من حكاية شعبية حضرمية معروفة ومتداولة بين العامة، وأي تشابه من أي نوع بينها وبين أحداث حقيقية لا يعدو كونه مجرَّد صدفة بحتة.
- حاولت المؤلفة صياغة الأحداث وفق العادات والتقاليد الحضرمية القديمة، والتي انقرض كثيرٌ منها، والبعض الآخر مازال يُمارس حتى اليوم، كما أن اللهجة المستخدمة في القصة تنطوي على بعض كلمات قل استخدامها كثيرًا في الفترة الأخيرة، فلا يستغرب القارئ الكريم ذلك.

المُقَدِّمَة

في التُّراث الشَّعبي الحضرمي قصص وحزايا شعبية رائعة. قصص قديمة تحكي لنا حكايات أشخاص عاشوا في أزمانٍ ماضية، ومراحل تاريخية مختلفة. حكاياتٌ متنوعة في مضامينها وأحداثها تعكسُ تنوع الحياة الثقافية نفسها، قصص أبطالها أناس عاديون، تميزوا بالذكاء والحنكة تارة، أو البلاهة والسذاجة تارة أخرى! أناس خرجوا من بطن الأمة الحضرميَّة، من الشعب نفسه بمختلف فئاته وشرائحه وطبقاته الاجتماعية؛ صغيرها وكبيرها، فقيرها وغنيها، سادتها وعبيدها. الكل هنا مشترك في صياغة أحداث الحكايات الرائعة التي تناولها السُّمَّارُ في أسمارهم، وحفظتها الألسنة من الاندثار باستمرارية روايتها وسردها للأجيال جيلاً بعد جيل.

ويسرني كهاوية لهذه الحكايات والقصص أن أنقلها إلى قرَّاء القصص والروايات مثلي من أبنائي وأبناء أمتي؛ علهم يجدون فيها المتعة والفائدة، ويتعرفون من خلالها على جزء بسيط من هوية الإنسان الحضرمي، الذي عاش قبل عشرات بل ومئات السنين الماضية، ويستنبطون من خلالها كيف كان قُدماؤنا يعيشون ويفكرون ويتصرفون ويتفاعلون مع بيئتهم القاسية في قلب الجزيرة العربية، ويعشقون العيش فيها ويتفانون في خدمة وطنهم، كلٌ في مجال اختصاصه. بأدواتهم البسيطة يصنعون ما يحتاجون إليه من أدوات، ويزرعون مأكلهم، وينسجون ملابسهم بأيديهم.

من خلال هذه القصص الجميلة قدَّم لنا الأجداد سجلاً حافلاً يحكي لنا تاريخهم؛ أفراحهم وأحزانهم، أسفارهم وأعمالهم، أخلاقهم وقيمهم ومعتقداتهم، عاداتهم وتقاليدهم، أسمارهم ومناسباتهم، في حلِّهم وترحالهم، قدموها لنا بصورة مشوقة تأسر

الألباب، وتبهر السَّامعين من عُشَّاق التُّراث الثقافي. وإنني إذ أقدم لكم هذه السلسلة المستوحاة من جوهر هذا التُّراث الزاخر لأرجو من الله التوفيق في عرضها بصورة تليق بمقامها.

وأخيرًا، أسعد باستقبال أي ملاحظات أو استفسارات على بريدي الإليكتروني:
shafegahawad@gmail.com

المؤلفة

الفصل الأول: مواساة

هدأت ثورة الشمس أخيرًا في عصر ذلك اليوم الصّيفي الكئيب، وبدت خيوطها الذهبية تجرُّ ذيولها نحو الأفق الغربي استعدادًا للرحيل، وأسدلت ستارًا من الرّهبة والجمود على محيط منزل مبارك المتواضع، حيثُ تنبضُ هناك قلوبٌ موجوعة اعتصرها الحزنُ الذي خيَّم على المكان، كغمامة حالكة تأبى أن تنقشع في سيرها المتباطئ نحو التلاشي والاضمحلال، وكأنها لا تريد أن تتوارى إلا بعد أن تستنزف بقسوة المزيد من الألم العميق الذي يعيشه مبارك ومن حوله من الأصدقاء والجيران.

كان الصمت هو سيِّدُ الموقف، وكأنّ لغة الكلام قد تعطّلت آلتها لتحلَّ محلها لغة من الذهول والصدمة والأسى الذي يرتسم على وجوه المتواجدين هناك.

في صباح تلك الأمسية رحلت إحدى النساء العزيزات على أهل القرية. شهرٌ كاملٌ ظلَّت فيه الفقيدة بين أنياب مرض لا يرحم. حُمَّى شديدة، وآلام مفصلية مُبرحة أنهكت جسمها الضعيف. تحمَّل ابنها المسكين في سبيل معالجتها الشيء الكثير، وبذل الغالي والنفيس من أجل تطبيبها، ولكن دون جدوى.

بَدَت الأزقة المُتعرِّجة بين البيوت الطينية المتواضعة شبه خالية من المارة، ما خلا بعض الصبية الصغار يلعبون ألعابهم التقليدية، وبضعُ نسوة يتحادثن على عتبة أحد البيوت العتيقة. أما رجال القرية، فقد جلس معظمهم متربِّعين بخشوع ووقار، خارج فناء بيت بعينه.

في فناء ذلك البيت القديم المُتهالك جلس مبارك مطأطئ الرأس حزينًا، تنمُّ قسماته عن الألم العميق الذي عصف بحياته فجأة، وخوف من مستقبل مجهول وفراغ عاطفي وجد نفسه يعوم في بحره بلا أمل من النجاة. كان في صباح ذلك اليوم قد فرغ من دفن والدته، وهاهو يجلس عصرًا يتلقَّى التعازي في وفاتها. نظر إلى حصيريه

القديمين، كانا ينطقان ويُعبِّران عن فقره. أحسَّ بالخجل من وجودهما هناك، كيف ستكون نظرة الناس إليه وإلى فقره؟ هو لا يُحبِّذ أن يكون موضع شفقة من أحد، ولا يريد أن ينظر إليه الناس نظرة دونية أبدًا.

توافد إليه معزين جميعُ أهل القرية، فقد كان محبوبًا لديهم؛ لما يتمتَّع به من أخلاق كريمة وسجايا حميدة، من بين أوائل الوافدين كانت مجموعة من زملائه المزارعين، يتقدَّمُهم العم عوض مالك المزرعة التي يعمل فيها مبارك. رجلٌ في الستين من عمره، حادُّ الملامح، يغلبُ على طبعه الجد في تعامله مع الآخرين، ولكنه طيب القلب، كريمٌ وسخيٌّ أيضًا، وهي سماتٍ جعلت فلاحيه يكنُّون له مشاعر الحب والاحترام.

وقف مبارك لاستقبالهم. لم يتمالك العم عوض نفسه، فقد خنقته العبرات وهو يُصافح مبارك ويشد على يده معزيًا. فقد مبارك رباطة جأشه، وارتمى باكيًا بصوتٍ مسموع على كتف الرجل الذي لطالما عامله كابن من أبناءه وليس كأجير عنده. بعد عناقٍ طويل، شدَّ العم عوض على كتفي مبارك مكررًا تعزيته. سار به مبارك وأشار له بالجلوس إلى جواره في صدارة المجلس.

رفع مبارك رأسه ليتلقّى التعازي من بقية المزارعين الذين تقدَّموا واحدًا تلو الآخر. خرجت الكلمات مثقلة من حلوقٍ يعتصرها الألم، مترافقة مع عبرات الحزن والأسى. كان الجميع يعرفون المرحومة أم مبارك؛ لأنها كانت إحدى الفلاحات المثابرات الصبورات في مزرعة العم عوض، وكانت لها معزَّة خاصة في قلوب الجميع أيام عملها معهم.

كان مبارك -في قرارة نفسه- يُحبِّذ الوحدة على التواجد في مثل هذا الجو المشحون بالشّجن، لكن الضرورة الاجتماعية أجبرته على التحمل والصبر. كان كلما مد إليه أحدُ المعزين يده يُعزِّيه ويشدُّ على يده يرفعُ مبارك رأسه وينظر إليه بحنو بالغ، ويومئ إليه بالشكر على حضوره.

وهاهو العم عاشور قادم، ذلك العجوز المشاغب جار بئر الماء التي كانت تستقي منها والدته المرحومة وجميع نساء الحي القريب، بصوته الأجشِّ ولحيته البيضاء ذات

الشعر الأشعث الذي يُغطي ذقنه كاملاً بصورة فوضوية تنُفِّر الكثير من الناس من الاقتراب منه، أو حتى الجدال معه. حتى مبارك نفسه كان يخشاه، ويكرهه كثيرًا عندما كان صغيرًا. ليس بسبب منظره المنفر وصوته البشع، بل لأنه كان يطارد الصغار مثله وينهرهم إذا أتوا بصحبة أمهاتهم، وحاولوا الاقتراب من بئر الاستقاء، فكانوا حينها يفرُّون من أمامه خوفًا من عصاه اللعينة التي كان كثيرًا ما يزجرهم بها متوعدًا.

- «عظم الله أجرك يا ولدي مبارك، وأعانك وألهمك الصبر والسلوان» قالها العم عاشور وهو يُصافح مبارك، وأعادها ثانية وهو يشدُّ على يده من جديد لما أحس بتجاهله له.

أخيرًا صدر عن مبارك صوتٌ خافت، إذ قال وهو يسحب يده بقوة من يد العجوز عاشور: «شكر الله سعيكم يا عم عاشور. تفضل قعد.»

قال مثلها سعيد صديق مبارك وجاره العزيز، وأخوه علي، وأبوهما عبدالله؛ جيرانه الأعزاء، الذين كانت تربطهم به وبوالدته علاقة جوار حميمة.

- «شكر الله سعيكم جميعًا. يا حيابكم قعدوا قعدوا.»

قَدِمَ إليه أيضًا نفر من أقرباءه الأباعد من قرية والده، فقد أرسل إليهم صديقُه يسلم من يُخبرهم بالأمر. ويسلم هذا هو أقرب أصدقاء مبارك إليه منذ طفولته ثم صباه وشبابه. كان مبارك في طفولته يقضي معظم وقته في بيت العم عمر والد يسلم، حتى ليظنُّ من يرى معاملتهم له وكأنه ابنهم الثاني، وليس صديق يسلم فحسب.

امتلأ الحصيران الباليان بالمعزين الذين جلسوا في وقار مطأطئي الرؤوس، يقرأون القرآن بصورة جماعيّة -على عادة أهل القرية في العزاء- ثم يقوم القارئُ بإهداء ما قرأوا إلى روح الفقيدة.

كان مبارك جالسها في صدارة المجلس، وعن يمينه جلس القارئ، وإلى جوار القارئ جلس سعيد؛ صديق مبارك وجاره العزيز، وعن شمال مبارك جلس العم عوض الذي يكن له مبارك كل الاحترام والتقدير. أما صديقه يسلم ومحفوظ فكانا قائمين بخدمة

المُعزِّين، يقدِّمون لهم الماء، ويديرون بينهم أطباق البُن المحمَّص الذي أحضره يسلم من بيتهم لهذا الغرض في مثل هذه المناسبة.

لم تكن في دار مبارك أيُّ نسوة؛ لأنَّ مبارك لم يتزوج بعد، حتى عمَّته الوحيدة لم تحضر إليه في ذلك اليوم. أشار مبارك لصديقه يسلم بالمجيء إليه لمَّا رأى تكرار دخول صديقه إلى الدار لجلب الماء للمعزِّين كثيرًا، إذ طلب من يسلم أن يأتي بإحدى القرب الموجودة في الداخل ويعلّقها في إحدى النخلات المتواجدة في فناء الدار؛ ليتمكّنا من الوصول إليها في سهولة ويسر.

***

بعد أن نفَّذ يسلم ما طلب منه صديقه، انسلَّ إلى بيته الذي لم يكن بعيدًا عن بيت مبارك؛ ليأتي بمبخرة عليها عيدان البخور المشتعل، يبخِّر به المعزين تبرعًا منه لصديق عمره مبارك، على عادة أهل البلد في العزاء.

عندما وصل يسلم البيت وجد باب الفناء مفتوحًا على مصراعيه. اغتاظ لهذا الأمر ونادى: «يام...يام...ليه الباب مِفَنْدَق كما سدِّة كلابة؟!»

فجاءهُ صوتها من الداخل: «ذلا صفية أختك شفها خرجت ذحين تطارد الغنم لي شردن!»

- «وليه هومن فتح لهن باب العريش؟»

- «هي فتحت باب العريش بغت باتعطيهن طُعُم، شردن عليها.»

- «لا حول ولا قوة إلا بالله، ذحين آه البنيّة الغشيمة ذي؟! بت عودة تندر تطارد الغنم في المطاريق! ذحين ما تستحي لَه؟»

- «ذحين لا تعالق ولا حاجة، رح شفها وينها وحاوشها في الغنم.»

- «طيّب باروِّح، وانتي يمَّه جهِّزي لي مقطرة دخون، بغيتها للعزاء حق مبارك، ذلا شيه ماحد في داره لَه يقدِّم الواجب، وأنا لاكُذ جبت الغنم باشلَّها.»

- «معاد سيبك، باروح ذحين بارشن على البابور وبقّي لك جمرة، رح انته قدا أختك والغنم.»

بعدها خرج يسلم يبحث في شوارع القرية عن صفية والغنم، فوجدها غير بعيدة من دارهم وهي تطارد مجموعة شاردات منهن، فصاح فيها: «صفيِّة...صفيِّة. وقِّفي يا بقرة! كاكيه بايجين وانتي تطاردينهن؟ كيه تمّي واقفة حيتش وأنا باجي باحويهن.»

امتثلت صفية لأمر أخيها وتوقّفت، فوقفت الأغنام بدورها لمَّا رأينها كذلك. سار يسلم بهدوء تام حتى تجاوزهن، وبعدها استقبلهن وبدأ يسوقهن إلى جهة الدار بمساعدة صفية صارخًا فيها: «حوييهن يا المبدَّلة لا قدا الدّار.»

نفَّذت صفيِّة أمر أخيها، وبعدما دخلت الأغنام حوش المنزل انتهرها يسلم: «آه لي خلّا أبوش تفتحين باب الحوش وتخلِّين الغنم يشردن؟ ذحين مافيش عقل انتي لَه؟!»

دافعت صفية عن نفسها بشدَّة قائلة: «ماهو أني لي خليته مفتوح ولا حاجة، ذلا عيشة أخت مريم أهلها وصُّوها عند مرتك، ويوم كُذ اندرت خلت الباب مفتوح ودَبَّرت، رجعن الغنم اندرن.»

- «طيب وانتي ليه ما قفلتيه يوم البنية خلته مفتوح؟»

- «ما شفته ألا بعد ما شردن الغنم.»

- «طيب خلاص بس. سمعي ذحين شوفيه عيب على بنية كبيرة كماش تندر الشارع هوكذا وتطارد الغنم. عيب.»

ردت صفية باستهزاء: «ألا بغيت هومن يندر؟ مرتك في مِرواحها، وأمي عاقلة وأبوي في العزاء عندكم.»

رأى يسلم أن الجدال مع أخته عقيم، فقال لها منهيًا شجارهما: «بس بس خلاص. الحمد لله أنه ماحد شافش من الرجال حق سبولة، كلهم هناك في العزاء حق مبارك، وألا كانوا بايتخرَّطون علينا.»

تنهَّد يسلم، ثم نادى أمه: «يمَّه جهّزتي المقطرة والدّخون والا عادش؟»

- «أيوا جاهزة. حد صفية جات؟»

- «أيوا جات هي والغنم.» ثم وجَّه كلامه إلى صفيّة بحدَّة: «هيّا دُخلي يا العُوْق، هاتي المقطرة بسرعة من عند أمي.»

دخلت صفية لتأتي بالمبخرة، بينما ذهب هو بالغنم إلى عريشهن وأحكم إغلاق بابه عليها. تناول يسلم المبخرة من يد صفية وعاد إلى العزاء وبدأ بتبخير المعزِّين واحدًا واحدًا، ثم ترك ما تبقَّى في يده من البخور؛ يُعطِّر الجو برائحته الجميلة.

بعد أن جلس جمعُ المعزِّين فترة من الوقت قارئين القرآن، واهبين فضل التِّلاوة للوالدة والأموات الأقارب، أوشكت الشمسُ على المغيب، فانفض الجمع وذهبوا إلى المسجد لأداء الصَّلاة، ولم يبقَ في فناء الدار إلا مبارك وصديقه يسلم الذي قام بطيِّ الحصيرين، ودخل بهما إلى داخل الدار.

كان مبارك متعبًا جدًا، فقد أرهقته أحداث هذا اليوم أشدَّ الإرهاق، وما إن دخل غرفته حتى رمى بجسمه المُجهد في فراشه المُلقى في إحدى زوايا الغرفة منتظرًا صلاة المغرب. أوقد يسلم الفانوس؛ ليبعد عن صديقه وحشة الظلام، ويُسَرِّي عنه بعض همِّه وغمِّه الذي هو فيه، وجلس عند رأس صديقه.

حاول يسلم إخراج مبارك من حالة حزنه، لكنّه لم يجد الكلمات التي يمكن أن تحقق مبتغاه. كانت خسارة صديقه فادحة، ولا يمكن لأي كلمات أن تخفف مرارة ما يشعر به.

كسر يسلم الصمت بعد فترة طويلة: «أمك الله يرحمها كانت جوهرة يا مبارك، لكن الحياة هوكذا، فيها الزين والشِّين، والحمد لله على كل حال، والله يعينك ويصبِّرك يا مبارك.»

لم يجد مبارك كلمات يردُّ بها على صديقه غير: «الحمد لله». بعدها وضع غترته على وجهه ليُخفي دموعه المنهمرة. مرَّ الزمن بطيئًا على الاثنان. آثر يسلم أن يترك

مبارك يخلو بنفسه، فخاطبه بصوت منخفض: «يالله يا مبارك، شفنا روّحت. محتاج شي منّي قبل لا روّح؟ تكلّم شف نحنا أخوان، ما بينّا شي.»

تنهَّد مبارك بصوت مكتوم، ثم أكمل وهو يضع يده اليُمنى على جبهته: «جزاك الله خير ما قصّرت. لا توّك الله معك. وشكر الوالدة على الدخون لي جبتوه في العزاء. جزاكم الله خير.»

- «والله يا مبارك ما عملنا معك الا الواجب، هيا على خير.»

خرج يسلم من دار مبارك وتركه في حالة إنهاك تام.

الفصل الثاني: معاناة

نام مبارك ما شاء الله له أن ينام، وعند الفجر استيقظ متثاقلاً، يبدو أن الجوع أيقظه؛ فهو لم يتناول طعامًا منذ وفاة والدته إلا بعض التمر واللبن اللذين تناولهما في صباح يوم العزاء، لم تكن شهيته مفتوحة للطعام أبدًا، فقد أحضر له الجيران خبزًا تركه في إحدى سلال الخبز في المستودع، ولم يمسَّ شيئًا منه بعد. لكن الآن وبشعوره الضاغط بالجوع أشعل مصباحه الصغير وتوجَّه إلى المستودع يبحث فيه عن أقراص الخبز اليابسة. أخذ واحدًا من الأقراص الثلاثة وقام بتكسيره، وصنع لنفسه ثريدًا باللبن الرائب. بعد أن تناوله شعر مبارك بارتياح تام، فقد ذهب الجوع، وعادت الحيوية إلى جسده المُنهك من جديد.

في اليوم الثالث للوفاة حضرت عمته من قرية نخلة، واعتذرت عن عدم حضورها في الأيام الماضية؛ لأنها كانت مريضة حال وصول خبر وفاة والدته إليها، فعذرها مبارك. وبعد أن جلست عنده فترة من الوقت وقدّمت واجب التعزية، استأذنت منه للعودة إلى قريتها؛ لأنها مرتبطة كما قالت ببيتها وأغنامها وعملها في مزارع قريتها هي الأخرى.

وقف مبارك يودِّعها على عتبة داره بنظراتٍ حزينة تملؤها الحسرة. كم كان يودُّ في قرارة نفسه أن تبقى العمَّة إلى جواره تخفف عنه وطأة الوحشة والألم، لكنه لا يجرؤ أن يصارحها بذلك، واكتفى بمراقبتها تذهب بعيدًا، حتى توارت عن نظره في منعطف أحد شوارع القرية.

قبل أن يهمَّ مبارك بالدخول خاطبته أم جاره سعيد وقد لاحظت وقوفه الطويل على عتبة داره، يرمقُ بنظراتٍ حزينة عمَّته حتى اختفت بين أزقة القرية: «عظم الله أجرك يا مبارك يا ولدي. شف نحنا بغينا بانجي بانعزِّيكم، بس يوم ماحد حريم في الدار معاد جينا. العفو منك يا ولدي.»

- «ما يقول شي يا خالة سعديّة. سعيد قام بالواجب، ومشكورين على الخُبز لي لقّيتوه لي.»

- «ذلا واجبنا يا ولدي، وإن بغيت نحنا نقّي لك شي والا شي تكلّم، لا تستحي لَه. أني ألا كما أمّك.»

- «جزاكم الله خير يا خالة. لا كذنا بغيت شي باقولكم.»

- «كنّك صدق يا ولدي، سمعت؟»

- «طيّب طيّب يا خالة. لا كذنا محتاج شي باكلّم سعيد، وهو بايكلمكم.»

- «أيوا هوكذا. خلاص توّك يا ولدي، دخل دارك وقلده، والله يصبّرك إن شاء الله.» قالت والدة سعيد هذا وانسحبت من نافذة بيتها، ودخل مبارك بعدها إلى منزله، وأغلق الباب على نفسه.

سيطرت الوحشة على بيت مبارك بعد رحيل الوالدة، فكان على مبارك فعل كل شيء كانت تفعله أمه من شؤون البيت، إضافة إلى عمله كساني في مزرعة العم عوض التي يشتغل بها.

تراكمت الأوساخ والأتربة في داره، فكان عليه أن يكنس بيته، أو على الأقل الأجزاء التي يستخدمها منه، المرئي للناس؛ كغرفته التي يؤمُّها، وما يؤدي إليها من درج وصالات ومدخل، فكثيرًا ما يزوره يسلم وبعضُ الأصدقاء، ولا يريد أن ينتقده أحد على قذارة منزله.

في ذلك اليوم الذي كنس فيه البيت ذهب إلى العمل متأخرًا قليلاً، فوجد العم عوض في انتظاره مع كلمات من اللوم والعتاب: «ذحين كنّك تأخرت يا مبارك؟ خلاص عبر أسبوع العزاء يا ولدي والا نسيت؟»

- «لَه ما نسيت لَه، ذلا قبل ما اسرح يحشت الدار، ذلا ملان طين اشتقول له سنة ماحد يحشه!»

- «طيب كان يحشته أمس العصر.»

- «أمس العصر يا عم عوض كانوا عندي أصحابي، جاوا يتولُّهون عندي، وما قدرت اطردهم.»

- «لا لا طردهم! قُلُّهم العفو منِّكم أنا مشغول. شفه ألا آخر مرَّة باسمح لك فيها بالتأخير، سمعت والا لا؟»

- «سمعت يا عم عوض سمعت.»

- «يالله ذحين سبِّر في شغلك، الزرع شفه ضمان هَه، قبل يومين جاء صاحبك محفوظ سقَّى، وبعدين معاد حد شافه! الظاهر إنه مستامن إنك باتسرح اليوم.»

- «حصل خير يا عم عوض، باروِّح باسقِّي ذحين، ولا يهمَّك.»

عاد مبارك ذلك اليوم إلى منزله مرهقًا، فقد عمل بجهدٍ مُضاعف، وعندما أراد أن يشرب وجد الماء قد نفد، فما كان منه إلا أن حمل قربتين كبيرتين كانت الوالدة تستقي بهما، وتوجَّه إلى البئر القريبة من المنزل.

لحسن حظه كان المكان خاليًا من النساء؛ لأنه يبدو أنه الوقت الذي يكنَّ فيه منشغلات بإعداد الغداء في بيوتهن. حمد الله وأدلى دلوه، وملأ القربتين بالماء، ثم أحكم إغلاقهما. وبعد أن حملهما معًا على كتفيه حاول الخروج مسرعًا قبل أن يُلاحظه أحد، فالاستقاء من الآبار -في الغالب- تقوم به النساء وليس الرجال، ومبارك لا يُحبِّذُ أن يراه أحدٌ يفعل ذلك.

أثناء خروجه المُتعجِّل من البئر، فوجئ مبارك بامرأة تقف أمامه مباشرة! ارتبك واندفع نحو اليمين محاولاً تفادي الاصطدم بها إلا أنّ إحدى قربتيه اصدمت بخفَّة بكتفها الأيسر. زاد ذلك من ذعر المرأة التي تراجعت إلى الخلف، وصرخت مستغيثة بصوتٍ مدوٍّ؛ ظانة أنه يريد التهجَّم عليها.

***

أطلَّ العم عاشور من شرفة بيته المُطلَّة على البئر يستطلع الأمر، فوجد مبارك لا يزال يُسرع الخُطى للتواري عن الأنظار، بينما المرأة واقفة مبهوتة لما حصل لها.

سألها العجوز: «كنِّش يا بتِّي؟ كنِّش صَلَقْتي؟ غير ماحد أقِّي بش شي؟»

- «لا لا، ذلا حصَّلت رجال في الزَّانة فزعت منِّه.»

- «وينه؟ غير ماهو الرجال اللي ذحين قَص كذا؟» وأشار الرجل العجوز إلى الطريق الذي توارى خلفها مبارك قبل لحظات.

ردَّت المرأة: «أيوا هوذا، كنُّه غُرُم والا هواه؟! حد هو يجي المكان لي يستقين منُّه الحريم؟»

- «ذلا شيه مبارك لي أمه ماتت قبل أيام، مسكين ماحد معه في الدار يستقي لُه لَه.»

- «ليه ماهو معرّس لَه؟»

- «لا عاده مسكين الله، لكن ما عليش أنا باكلِّمه وباقول له لا تجي البير حق الحريم لَه، إن بغيت ماء رح استق من الجوابي والا البير حق المسجد.»

- «يوه! ذلا فزَّعني يا عم عاشور، افتجعت قُت خاف ألا مغروم بايقِّي بي شي!»

- «لا لا لا، ذلا شيه إنسان طيِّب، وكل الناس يعرفونه، حاله حال نفسه مسكين.»

- «خلاص انته كلمه، لا تخليه يجي للزَّانة حقنا لَه. اليوم أني وغُدوة غيري من الحريم يفزِّعهن، ماهو ريِّض.»

- «طيب طيب ما عليش. توِّش انتي ذحين استقي وانتي ريِّضة.»

***

أما ما كان من أمر مبارك، فقد ذهب مسرعًا إلى بيته، وندم كثيرًا على ذهابه للاستقاء، وتمنى لو أن الأرض تفتح وتبتلعه ولا يراه أحد في حالِه هذه، وقرر بينه وبين نفسه ألا يعود إلى هذا المكان أبدًا.

دخل بيته بما معه من ماء، وعلَّق القربتين في مكانها للتبريد، إحداهما في الصالة القريبة من الحمام، والأخرى في المطبخ، وصبَّ من قربة المطبخ ما يروي عطشه، ثم ذهب إلى غرفته وألقى برأسه المُتعبة على وسادته العتيقة؛ علَّه ينعم بساعة من الراحة، بعد عناء العمل ومشقَّة حياته. لكن هدوئه لم يطل؛ إذ هزَّ باب داره طرقٌ عنيف من شخص غاضب، فأسرع يستطلع الأمر.

عندما فتح مبارك الباب وجد العم عاشور أمامه وجهًا لوجه. بادره العجوز بالكلام قائلاً: «هاه يا مبارك، كيف حالك؟»

- «الحمد لله. يا حيَّا بالعم عاشور. تفضَّل دخل.»

- «مانا ما جيت بادخل لَه، آل الدار مساهنينَّا عالغداء، ألا كِلمة ورَدْ غطاها. شفتك قبل قليل إن لانا زال تستقي من بير النساء، صح كلامي والا لا؟»

حك مبارك رأسه وهو ينظر إلى الأرض مبتسمًا، ثم أجاب بتردد: «صح يا عم عاشور صح. ذلا قُت ذحين ألا ظهر، والحريم ألا يقِّين الغداء، بايقع ماحد في الزانة، وأنا جيت هلكان من المزرعة ضمان بغيت شربة ماء، إنِّ القِرَب حقّي خليِّة! قُمت شليت قربتين، وقُت أكيد ذحين بايكون ماحد في الزانة أبدًا، وصدق أوّل ما حصَّلت حد فيها، ألا يوم كذنا بادبِّر، ألا وذي حرمة تنطس من وراء سترة الزانة! هي ما شافتنا وأنا ما شفتها؛ يوم السترة بينَّا. والحرمة بغت باتستقي، يوم شافتنا افتجعت مسكينة وصَلْقَت.»

- «يومهن ماهن داهلات حد رجال يجون يستقون في زوين الحريم. فزعت منك مسكينة! وذحين سمع يا ولدي، لا كُذك بغيت ماء توَّك لا المسجد، شل من الجوابي للغسل، ونزح من البير للشرب، لعاد تقِّي لعمرك سُمعة عيفة، ويُومه طريق المسجد بعيد قليل، يقولون آه؛ طريق الأمان لو مسيرة ثمان! صح كلامي والا لا؟»

- «صح كلامك، ما قصَّرت يا عم عاشور. وأنا توبة معاد باجي هونا أبدًا.»

- «ألا إن كانك باتستقي من هيذي الزَّوين حق النساء، شُف ماشي كما البكور. بعد ما تجي من صلاة الفجر شل قربك وتعال، ماحد حريم أبدًا. باتملِّيهن وباتروِّح وانته ريِّض. ما في النهار ما ينقطعن أبدًا، حتى في هجر الهجيرة يستقين!»

- «خلاص جزاك الله خير ما قصرت، نصحتنا وبصَّرتنا، وكلُّه بفضله.»

- «خلاص ودَّعتك الله يا ولدي، تُعقب ألا العافية.»

- «حيَّابك يا عم عاشور.»

وقبل أن يذهب العم عاشور تلفَّت يمينًا ويسارًا، ثم اقترب من مبارك وهمس في أذنه وكأنه يخشى أن يسمع أحد ما يقول: «إن بغيت الصدق يا ولدي، كمِّل نُص دينك وعرِّس. هيَّا حيَّابك.»

دوَّت جملة العم عاشور الأخيرة في رأس مبارك وهو يغلق باب داره بعد ذهاب العجوز عاشور، وحدَّث نفسه: «بغانا نعرِّس؟! منين لي حق العرس؟ بيدفع المتعرِّض ذا العدِّي؟! لَه، فالح ألا في الكلام بس!» ثم تنهَّد بعمق وهو يدخل غرفته: «ذحين آه الصُوعة لي على أبونا ذي؟! ذحِّين باتخلُّون نحنا ننام والا عاد حد ذحين عاده بايتوصَّل وباينكِّد علينا!»

ألقى مبارك بنفسه بيأس فوق فراشه المعد، لكن المُنادِي هذه المرَّة جاء من داخله! فلقد قرصهُ الجوع، وبدأت عصافير بطنه بالزقزقة المقيتة التي يخجل منها كل إنسان إذا سمعها منه غيره، ولكنه الآن وحده ولله الحمد، فقام يُلبِّي حاجة بطنه.

عمد مبارك إلى جحلة التمر القابعة في مخزن الدار، وأخذ كُتلةً من التمر والتهمها بسرعة، وكرع بعدها قليلاً من الماء، ثم عاد إلى فراشه محاولاً النوم، ولكنَّ أفكاره عن حياته البائسة منعت النوم من عينيه أيضًا، فما كان منه إلا أن يتَّجه إلى المطبخ؛ ليصنع لنفسه خبزًا. لم يفعلها في حياته أبدًا، ولكن ليُجرِّب فلرُبَّما أفلح في ذلك، ولقد تاقت نفسه إلى أقراصٍ منه بعد أن نفدت الأقراص التي بعث بها الجيران إليه.

أخذ كيس الطحين، وسكب حفنة منه في وعاء كبير كما كانت تفعل والدته، ثم أضاف إليه قليلاً من السمن والملح والماء، وبدأ يعجنه. لقد نجح أخيرًا، وشكّل كرات الأقراص أيضًا، وأحضر الوعاء الذي كانت الوالدة تُقرِّصُ فيها الخبز، ثم أشعل تنُّوره بالحطب؛ ليخبز أقراصه الحبيبة. أشعل وأشعل وأشعل، حتَّى أبيضَّ التنُّور.

حدّث مبارك نفسه: «أوه أوه أوه، ما شاء الله عَلَي! لقّيت الخبز، واه تحته هو؟! هت قليل دقيق، وخلطه مع قليل ماء وقليل سمن، وذُرْ فوقه هباب ملح وعجنه زين، وقُرُّصه، ولكذ جهز التنار لِشَعُه فيه، وبيطلع أحسن خبز! يا سهلاه يا سهلاه، هيّا كيه سبرنا نخبز في التنار. بسم الله.»

كان تناره حينها قد صار جاهزًا لاستقبال أقراصه الرائعة. حينما اقترب مبارك من التنور أدار وجهه قليلاً لما لفحت الحرارة الشديدة وجهه، وتمتم بوجه مكفهرٍّ: «معاد ذا كهر لاشق!» ثم نظر إلى التنور وأكمل: «لقيت دهرة عليها عَمَد! التنار قريب ألا مبيِّض.» قال ذلك وهو ينظر إلى داخل التنور الذي تحول أكثر من نصفه إلى لونٍ باهت.

لم يستطع مبارك أن يضع الأقراص في التنور على الفور، فانتظر قليلاً، وبعد برهة حمل أول أقراصه وألصقه بحركة سريعة ورشيقة، ثم وضع القرصان الآخران بنفس الطريقة، وبعدها أعاد غطاء التنور إلى مكانه وجلس ينتظر نضوج خبزه سعيدًا بإنجازه العظيم!

جلس مبارك يدندن بألحان جميلة منتظرًا نضوج الخبز. قَطع دندنته صوتٌ صادرٌ من داخل التنور.

- «ذحين وراه شي صوت جاء من قدا التنار؟!»

أنصت مبارك، فإذا بالصوت يتكرر ثانية وثالثة بوتيرة متسارعة. هرع إلى التنور وفتح غطاءه، ليجد أقراص الخبز قد تساقطت كلها فوق الجمر مباشرة! حاول مبارك أن يُنقذها ويستعيدها بسرعة؛ ليخبزها من جديد، لكنَّ حرارة التنُّور كانت شديدة جدًا، وحالت دون ذلك.

في أثناء محاولاته تلك، لامست ذراعه الحافة العلوية للتنور الملتهب، وسرت موجة من الألم الشديد في جسد مبارك الذي تراجع إلى الخلف مطلقًا صرخة مكتومة وهو يسبُّ: «لبوك وَرْثِة على تنَّار!»

رفع مبارك ذراعه ينظر إلى الحرق الذي أصابه وقد بدأ بالأحمرار، ونتيجة لشعوره بألم الحرق الشديد، فقد أوقع القرص الذي كان قد رفعه من التنور من يده، وتركه يحترق فوق الجمر، وقام بتغطية التنور؛ تخلصًا من حرارته الشديدة.

بعد لحظات قليلة، انبعث دخانٌ كثيف بدأ يخرجُ من جوانب التنور، وينتشر في المطبخ والمنزل بكامله، محدثًا جوًا خانقًا لا يستطيع أحدٌ تحمله. انتبه مبارك من ذهوله أخيرًا، فعمد إلى جحلة الماء الموجودة في المطبخ، وأخذ منها قدحًا، وأبعد غطاء تنوره، وسكب الماء فوق الجمر مباشرة؛ ليُطفأه ويتخلص من الدخان البغيض.

انطفأ الجمر بالفعل، وحينها فقط وبعد أن هدأت حرارة التنور المشتعل قليلاً استطاع مبارك أن يُنقذ ما بقي من أقراصه. كانت أجزاءها السفلية متفحمة تمامًا، ولكن بقليل من المعالجة، استطاع مبارك أن ينقذ الجوانب العلوية منها فقط، بعد أن فصل الأجزاء المتفحمة عن الأجزاء السليمة، تمهيدًا لفت السليم منها، وأكلهِ لاحقًا.

بعدها توجه مبارك لفتح نوافذ المنزل؛ ليسمح للدُّخَّان الخانق أن يخرج بأسرع وقت ممكن، بينما خرج هو بدوره من الدار يستنشق بعض الهواء العليل في مصطبة المنزل.

جالت في خاطرهِ أمورٌ عديدة، كان أهمُّها فكرة سيطرت على عقله، كيف يتغلَّب على مصاعبه ومشكلاته الجمَّة، بالطبع هو يحتاج إلى حلول، لا يمكن أن يتحمَّل هذه الأعباء وحده أبدًا، في يوم جلس يكنسُ بيته فتأخر عن موعد عمله، ويوم أن ذهب إلى البئر ليستقي صادفته مشكلة، وحينما أراد إشباع جوع بطنه فشل في الخَبزِ، ولا يدري لماذا تساقطت أقراصُ الخُبز في قعر التنُّور وبمجرَّد أن ألصقها دون أن تنضج حتِّى! ما هذه المصائب؟!

في ذروة تفكيره في هذه الأمور تذكَّر أن الحمام مليءٌ أيضًا بالثياب المُتَّسخة والتي تحتاج إلى تنظيف، وهنا شعر بقليل من الرضا؛ فقال في نفسه: «ما ذي سهلة! باشل

أبوهن معي للمزرعة وباغسّلهن فيها. الماء واجد، والعم عوض ما بيقول شي ولا شي. حتّى الحريم حق المزرعة يغسّلن ثياب عيالهن في العتوم ولا بدا عالقهن العم عوض ولا حاجة.»

استدرك مبارك بعد برهة: «أوهوي، عاد لباس غدوة لازم يتغسّل، والا باتروح في ثياب وسخة يا مبارك والا هواه؟! لا لا كيه أحسن دخل وغسّل ثياب غدوة وقلع الكسل حقك.»

دلف مبارك بعدها إلى داخل الدار، وأغلق بابه. كان الدخان الكثيف الناتج عن احتراق الخبز قد خفَّ كثيرًا، فتوجَّه إلى حمامه واختار الملابس التي سيرتديها صباح الغد، وجلس يغسلها بالنَّغْرَة؛ وهي مادة ترابيَّة لزجة كان القدماء يُغسّلون ثيابهم بها، يأخذونها من الجبال أحيانًا، ومن باطن الأرض في أحيانٍ أخرى، هذا التراب له قوامٌ مميز، وتمتاز تربته باللزوجة، وعندما يُلقى في الثياب المُبللة يحدثُ رغوةً تعمل على تنظيف الثياب، وإزالة الأوساخ منها.

فردَ مبارك ملابسه في وعاء الغسيل، وسكب فوقها الماء ثم نثر عليها قليلاً من بودرة التنظيف، ثم بدأ يدعكها جيِّدًا، ولما بدت له نظافة الثياب، سكب عليها الماء الصافي؛ لتصفيتها من المسحوق الصابوني، ونهض بعدها لينشر غسيله في سطح المنزل.

صعد مبارك الدرج المؤدي إلى سطح منزله مشمئزًا من منظر الغبار الكثيف الذي يُغطي الدرج الأملس. في طريقه إلى السطح؛ لنشر ثيابه انزلقت قدمه فجأة، وهوى إلى الأمام، وكاد ذقنه أن يرتطم بالدرج، لولا أنه مد يديه بصورة غريزية متقيًا إصابة خطيرة، لو وقعت لرُبَّما أفقدته بعضًا من أسنانه الأمامية! بينما استقرت قدماه على بُعد ثلاث درجات من حيثُما زلت قدمه.

استغرق الأمر برهة قبل أن يستوعب مبارك ما حدث. اعتدل في جلسته، ونظر إلى باطن قدمه، فوجد قليلاً من المادة الصابونية اللزجة عالقة بها. التفت إلى ملابسه ليجدها متَّسخة تمامًا، وقد علق بها تُراب الدرج المُهمل. كانت هذه هي القشَّة التي قصمت ظهر البعير! في هذه اللحظات العصيبة المؤلمة، انهار مبارك من سوء حاله، وجلس باكيًا في الدرج القذر، يندبُ حظه العاثر بعبرات حارة.

جلس مبارك ما شاء الله له أن يجلس محتضنًا ثيابه المتسخة، وبعد أن هدأت نفسه عمد إلى فرك رجليه؛ يُزيلُ ما علق بها من النَّغرة، ثم نزل الدرج بخطوات حذره عائدًا إلى الحمَّام؛ ليغسل ملابسه من جديد.

بعد أن صب الماء على ملابسه وأزال الطين عنها فرك باطن قدميه بالماء جيِّدًا؛ ليزيل أي بقايا يمكن أن تكون عليها، ثم عاود الصعود إلى السطح ثانية. لم يتوقَّع مبارك أن يسعد يومًا بمجرَّد فتح باب سطح منزله. كان وصوله إلى السطح بملابس نظيفة إنجازًا عظيمًا! وطابت نفسه قليلاً بنسمات المزارع الباردة على وجهه.

ما أن وطئت قدماه سطح المنزل حتى بدأ ينشر ملابسه اللئيمة، وهو يغمغم: «على ملا صارون ومسدرة وقرمة تعذَّبت العذاب الأكبر ذا كله؟!» ثم بدأ ينظر حوله بتوجِّس: «عاد شي ثاني بيجي ذحين؟ شي هبوب بيجي وبيطعفر بالثياب، والا شي مطر باتخلِّي الثياب خضراء ورِتْخَة، يا غير كُذها فضيلة علينا!»

تنفَّس مبارك الصُّعداء، وكأنه قد خرج أخيرًا منتصرًا من معركة حاسمة! وقف ينظر إلى ثيابه المعلق، بعد أن قام بتثبيتها في حبل الغسيل جيدًا؛ حتى لا تقع على الأرض وتتسبب في المشكلة ثانية. بعد أن اطمأن عليها، عاد أدراجه إلى الطوابق السُّفلى من جديد.

تمدد مبارك مجددًا في فراشه إثر كل هذا الإرهاق النفسي والجسدي، وبعدها راح يغطُّ في سبات عميق لم يصحُ منه إلا وقد أوشكت الشمس على المغيب. هرول مسرعًا إلى الحمَّام؛ لإدراك صلاة العصر قبل دخول وقت المغرب، ونتيجة لسرعته الشديدة عثرت إحدى رجليه وكاد أن ينزلق على أرضية الحمام، بعد أن داس على بقايا المادة الصابونية التي نسي أن يُنظِّف الحمام منها بالماء بعد أن أكمل غسيله فيه.

أراد مبارك أن يغسل الحمام من هذه البقايا، لولا أن وقت صلاة العصر كان سيفوت عليه؛ لأنه قام من نومه متأخرًا، فآثر إرجاء التنظيف إلى ما بعد الصلاة، وذهب مسرعًا لأداء صلاته.

***

مرَّت أيام عديدة قبل أن يزور يسلم صديقه مبارك في بيته، فلقد استبطأ حضوره إليهم هذه المرة، إذ كان كثيرًا ما يقضي أمسياته في دكان العم عمر إذا كان يسلم هو المتواجد فيه، يعرف منه أخبار البلاد والعباد، ويقضي معه وقت فراغه، ولكنه بعد وفاة والدته انقطع عن الحضور إلى الدكان، فكان يسلم هو الذي يزوره من حين إلى آخر.

في ذلك المساء حضر يسلم يزور صديقه، فوجد باب البيت مفتوحًا، وهدير الرحى يصمُّ الآذان. استغرب يسلم، وتساءل في نفسه: من يا ترى تطحن في دار مبارك؟! هل حضرت عمته عيشة من قريتها؟ أو أن إحدى نساء الجيران هي التي تُدير الرحى في بيته أم ماذا؟

نادى يسلم بصوته القوي: «يآل الدار..أيه حد مبارك هاه؟»

توقَّف صوت الرحى، ثم جاء صوت مبارك من الداخل: «دخل دخل يا يسلم، ذلا أنا إطحن، دخل.»

عاد صوت الرحى يهدر، بعد وهلة من التوقُّف. تشجَّع يسلم، ودخل ليرى مبارك محتويا الرحى يطحن عليها، فانتابته نوبة من الضحك الهستيري المتواصل على ما يفعل صديقه من فعل، ثم قال بعد أن هدأ: «ذحين آه تقِّي انته؟ بحسَّك يا مبارك والا بلا حِس؟ تطحن كما الحريم؟ يا عيب الشُّوم!»

ردَّ عليه مبارك بعد أن أوقف تحريك رحاه كي يسمع يسلم كلامه: «ليه آه فيه يوم نطحن؟ ما ذا ماهو عيب ولا حاجة، ماهم يقولون الرجال تطعن وتطحن؟ والا ما بدا سمعت المقالة ذي؟ يالله قُلِّي إنّك ما بدا سمعتها.»

- «لا لا سمعتها، يقولون هوكذا.»

- «طيب ألا آه حقَّك الاستهبال هوذا؟»

- «خلاص بس العفو منك ياخي. ألا قُل لي، هومن علّمك الطحن على الرحى؟»

- «هومن عاده؟ الوالدة لما تكون مريضة أنا اطحن عليها، هي علَّمتنا.»

- «ذحين سمع هه، إن كانك ألا باتمّي تطحن خلاص أنا باروِّح، ألا جيت إطمَّن عليك، شفتك مغيِّص معاد بدا شفناك، قُت باجي عندك نهرف معك قليل.»

- «خلاص أنا الا كمَّلت، انته قعد قليل فوق التُّكَّة وأنا باطرح الطحين في القُفَّة وباجيك، يا حيَّابك يا حيَّابك.»

امتثل يسلم لكلام مبارك، ولمَّ مبارك طحينه وانضم إلى صديقه. سأله يسلم بعد أن جلس إلى جواره: «كنَّك يا مبارك غيَّصت علينا؟ أوه فقدناك ياخي. ماهي عوايدك ما نشوفك وقت طويل.»

ردَّ مبارك في حزن: «ما ذحِّين ألا باتقع من عوايدي! طول الوقت وأنا مشغول، الصبح في مزرعة العم عوض، والعصر في حاجة الدار كما يوم شفت، يا نغسِّل، يا نيحش، يا نطحن. حياة عيظة!»

- «الله يكون في عونك يا خوي.»

- «وعادها تقع لي سربات ما بعدها.»

تساءل يسلم في فضول: «آه من سربات؟!»

- «قبل أيام ضويت الدار هلكان تعبان بغيت لي شربة ماء من القربة ما حصلت شي، شليت القرب حقي ورحت باسقتي من بير آل بو علي القريبة، قُت الحريم ذحين أكيد كلهن في الديار يقِّين الغديات حقِّهن، وباحصِّل المكان ألا فاضي.»

استعجله يسلم: «أيوا وبعدين؟»

- «وبعدين مانا ألا مليت القربتين لي شلِّيتهن وزززرت المُعْلِة على أثاميهن؛ منشان ما يطيَّر الماء، وحمَّلتهن ولا حد حريم أبدًا، يوم كذ حمَّلتهن فوق أكتافي وبنزل بهن ألا وحرمة تنطس من قفا السترة لي تفصل بين البير والشارع، وكانت ديخله بقوَّة، دقِّيت بها وصاحت "يا بوي! لحقوني! رجاااال في الزَّانة!".»

كان مبارك يحكي لصديقه حكايته ويقلّد صراخ المرأة، فغرق يسلم في موجة من الضحك لم تهدأ إلا بعد حين.

بعد أن هدأ قليلاً، سأل يسلم وهو يمسح الدَّمع عن عينيه: «أيوا وبعدين؟»

- «بعدين شَرَف الشيبة عاشور لي داره فوق البير.»

- «أوهوي! الشيبة الطِّبِز ذاك؟!»

- «أيوا هوذا، ما هو ألا شافنا، كنت عادنا نشتاف وتبعنا لمَّان الدار، وما ذخِّين هت يا نصايح وعِلاق.»

- «لا حول ولا قوة إلا بالله.»

- «وفي هوذا اليوم بعد ما راح الشيبة النحس ذا قُع لي مقلب ثاني.»

- «وآه من مقلب قع لك عاده يا خوي؟ عاده قع لك شي أهواه؟»

- «أوهوي المقالب ألا كل يوم تتحذَّف علي كما الرز، كما الرز!»

- «أيوا، آه قع بعد ما راح الشيبة؟»

- «نقولك آه بس، طلعت بانام لي قليل وبانسى همومي ألا وشواتي تقرقر، جويع. آل عم عبدالله جيراني لقَّوا لي خبز كم أيام بعد وفاة الوالدة يا خير هُم، وبعدين خلاص ماحد يدوم لحد! معاد جابوا شي. قُت لعمري كيه يا مبارك كذك ما جاك النوم ولا حاجة، قُم أق لك كم أقراص في التنَّار وشفك ألا باتعرف تخبز، كيه انته ألا دايم تشوف أمك آه تقِّي في الخبز، لق كماها!»

قاطعه يسلم: «ياخنَّك باتعرف تخبز كما أمَّك؟!»

- «وليه ما بعرف؟ مانا ألا رحت المطبخ عجنت الطحين، ودهرت في التنَّار، وشلِّيت الأقراص من المسرفة ولشعتها فيه، وعادنا ألا غطِّيت التنَّار وفرحان من نفسي يومنا عرفت اخبز، ألا وتتساقط كل القراص لي لقِّيتها في عين التنَّار!»

- «أوهوي! ذحين داري يا مبارك آه لقيت يوم تساقطت القراص تو في عين التنار؟»

- «لَه مانا داري أبدًا. ليه انته داري؟»

- «آه داري، يومها قُعت في دارنا كذ. الحرمة حقي يوم عرست عليها وخَبْزَت أوّل مرة عندنا قُع لها هوكذا، وتساقطت لقراص حقها في عين التنار؛ يومها عادها ما تعرف تخبز، وبعدين ألا الوالدة علمتها وتعلمت.»

- «طيب ذحين قل لي آه السبب يا صاحبي؟ خلنا نعرف.»

- «السبب شفه زادت الدَّهرة عليه، معناه إنك لقّيت حطب واجد في التنار، وقراص الخبز ما بغت التنَّار كلُّه يبيِّض لَه، ألا قليل بس من تحت؛ قياس شبر ونص، قمت انته لقّيت له دهرة قوية حق بُر! تساقطت لقراص.»

هنا تذكر مبارك أنه بالفعل قد وضع في التنار كمية هائلة من الحطب وجدها في المطبخ، فردَّ: «أوهوي! ذحين هوذا السبب أهواه؟! نعم يا يسلم ولعاده شي، حُطبان وهدرتها في التنار معاد بعده!»

- «خلاص هوذا السبب شفه.»

- «آه ذحين عرفت. وما بعدين يا صاحبي، هت يا دخاخين عوذ بالله، اشتقول ألا حريق في الدار!»

هزَّ يسلم رأسه بأسف: «لا حول ولا قوة إلا بالله! وبعدين لقّيت هواه؟»

- «معاد دريت لقّي هواه. قُت في نفسي كيه يا مبارك شل أبوها القراص من التنار قبل ما تحترق وتقع صخر ورجع لشعها مرَّة ثانية.»

هتف يسلم متعجبًا: «بترجَّعها مرَّة ثانية أهواه؟!»

- «بارجِّعها مرة ثانية آه، وذَلَّه، ألا بغيتها تروح حَسِف أهواه؟»

- «عط أبوها الغنم!»

- «وأنا بغيتنا ننام وحش؟! كذنا ألا لي أيام على التمر واللبن، بلَّحت كبدي منَّه!»

- «وبعدين شلِّيتها ولشعتها مرَّة ثانية؟»

- «عادنا ألا شلّيت القرص الأول والدخاخين عمتنا، والتنّار طرح لي لَذعِة ما كماها، شف البِعَم اللي في يدّي ذي عادها ألا منفّطة هه!» وأراه يده المحروقة من أثر الحادثة.

- «أووووه لذعة ماكنة ذي!» قال يسلم ذلك متأثرًا وهو ينظر إلى ذراع مبارك.

أكمل مبارك كلامه: «رجعت فكّيت القرص لي شلّيته ورحت لمّان الخَزْبِة حق الماء لي في الدِّرع، وشليت من الماء حقها وعكنت أبوه في عين التنّار وطفيته، عوذ بالله من ذيك النيران، جهنَّم ولعاد لك حاجة! ما هو ألا بعدها انطفأ، وبعدين قدرت اندر القراص.»

- «وعساهن نجحن بس؟»

- «نجحن آه، احترقن ماهو ألا نجحن!»

- «وبعدين أقيت بهن هواه؟»

- «بعَّدت التحتي المحروق، ولي عاده ريِّض فتِّيته وصبغته بروبة وكليته.»

- «ما ذي الحالة شفها ما يِنْسكت عليها يا مبارك لَه، أحسن لك توكَّل على ربك وشف لك بت الحلال. عرّس يا خوي، ماشي لك حل ألا العرس.»

- «حتّى العم عاشور قالّي هوكذا يوم جاء ينصحنا. ذحين مانا ألا شفنا صدق بانوي العرس. بس المشكلة منين باوفِّر عدِّيُه؟»

- «بُصرك تصرّف يا خوي إن بغيت أمورك تسبر. أنا أعرف إنّ الوالدة كان معها غنم ما شاء الله، وبايقع عاد معها فضة وذهب، بعهن وصرُّف نفسك.

- «والله ياصاحبي شفك بصرتنا على أمور كنت غافلها، نعم الوالدة الله يرحمها معها فضة ومعها مرّية حق ذهب، بايقع باتجيب شي هيذي الأشياء؟ وباتوفّي تكاليف الزَّواج؟»

- «باتكفي إن شاء الله باتكفي، وربي بايطرح فيها البركة، انته عليك الا عِزِم بس، والأمور إن شاء الله باتتسهل، وبايقع ألا نور وسرور.»

- «على كذا يا صاحبي يا يسلم، شفنا بغيت باكلمك في موضوع كُذْ فكرت فيه أصلاً، وانته ذحين شجعتنا عليه.»

- «هت يا صاحبي، هت ما عندك.»

- «والله يا خوي بغيتك تتوسط لي عند أبوك، وتقنعه أن يزوجنا بِتُّه صفيِّة.»

تفاجأ يسلم بطلب مبارك، وردَّ عليه بنبرة حادة وقد ارتفع حاجباه: «صفيِّة من؟ أختي؟! المغرومة؟! الغشيمة؟! لا لا لا، عادها صغيرة وماشي عقل فيها ابدًا. كل يوم ونحنا في مشاكل معها يا مبارك.»

- «ما يقول شي يا يسلم، باصبر عليها وعلى طيشها لمَّان تعقل. ألا حق الغشامة تتصرف هوكذا، بعدين مع الأيام باتعقل وعادك باتشوف.»

- «انته ما تعرفها سوا عادك. ما انته فاطن السَّرْبَة لي لقّتها يوم طلعت في النخلة لي كانت تحت دارنا لَه؟»

ابتسم مبارك وهو يتذكّر تلك الحادثة التي حكاها له يسلم قبل سبع سنوات. وواصل يسلم: «والا نهار العزاء حق والدتك رحت باجيب مقطرة دخون، حصلتها تطارد الغنم في المطاريق! فتحت الباب عليهن باتعشّيهن شردن عليها وخرجن للشارع، وخرجت قفاهن تطاردهن. بنية عودة تخبخب في الشوارع! لو إنها عاقلة يا صاحبي باتفتح باب العريش بشيشوي، وألّا باتزْقِل بالطُعُم لي معها وتو بتقفّل الباب، وكان ما حصل اللي حصل. لكن آه تقول العقل عاده ماحد هو، حتَّى ما شفتنا تأخرت يوم رحت جيب المقطرة لَهْ؟ ما رجعت بسرعة قاعد نطارد الغنمان في المطاريق أنا وياها البنيّة المغرومة ذي، وانته تقول باتتزوجها؟! باتتزوج من؟ والله يا خوي باتغرم بك شفها! وانته بُصْرَك.»

- «انته بس كلّم الوالد في الموضوع، وإن وافق على بركة الله. ماهو ذحّين تكلّمه، خلّها بعد كم أيّام.»

- «والله يا صاحبي مقدر ارفض لك طلب أبدًا، أنا الا راثي لك بس من غشامتها، لكن إن كانك مصمم يا خير شور، باكلّم أبوي في الموضوع، وانته عليك جهّز ما يلزم من مهر وتكاليف الزواج، ولا بيقع الا الخير، والله يعينك عليها.»

- «الله يسلمك يا يسلم وجزاك الله خير، وشفنا باستامن عليك تكلِّم أبوك.»

- «تمام يا مبارك، ولا يهمك.»

- «وأنا من ناحيتي بالفلف العدِّي لي معي، وبانشوف بقعة باتصِّل نحنا فيين، عسى الله يعين ويبارك.»

- «أبشر يا صاحبي. أنا من ناحيتي ما باقصر معك أبدًا، وإن شاء الله يرضى الوالد، وما بايقع ألا الخير. يالله يا خوي استودعتك الله.»

غادر يسلم صديقه مبارك مذهولاً من الطلب الذي سمعه منه، وبدا شارد الفكر واللب في المسافة التي قطعها من دار صديقه إلى بيتهم، فأختُه صفيّة لا تزال صغيرة السِّن وطائشة، واشتغل شريط الذكريات في رأسه.

الفصل الثالث: صفية

في أحد الأيام التي لا تُنسى من ذاكرة يسلم، كانت صفية قد قررت أن تُثبت للعائلة شجاعتها وجرأتها عبر تسّلق نخلة طويلة كانت تقف بفخرٍ بجوار المنزل، وكانت تمدُّ العائلة بتمرها اللذيذ كل عام لسنوات عديدة خلت، وهاهو موسم جني رُطبها قد آن، ولكن العائلة تباطأت قليلاً في تحصيله.

كانت سُعيفات النخلة الخضراء تمتد كالأذرع تظلل المكان، ولكنها في حد ذاتها كانت عالية جدًا، وكان التسلّق عليها مخاطرة من الكبار، ومحظورًا تمامًا عن الصغار، ولكن صفية كانت فتاة شقيّة ومشاكسة أيضًا.

في صباح يوم شتوي، استيقظت الفتاة المشاكسة باكرًا، كانت عيناها مليئتان بالحماسة لتسلق هذه النخلة، وظنت أنها بجمع ثمار النخلة ستثبتُ لعائلتها أنها لم تعد طفلة، وأنها تستحقُّ الاعجاب والاحترام. وبينما كانت والدتها مشغولة في المطبخ لتحضير فطور العائلة، انسلت صفية بخطوات حذرة إلى حيثُ النخلة. تلفَّتت يمينا وشمالاً، ولمّا لم ترَ أحدًا هناك بدأت بتسلق النخلة مقلدة أخاها يسلم عندما يفعل ذلك.

وضعت قدمها الأولى على كربة من كرب النخل، ثم رفعت الأخرى إلى كربة ثانية، وكانت يداها مثبتتان في كربتين أعلى من جسمها. هكذا، بدأت في تسلق النخلة ببطء وحذر شديدين، وكانت كلما ازداد تسلقها ازدادت الصعوبة التي تواجهها.

قطعت صفية شوطًا لا بأس به، لكنها لم تصل حتّى إلى منتصف النخلة عندما هبّت فجأة رياح الشتاء الباردة، حاملة معها جزءًا من ثوب صفية المتدلي ليعلق في كربة عنيدة من كرب النخلة.

حاولت صفية معالجة الأمر وتخليص ثوبها من هذه الكربة، ولكن دون جدوى. حاولت نزعه بقوة، ولكنها لم تفلح أيضًا. نظرت حينها إلى الأرض محاولة النزول من

النخلة، لكن تعذّر عليها ذلك بسبب ثوبها العالق، فأيقنت بأنها في ورطة حقيقية، وبدأت بالصراخ بصوت عالٍ؛ لعل أحدًا يأتي إليها وينقذها من هذا الموقف الصعب.

لحسن حظها كان أخوها يسلم في الجوار، عائدًا من دكان الوالد. سمع صراخها فهرع إلى مصدر الصوت، ليجد صفية معلقة في النخلة، غير قادرة على الحراك.

خاف يسلم على اخته كثيرًا، لقد كانت في مكانٍ خطرٍ جدًا، وطلب منها أن تبقى مكانها هادئة، ولا تصدر أي حركة حتى يعود إليها. ذهب يسلم إلى مستودع المنزل، وأحضر الـ(مربطة) التي يعتمد عليها الكبار في تسلقهم النخل وعاد إلى أخته.

ثبت يسلم المربطة بإحكام حول خصره، بعد أن لفَّ حبلها حول النخلة أيضًا، وبدأ بالتسلق إلى حيث كانت اخته معلَّقة. بعد أن وصل إليها انتزع ثوبها العالق في النخلة أولاً، ثم خلع غترته من فوق رأسه ولفها حول خاصرة صفية وربطها بصدره بإحكام، ثم طلب من صفية أن تُبقي يديها على كرب النخلة وتتابعه في نزوله قليلاً قليلاً ففعلت.

استطاع يسلم بهذه الطريقة انقاذ اخته من الهلاك، حتى وصلا معًا إلى الأرض. كان جسمها حينها يرتجف من الخوف، ولكن ما إن وطئت قدماها الأرض، وخلصها يسلم من غترته المربوطة حول صدره حتى هرعت باكية إلى أمها في المطبخ؛ خوفًا من توبيخ يسلم لها بعد ذلك.

بعدما عاد العم عمر من دكانه في ظهر ذلك اليوم، وحكى له يسلم ما فعلت صفية، قرر اجتثاث هذه النخلة من مكانها؛ لكيلا تحدث مأساة في المستقبل، وحُرمت العائلة من ثمارها المباركة في الأعوام التالية.

عاد يسلم من ذكريات تلك الحادثة، فقد كان يعتقد في قرارة نفسه أنَّ صفية لم تُؤهل بعد لتصبح زوجة ناجحة؛ بحكم صغر سنها وقلة خبرتها في الحياة، ولكن ليفعل الله ما يشاء، وراح يحدث نفسه: «مبارك الا عاقل، وإن وافق الوالد على الزواج فصفيّة في أمَّان عند مبارك، هو بايكمل تربيتها لمّان تعقل، وباتقع إن شاء الله عند مبارك أم المال والعيال كما يوم يقولون.»

كانت صفية حينها في عامها الرابع عشر، فتاة مشاكسة عنيدة ومدللة، تمتاز شخصيتها بالعفوية، متسرعة في اتخاذ قراراتها منذ طفولتها، ولكنها تمتاز أيضًا بطيبة القلب والتسامح.

وصل يسلم إلى بيته فوجد أسرته في فناء المنزل على عادة أهل القرى، يحلو لهم السمر في أفنية المنازل؛ يتقون بذلك الحر الشديد الخانق في الداخل. كان الوالد والوالدة يتبادلان أطراف الحديث، وحينما دخل يسلم بادرته الوالدة بالقول: «يسلم دخل شف مريم في المطبخ، قلها اليوم بغينا عشانا بُرْ، خلَّها تسبِّر تعجنه منشان يِرِيْخ سوا.»

وقبل أن يغادر يسلم لتنفيذ أمر الوالدة سأله أبوه: «كيف حال صاحبك يا يسلم؟ عساه ما لُغُب بعد الخبخبة حق الوفاة؟»

ردَّ عليه ابنه: «مبارك مسكين يابه، الله يكون في عونه.»

همَّ يسلم أن يخبر أباه بطلب مبارك من الزَّواج بصفية، ولكنَّه ذكر وعده لمبارك بتأجيل الموضوع، فليُؤجَّل إذًا إلى يوم آخر، ودخل يخبر زوجته مريم بما طلبته والدته، ثم عاد إلى الحوش فوجد صفيَّة قابعة في زاوية منه تستمع لما يدور بين أبويها من حديث. انتهرها يسلم قائلاً: «صفيِّة، وانتي آه قعَّدش هونا؟! قومي ساعدي الحرمة في العشاء، آه حاجتش لا شُغُل ولا مشغلة.»

امتثلت صفية لأمره على مضض، ودخلت إلى المطبخ؛ تساعد مريم في إعداد العشاء.

بعد مرور أسبوع على كلام مبارك لصديقه يسلم في موضوع صفيِّة، رأى يسلم أن يكلِّم أباه ويؤدِّي أمانة تبليغ الوالد بطلب يد صفية، لأنَّ مبارك ينتظر جوابه، وهو إلى الآن متردد في إخباره، فقرر مصارحة أبيه بالأمر هذه الليلة.

عندما دخل يسلم المنزل بعد صلاة العشاء، وجد عائلته في حوش المنزل على عادتهم، وكانوا في حالة من النَّشوة والحبور يتجاذبون الأخبار الطريفة والنكات

المليحة، فوجدها يسلم فرصة سانحة ليُحدِّث أباه في الموضوع، وينقل له طلب مبارك يد ابنته صفيّة. فاقترب من أبيه محيّيًا، ثم همس في إذنه أنّه يريده في أمر مهم، فقام أبوه معه وتنحّيا جانبًا في الفناء، بعيدًا عن الجمع يتهامسان في أمر زواج مبارك من صفيّة.

ابتدر يسلم أباه بالحديث بعد أن وصلا إلى ركن بعيد من الفناء قائلا: «صفيّة يابه جاء لها عريس.»

توقّف العم عمر بعد أن كان يهمُّ بالجلوس، ثم نظر إلى يسلم وقد ارتسمت على وجهه نصف ابتسامة قائلاً: «عريس جاء لاختك؟! هت كلام ثاني!» ثم قهقة العم عمر كمن سمع نكتة طريفة للتو!

لم يبتسم يسلم، بل واصل حديثه لأبيه بجدِّية: «والله يا بوي ذا لي حصل، كلمنا رجَّال فيها، وقال لي كلِّم أبوك في الموضوع. إن وافقت بيتقدَّم لها رسمي، والا ماحد شاف حد.»

جلس العم عمر على أرض الفناء مستندًا بالجدار، ثم قال متهكِّمًا: «هومن هوذا المغفل لي بغى صفيّة؟ أكيد ما يعرفها ولا يعرف غشامتها!»

صمت العم عمر قليلاً وهو يفكّر، ولمّا لم يتلقَّ جوابًا من يسلم بسرعة أكمل حديثه بنبرة واثقة: «مية في المية الرجّال ذا غريب، ماهو من قريتنا، وحد وصفها له بغى بايغربقه فيها!»

- «لا والله يا بوي ماهو غريب ولا حاجة. لي طلبها صاحبي مبارك، لي انته تعرفه وتعرف أخلاقه، والقرية كلها تحبه وتحترمه.»

- «مبارك؟! ما ذلَّا يا خير شاب. وصاحبك ذا ما حصَّل ألَّا الشَّعْنُوْنِـة ذي يطلبها للزواج؟!»

- «الشَّعْنُوْنِـة ذي بتك كنك آه يابه. هيا آه قلت، نقوله هواه؟ موافقين والا لا؟»

- «موافقين أكيد موافقين يا ولدي، ومنين بانحصل عريس لاختك أحسن من مبارك؟ بس المسكين خرج من تكاليف مرض أمه ووفاتها، وبايقع ما بيقدر على تكاليف العرس.»

واعتدل العم عمر في جلسته قبل أن يكمل: «ماهو تقول يومه صاحبي بانعطيها إياه بالفاتحة! لا لا شفنا بغيت مهرها عشرة قروش ما تنقص قرش واحد.»

- «ليه كذا يابه؟ شفه ألَّا مسكين ما معه شي لَهْ.»

ارتفع صوت العم عمر قليلاً وهو يقول مستنكرًا: «وكاكيه عاده بغى العرس ويفكر فيه وهو ما معه شي!» ثم تنهَّد قبل أن يواصل حديثه: «قع عاقل يا ولدي العرس مسؤولية وتكاليفه تكاليف. والشغلة ماهي مسألة مهر وبس، الدّار حقه بغى عَرَاب، والماعون حق الزواج بذيك الطّرايق، والموجبات بغت، وتكاليف الدهينة والحراوة، شغلة ماهي سهلة! آه تشوف انته؟ مبارك بيقدر على ذا كله؟»

ولمّا لم يرد يسلم عليه، صمت العم عمر قليلاً ثم استدرك: «والله إن كانه قادر أهلاً وسهلاً، وإن كانه ماهو قادر، الله يسهّل له.»

سأل يسلم أباه مستفسرًا: «ألا باقولك يابه، بايقع كم باتكلف هيذي الشغلات كلها لي ذكرتها، وانته يومك عاقل تعرف تقدِّر، بايقع بغت كم منّه؟»

- «كم بغت منّه؟!» قالها العم عمر متهكمًا، وواصل: «بغت عَدَادِي وايده يا ولدي، العرسات ماهي سهلة، وبعضهم شفهم يتغربقون في الدّيون منشان يعرسون، وذا شفه ماهو زين برضه، يتمون وقت طويل من حياتهم يسددون الديون لي عليهم، ذي معادها عِيشة!»

- «أيوا يابه بايقع بيكلفه كم العرس؟ منشان يحسب حسابه ويعرف إن كانُه قادر عليه والا لا.»

- «يالله يا ولدي تعال بنحسبها أنا واياك، أول أنا بغيت مهر بتّي عشرة قروش، لاحد كلا ولا شرب فيها، بغيتها كاملة مكمَّلة. وبعدين بغى له بيقع خمسة قروش

يشتري بها ماعون جديد لداره، أمَّا رش الدار لو بيشوف حد من أصحابه العمال بيعطونه كم عصريات معاد بايكلفه جم، بغى ألا حق النُّورة، قل انته قرش نورة للدار باتكفِّي وباتزيد. أمَّا حق العزومات وحق الدهينة والحراوة شفها مكلّفة، شفها بغت منه بيقع خمس تعشر قرش، ألا إن كانه بايذبح حقه الغنم، شفها باتقل التكلفة إلى حوالي عشرة قروش. معناها الشغلة كلها يا ولدي بغت أقل حاجة بين ستة وعشرين لا واحد وثلاثين قرش. إن كان معه الفلوس ذي، يقدِّم كوره، والا ماحد شاف حد.»

- «ما ظن إنّه بيقدر على التكاليف ذي يابه. أنا باقوله بالموضوع وهو بُصْرُه، يحسب حسابه.»

- «أيوا قل له انته هوذا الكلام، وقله أبوي من ناحيته ما عنده مانع ابدًا إن صفيّة تكون من نصيبه، ويومها عادها ألا صغيرة الله يعينه عليها، وربك إن شاء الله يطرح فيها العقل والبركة، ماشي عند الله بعيد.»

- «خلاص يابه شفنا باروّح ذحِّين قداه، وباكلمه في الموضوع مازال الدَّم حار.»

- «الله يوفقك يا ولدي، توّك رح قدا صاحبك وقُل له هوذا الكلام، وهو عليه يحسب حسابه، ويشوف إن كان معه عدّي وين باتصّله.»

***

كان مبارك حينها قد همَّ بالنّوم، عندما طرق يسلم الباب وصاح مناديًا: «مبارك، مبارك، عادك ذاهن والا نمت؟»

قفز مبارك من فراشه وقفز معه قلبه في صدره من الفرح، فقد استبشر خيرًا بقدوم صاحبه، ودخل معه إلى المنزل يتجاذبان أطراف الحديث:

- «يا حيّابك يا يسلم، عادنا ألا طرحت كوري في التَّكية بانام الا وسمعت صوتك، خير إن شاء الله.»

- «إن شاء الله يكون خير. الا بقولك على الموضوع اللي كلمتنا فيه، شفنا كلّمت الشيبة وقال إنّه موافق، بس الله يهديه طلب مهر واجد لبته ولا بغى ينقّص حتى قليل منّه، كِلمته كلمة بدوي الله يهديه.»

قال مبارك بصوت يملأه الخوف والتوجس من سماع الجواب: «ليه طلب كم أبوك مهر لبته؟»

- «طلب عشرة قروش كاملة، ما تنقص حتّى قرش واحد!»

- «والله يا يسلم ودِّي حتّى إدفع أكثر، كنك إنته تعرف كذك، الحمار في الشمش! صَدَق لي قال المال الشُّوي يزري بصاحبه. بس أنا حصِّلت قليل فضة حق الوالدة الله يرحمها ومريّة حق ذهب، بكرة إن شاء الله باروح المدينة وباشوف كم باتجيب عدِّي.»

- «والله يا مبارك الله يكون في عونك، الشغلة ماهي شغلة مهر بس، شف نحنا قعدنا أنا والشيبة وتكتكنا الحساب؛ من رش الدار، وشراء الماعون، وحق الموجبات وحق المشترحين، وجملناها طلعت لنا بايقع واحد وثلاثين قرش، يزيد قليل ينقص قليل. ما ظن إنك باتقدر على هوذا المبلغ.»

- «إن بغيت الصّدق يا صاحبي، المبلغ ذا شفه كبير عَلَي جم، لكن أنا غُدوة باروح المدينة، وبعد ما بيع ما معي من ذهب وفضة، بعرف إن كانَّا نقدر على العرس ولا لا.»

- «توّك يا صاحبي رح غدوة والله معك، وانا عَلَي بادعي لك إنْ ربي يفتح لك.»

- «مشكور يا صاحبي، ما قصرت ولا باتقصر معي ابدًا. ذحين شف هَهْ، شفت ذيك البقشة لي على مَلاك، كيه هتها.»

كان مبارك قد جهّز ذهب وفضة أمه من قبل؛ لبيعها في السوق بعد أن يعلم رد العم عمر.

نظر يسلم إلى الجهة التي أشار اليها صديقه، ثم مد يده إلى البقجة وقال: «على ذي؟»

- «أيوه هيذي، كيه شلَّها وفْتحها.»

مدَّ يسلم يده محاولاً إمساكها، فلم يستطع بسهولة! كانت ثقيلة، ولكن بعد أن زحف إليها قليلاً، حملها وفتحها، فإذا فيها مصاغ الوالدة المرحومة من الذهب والفضة.

اندهش يسلم مما رآه! لم يكن يتوقَّع أن والدة مبارك معها هذا الكم من الفضَّة أبدًا. ما رآه ليس بالقليل أبدًا، فسُرَّ لذلك وقال: «ما شاء الله يا مبارك! العجوز –الله يرحمها- كانت معها خيور ما شاء الله ما شاء الله.»

- «يالله يا مسهِّل، عساه يجيب لنا قيمة زينة.»

- «الله كريم يا مبارك، عليك ألا انته ترجَّل عليه، لا تزقُّفه أطرف واحد لَه! دُر على كَمَّه صَوَغ لَوَّل، واللي يعطيك فيه قيمة زينة بعه عليه.»

- «إن شاء الله غدوة الشمش باتشرق والخبر باياتي. يا صابت يا خابت.»

- «بقعا باتقع ألا زينة إن شاء الله. أنا ظُن إن الفضة باتجيب مبلغ وقدره والله أعلم، ذلَّا شفها هَه ما شاء الله ثقيلة.»

قال ذلك وهو يهزُّ بقجة الفضة بين يديه، وكأنَّه يزنها بعقله! ثم أردف مبتسمًا: «والا سمع يا مبارك، آه رايك تفتح لك مصوغة بالفضِّة ذي؟!»

- «قل ما شاء الله! آه الاستهبال حقَّك ذا.»

ضحك يسلم قائلاً: «ما شاء الله ما شاء الله. ماشي حولك لَه، ألا نصفط معك. وإن شاء الله تجيب ألا عدِّي العرس وزيادة.»

- «من اثمك لباب السماء يا يسلم. وبعدين عادنا بوخذ لي درية في السوق، وباشل الماعون حق العرس. كذه مشوار واحد.»

- «ريض أحسن، بناقص مشوار. يالله يا مبارك مانا شفنا باروّح، بايقع آل الدار كلوا العشاء عَلَي، شفنا طوَّلت عندك، الوعد ألا غدوة.»

- «يالله على خير يا يسلم، متشاوفين غدوة إن شاء الله.»

خرج يسلم متوجهًا إلى بيته وقد ساوره شعور بالفرح والرِّضى. وفي هذه اللحظات بالذَّات أحس يسلم أن صفيَّة أخته ستكون من نصيب صديقه العزيز مبارك.

أمَّا مبارك فبمجرد إغلاق باب الدار، دخل غرفته مُفعمًا بالحلم وبأمل جديد في بدء حياة جديدة مع صفيَّة أخت صديقه، التي أحب فيها طيشها وبراءتها وكونها أخت أعز أصدقائه. أطفأ المصباح الذي كان قد أشعله لحضور يسلم، وراح يغط في نوم عميق.

الفصل الرابع: بيع المصاغ

استيقظ مبارك على صوت أذان الفجر، فأشعل مصباحه وذهب إلى الحمام ليتوضَّأ للصَّلاة، وبعد أدائها عمد إلى صندوق الوالدة؛ ليأخذ المصاغ منه فيذهب به إلى سوق المدينة، لأنه كان قد أعاده إليه بعد أن عرضه على يسلم. عندما حمل مبارك المصاغ من الصندوق أدرك أنه ثقيل فعلاً كما قال يسلم؛ مما يعني أنه كنز حقيقي بالفعل! كنز لم يكن يتوقعه أبدًا. وتساءل بينه وبين نفسه من أين جاءت الوالدة بهذه الفضة المخبأة كلها يا ترى؟!

بعد برهة من التَّفكير، تذكر مبارك أن الوالدة -عليها رحمة الله- كانت قد باعت في قريتهم القديمة بيتًا قديمًا كانت قد ورثته من أبويها، وتقاسمت ثمنه مع أخ لها يعيش الآن في كينيا، ذهب إلى هناك ولم يفكر في العودة إلى وطنه أبدًا. أخبرته الوالدة أنّ خاله قد تزوج بإحدى بنات الحضارم في المهجر، ولم يعد يُفكِّر بأحد، وانقطعت أخباره عنهم تمامًا، ولم يره مبارك في حياته قط.

خاله علي، يا ترى أما يزالُ حيًّا الآن؟ ألهُ أولاد؟ ولماذا لم يراسل أخته أو يتفقد أحوالها؟ تساؤلات لم يجد لها مبارك أي جواب، كل ما عرفه من أمه أنَّ خاله هذا بمجرَّد أن قبض نصيبه من البيت القديم غادر إلى كينيا بلا رجعة، ويبدو أنَّه كان غير راضٍ عن زواج أمه بأبيه، وهذا - فيما يظنُّ هو- سبب الجفوة بين الأخ وأخته، فلقد سمع والدته تذكُر ذلك.

المهم الآن أن هذه الفضة –على الأرجح- اشترتها والدته من نصيبها في ثمن البيت القديم المُباع، فوالده المرحوم لم يكن غنيًّاً ليهديها كل هذا المصاغ. أعاد مبارك تقليب المصاغ في يده، وفرح كثيرًا؛ لثقل كميَّة الفضة التي وجدها مع الوالدة، وأمَّا الذهب فلم يجد معها سوى مرِّيَّة واحدة فقط، ولكن حبَّاتها على كل حالٍ ثقيلة هي الأخرى، فاستبشر مبارك خيرًا.

صَرَّ مبارك الذَّهب والفضة في بقجة على أمل بيعها في السوق. كان الوقت لا يزال مبكرًا، فما كان منه إلا أن أخذ المصباح بعد أن أغلق صندوق الوالدة، وتوجَّه نحو زريبة الغنم، فبادر بإطعامها بسرعة قبل أن ينصرف، ووضع لها الطعام والماء في الآنية المخصصة لها، وعلى ضوء مصباحِه الباهت بدأت غُنيماته تقضمُ ما وضعه لها من حشائش (الشِّيَر) وتشرب الماء. أمَّا هو فقد شرد ذهنه يحسب أعدادها، وما هي المبالغ التي عساها أن توفرها له إذا ما عزم على بيعها، وأحسَّ بشيء من الارتياح، فقد كانت أغنامه في صحة جيدة، ويمكن أن تدر عليه مبالغ مُرضية، أو توفر له لحم العزائم التي يحتاجها الزواج، فتقل بذلك المصاريف.

أكلت غُنيماته وشربت، وبعدها أحضر مبارك طاسته وحلب لنفسه لبنًا من إحدى شياهه، ثم أخذ مصباحه من الزريبة وأغلق بابها وانصرف ذاهبًا إلى مخزن المؤونة، وبعد أن قرَّب مصباحه من إحدى جحالها وفتحها، دسَّ يده فيها؛ ليتناول منها ما يكفي لسدِّ جوعه من تمرها.

وهكذا أصبح فطوره المكوَّن من اللبن والتمر جاهزًا ليتناوله ويبدأ به يومه، إذ لم يكن في البيت من يطبخ له بعد مرض الوالدة ووفاتها، ولكن هذا الفطور المتواضع كان كافيًا جدًا ليمده بالهمَّة والنشاط. وبعد أن أشرقت الشمس بدأ مبارك يُجهز نفسه للذهاب إلى المدينة لبيع الذهب والفضّة، فحمل صُرَّة المصاغ وغادر الدار والقرية مستبشرًا.

***

سار مبارك بين المزارع مسافة لا بأس بها، قبل أن يصل إلى الطريق العام المؤدي إلى المدينة. كانت الأجواء خريفية بامتياز، فالسَّماءُ منقوشة بغيوم طفيفة متباعدة، نُتفٌ من السُّحب المتناثرة هنا وهناك في طريقها إلى التلاشي والاضمحلال، وأشعة الشمس تختبئُ بين الغيوم من حين لآخر. ظل مبارك واقفًا هناك فترة لا بأس بها من الانتظار، قبل أن يلمح من بعيد عربة يجرُّها حمار قادمة باتجاهه. وبعد قُربها منه

اتضح أنها تحمل مؤونة، وهي تشقُّ طريقها عبر الطريق المؤدِّي إلى المدينة التي يقصُدها مبارك.

أشار مبارك لصاحب العربة بالوقوف فتوقف، كان العربجيُّ كهلاً ذا لحية مشذَّبة يغلبُ بياض شعرها على سواده. أخبره مبارك برغبته في الذهاب معه إلى المدينة، وبدأ يتفاوض معه على أجرة حمله إلى هناك، فقال لصاحب العربة: «السلام عليكم يا عمِّي، وراك بغيت المدينة؟»

- «نعم يا ولدي، بغيت المدينة.»

- «باتشلَّنا معك؟»

- «نعم باشلَّك معي، بس شفه ماهو بلاش لَه، ما بلاش ألا تنطيح الكباش! باشلك بخُمْسِيَّتين، آه قلت؟»

تردد مبارك عن الإجابة قليلاً، وفكّر في كلام الرجل، أيقبل عرضه أم ينتظر أكثر في قارعة الطريق؟ فلرُبَّما كان أحد أهل قريته يريد الذهاب إلى المدينة، فإذا صادفه مبارك فسوف يأخذه معه دون أي مقابل.

تضايق العربجيُّ من سكوت مبارك، فلم يُمهله طويلاً حتى أكمل: «سمع يا ولدي، معك خُمسيِّتين شَقَايِة منشان نصِّلك ركب في عَرْبِيَّتي، ما معك شي شف واحد ثاني يصلك، أنا ألا طالب الله والتِّليداد ما بغيته، معك الخَمَاسي طلع ولعاد تقطع بي، أصحاب السِيْمَان ذا...» وأشار إلى كومة من الأكياس ملقاة على السطح الخشبي للعربة «...ماقفين لسيمانهم، آه قُتْ؟ معك العدِّي والا نتوكل؟»

لم يكن لدى مبارك خيارٌ آخر، فقفز على ظهر العربة، وانطلقت بسرعة تحثُّ السير نحو المدينة.

وعندما وصلت عربة الحمار قفز مبارك منها، وأعطى صاحبَها الخُمسيِّتين اللتين طلبهما، ثم ذهب يبحثُ في محلات بيع الذهب والفضة عن مشترٍ جيد لمصاغ الوالدة المرحومة.

دخل مبارك أكثر من محل؛ باحثًا عن قيمة أكثر لما يحمل من مصاغ. بدأ بمحلات الفضة، دخل محلاً وثانيًا وثالثًا، حتى وجد ضالته أخيرًا.

- «يا صاحب المصوغة كيه وزن لي الفضة ذي، وقُل لي كم باتجيب.»

تناول الصائغ الفضة ووضعها في ميزانه، وأخبره بقيمتها خمسة عشر قرشًا لا غير. وكان جميع من سبق وسألهم يقفون عند حد الأربعة عشر قرشًا ونصف القرش بعد مساومتهم، أمَّا صاحب هذا المحل فقد زاده نصف قرش، وهذا جيِّد.

خاطبه مبارك: «تشتري يا خوي بالسعر ذا اللي قُتُّه، والا انته الا مثمِّن بس؟»

- «نعم مشتري.»

- «يالله يا خوي، بعنا عليك. خذ الفضة وهت العدِّي.»

ناوله الصائغ ثمن الفضة، فخرج من المحل بعد أن دسَّ النقود في جيبه، وأخرج مريِّة الوالدة وذهب إلى محلات الذهب يبحثُ فيها عن مشترٍ جيد لها.

بعد البسملة، بدأ ودخل المحل الأوَّل، وساوم الصائغ على ثمن المريَّة: «كيه ياخي بغيتك توزن المريِّة ذي وتقول لي كم باتجيب.»

تناول الصائغ المرية من يد مبارك، ونثر حباتها في ميزانه حبةً حبة، بعد أن كانت منتظمة في خيط يُشبه خيط المسبحة، وأخبره بعد الوزن بالقيمة: «المرية ذي تسوى عشرة قروش.»

تفاجأ مبارك بالثّمن! فقد كان يظنُّ أنها لن تأتي إلا بخمسة أو ستة قروش فقط، ولكنه تدارك أمره وساوم الصائغ: «ما بتقع بحدعشر لَهْ؟»

- «بحدعشر هواه هلل!»

وابتسم الصائغُ وهو يناول مبارك حبات المرية بعد أن لفها في ورق الذهب الوردي من عنده وناولها إياه قائلا: «إن كان ما عجبك سعري شُف لك حد ثاني، يمكن حد يعطيك أكثر فيها، الله يسهل لك.»

تناول مبارك حبات الذهب من الصائغ، وبعد أن لفَّها في خرقة خرج من عنده؛ علَّهُ يجد من الصَّاغة من يدفع فيها أكثر من العشرة قروش التي حددها الصائغ الأول. دخل محلات كثيرة والأسعار ثابتة، لا بل أنَّ بعضهم أنقص من السعر المحدد نصف قرش، وبعضهم قرشًا كاملاً.

عاد مبارك أدراجه إلى الصائغ الأول، ودفع حبات المريِّة له مرة أخرى وطلب ثمنها قائلاً للصائغ: «ياخي شفنا رجعت لا عندك، أنا صاحب المريّة لي وزنتها وثمّنتها قبل قليل، إن كانك مِشتِري بالعشرة قروش بعت عليك.»

- «نعم بشتري... كيه؟!» وتناول الحبات من يد مبارك، وأعاد وزنها في ميزانه ثانية، ثم ناول مبارك مبلغ العشرة قروش، فأخذها وغادر المصوغة.

تنهَّد مبارك بارتياح، وشعر بالسرور يملأ نفسه لأول مرة بعد وفاة والدته، ورفع يديه نحو السماء التي عاودت سحبها التجمُّع من جديد، شاكرًا لله وترحم على روحها، فقد امدَّته بالأمل مما تركت له من ثروة ومال.

الفصل الخامس: جولة تسوق

رأى مبارك أن في ذهابه إلى المدينة فرصة لشراء لوازم الزواج؛ من فرش ووسائد وأواني جديدة، فقد كان أثاث بيته في القرية قديمًا ومتهالكاً، ولا يصلح إطلاقًا لبيت الزوجية. كان مبارك قد وضع ليلة البارحة قائمة بالأشياء التي يريد شراءها، وما كان عليه بعد أن باع المصاغ إلا أن يبدأ جولته الشرائية.

كانت محلات بيع السجاد تجاور محلات بيع الذهب، فدخل أول محل يبيع السجاد، وسأل عن الأسعار، ثم خرج ودخل ثانيًا وثالثًا، وحينما حدد المحل الذي يريد الشراء منه، اشترى منه سبع قطع وتركها عنده على أن يعود لأخذها لاحقًا.

ثم ذهب إلى محل بيع الأواني القريب من ذلك المكان، واشترى منه ما كان ينقصه من الأواني كالصحون والملاعق والقدور والكؤوس وغيرها، وتركها في المحل كذلك ثم ذهب إلى محلات أدوات الزينة واشترى منها ما يحتاجه وأخذها في يده؛ لأنها خفيفة الوزن.

ذهب مبارك بعدها إلى سوق الشطف، واشترى منه خمس حصر، وسفرتي أكل، وأوعية لحفظ الخبز وتوزيعه، وصندوقين صغيرين أرادهما مبارك لحفظ ملابسه وأشيائِه الخاصة، ثم استأجر عربة من هناك؛ تأخد ما اشتراه من هذا السوق، واشترط على العربجي أن يوافق على لملمة ماعونه المبعثر في دكاكين السوق، ثم توصيله بعد ذلك مع ماعونه إلى الطريق العام المؤدي إلى قرية سبولة، واشترط عليه أيضًا أن يُعطيه خمسيتين بعد إنجاز هذه المهمة.

وافق العربجي، وبدأ مبارك يلملم حاجياته التي اشتراها من دكاكين السوق واحدًا تلو الآخر. عندما كان يقوم بهذه المهمة، بدأ الجو يتغير فجأة؛ فالغيوم السوداء كانت قد حجبت ضوء الشمس، وبدأت أصوات الرعد تُسمع من حين لآخر، وازدادت

شدَّتها عندما كاد مبارك أن يُكمل لملمة ماعونه، ويذهب إلى الدكان الأخير الذي يوجد به سجَّاده الذي اشتراه.

تساءل العربجي حينها: «ذحين بغيت بالماعون ذا وين يا ولدي؟ غير ما انته دارك بعيد؟ شفها الا اشتقول باتمطر، عسى دارك قريب؟»

ردَّ مبارك وهو ينظر إلى السماء بقلق بالغ: «قريب هواه يا عمِّي؟ داري في قرية سبولة! قريب هواه؟!» ونظر إلى ماعونه مكملاً بأسى: «يا ريتنا عادنا ما اشترت الماعون ذا، آه بالقِّي بس إن مطرت؟»

شعر العربجي بالأسف لحالة مبارك، واقترح عليه: «انته ألا أحسن لك طرحه عند حد من معارفك هنا، والا شفه بايتبهذل من المطر.»

بدأ الذعر يتسلل إلى قلب مبارك بعد أن رأى بوادر المطر قد بدأت بالفعل، وهاهي السماء تهدي الأرض بوادر غيثها، قطرات من الماء ازدادت غزارتها وشدتها بصورة مفاجئة مع اقترابهم من محل السجاد محطتهم الأخيرة. تمتم مبارك: «لا حول ولا قوة إلا بالله! ذحين آه الحظ العيف ذا؟ يا ريتنا ما اشتريت البضاعة ذي، ذحين آه لقِّي بس؟»

توقَّفت العربة بجانب محل السجاد، ورآه التاجر الذي اشترى منه السجاد سابقًا، فجاء إليه يناوله القطع التي اشتراها منه، وسأله وهو يرى البلل قد بدأ يتسرب إلى الماعون الموجود فوق العربة: «ذحين يا خوي سرع بماعونك ذا للدار، وغطُّه لوَّل بشي. ما تشوف المطر تطرح فوقه لَه؟ عسى دارك قريب من السوق؟»

رد عليه مبارك بعينين جاحظتين وهو يحاول بلع ريقه: «لا يا خوي داري في قرية سبولة، وخوك ذحين قعت له طحية ما كماها! شفها قريب ألا خمسة قروش خسرتها في الماعون ذا، وذحين الظاهر إننا باخسره.» كانت الحسرة واضحة في نبرات صوته، ثم أكمل قائلاً: «ذحين أقِّي هواه؟ لانا عادنا ما اشترته كان أحسن، ما ذحين خلاص كذ لفلفته من كَمِّين دكان، آه لي بايرجِّعه؟»

شعر صاحب الدكان بالأسف، ورثي لمبارك وحاله تلك: «أوهوي! معادها طحية لاشق! وبعدين باتقِّي كاكيه يا خوي؟»

- «والله علمي علمك، مانا داري أقِّي هواه.»

- «طيِّب حد يعرفك قريب من السوق هنا؟»

- «لا قريب ولا بعيد، مالي حد أهل هنا أبدًا.»

كانت السماء حينها تمطر بغزارة، وتضرب الأرض بقوة، وكلما مضى الوقت كان احتمال تلف ماعون مبارك الموجود فوق العربة مؤكدًا.

اقترح صاحب الدكان بعد أن رأى ظروف مبارك الصعبة: «خلاص يا خوي دريت، أنا بفتح لك باب المستودع حقِّي، طرح ماعونك فيه، وبعد ما تهدأ المطر لا كذك بغيته تعال شلُّه. بايتمِّي مربَّط كما يوم ربَّطته انته، ماحد بيحزِّكه أبدًا، استامِن.»

هنا فقط شعر مبارك بفرح عظيم، وأطلق تنهيدة ارتياح طويلة أزاحت معها ما ترسّب في أعماقه من حزن وهم، وانفرجت أسارير وجهه عن ابتسامة شكر وعرفان لصاحب المتجر، وأجاب على الفور: «والله شفك فكّيييت علي يا خوي! يالله يالله، فتح المستودع حقك.»

خرج الرجل مسرعًا وفتح لمبارك باب مستودعه؛ ليضع فيه مشترياته، وكانت السماء لا تزال تمطر بغزارة. اطمأن بال مبارك قليلاً بعد أن انتهى من نقل آخر قطعة من ماعونه إلى داخل المستودع، فحاسب العربجي على نقل ماعونه إلى هناك. تناول العربجي الخمسيتين من يد مبارك وذهب لحال سبيله.

عاد مبارك يحادث التاجر الذي أغلق باب المستودع وسأله: «ذحين انته باتقدر تروِّح بلادك هوكذا بدون ماعون؟»

- «لَه ما بقدر لَه، ذلا شف المطر كاكيه هَه تصب صبيب، وبايقع السواقي حق الطريق ملانة، وش قدَّرنا نعبر؟ بايشلَّنا السيل!»

- «ذلا باتقِّي كاكيه ذحين وانته غريب؟»

أطرق مبارك قليلاً يفكّر في حلّ لمأزقه، ثم قال: «باروح بادوِّر لي مسجد وبقعد فيه، لمَّان يخف السيل لي في السواقي، بعدين باشوف إذا قدرت اعبر.

- «ما ذا شفه ما بايقع اليوم لَه. ذلا شف المراعيض تطرح كاكيه هَه، مطر قويّة!»

- « كذنا داري، ما اليوم ألا فات شرُّه والمبيات أكيد هنا، ألا الله أعلم لمان متاه باتمِّي في البلاد ذي. كذ نحنا داهلين يا خوي، لا كذ جات سيول قويّة تتقطّع الطرق بينّا وبينكم. أحياناً ثلاثة أيام وأحياناً زايد لكذه مطر مستمر، كذها فضيلة علينا!»

واساه صاحب الدكان: «خلاص يا خوي، معاد ألا حق ربَّك لا تتحمَّل به.»

- «خلاص يا صاحب الدكان، مانا شفنا باروح دور لي مكان اندخش فيه مدة المطر ذي لمان يفرجها رب العالمين. وقبل ما روِّح بغيت باقولك إننا يمكن معاد ندخل هنا لَه، وإن كان ما دخلت باوصِّي صاحبي يشل الماعون حقي من عندكم، شفه اسمه يسلم، لا قالك باسمه وإنه من طرف مبارك لي هو أنا، عطه الماعون.»

- «طيب طيب، يا خير شور. ليه يدخل صاحبك ذا هنا دايم أهواه؟»

- «أيوا هو أصلاً صاحب دكان، وحاجته دايم يجيبها من عندكم هنا.»

- «خلاص طيب، حتى بكتب الأسامي؛ منشان منساها بس.»

وأخذ صاحب الدكان قطعة ورق سميكة كتب عليها الاسمين يسلم ومبارك، ووضعها في درج نقوده، ثم عاد يخاطب مبارك: «خلاص استامن يا خوي، بايقع ألا خير إن شاء الله، توَّك انته الله معك.»

بعدها سار مبارك في أزقة ضيّقة من شوارع المدينة التي لا يعرفها. كانت ميازيب البيوت تصبُّ ماءها فوق رأسه مباشرة وقد التصقت ثيابه بجلده، وهو يمشي بحذر وبطء شديد؛ كي لا تنزلق رجلاه من الوحل. حتى حذائه الذي كان يلبسه خلعه من رجليه بعد أن أصبح ثقيلاً عليه، لا يستطيع أن ينتزعه من الأرض إلا بصعوبة بالغة.

كان الحذاء حينها قد انغرس في الطين، وكاد أن ينقطع عندما حاول انتزاعه بقوة، لولا أنه انحنى إلى الأرض وخلعه وشدَّه من مغرسه بعد أن أزاح الطين اللزج عنه.

حمل مبارك حذاءه بيديه بعد أن غسله وأزاح الطين المُلتصق به بماء المطر الجاري بين رجليه، كأنه نهر صغير دائم الجريان تغذِّيه مياه الميازيب التي تصبُّ ماءها صبَّاً في شوارع المدينة بفعل غزارة المطر واستمراريتها.

كان مبارك يسير في شوارع المدينة على غير هُدى، والمياه الجارية تغطِّي قدميه، وقد تلوَّث إزاره الجميل الذي تعمَّد لبسه عند قدومه إلى المدينة، وتلوَّث قميصه وغترته أيضًا، حتى شعره قد صار شَعِثًا وقد التصق بوجهه حال خلع غترته عن رأسه؛ ليعصر ما فيها من مياه الميازيب التي انسبكت فوق رأسه أثناء مروره في أزقة المدينة.

وهاهو ذا يمرُّ أخيرًا أمام أول مسجد يصادفه منذ أن ابتدأ سيره في الشوارع. فرح كثيرًا لعثوره عليه، ودخله مسرعًا؛ ليحتمي بداخله من غزارة المطر في الخارج.

الفصل السادس: حبيس العاصفة

كان المسجد لا يزال فارغا من الناس تمامًا، لم يحن وقت أذان الظهر بعد، ولكنه أوشك على الدخول. آثر مبارك أن يراه من يَؤُمُّ المسجد في حالٍ حسنة، فتوجَّه إلى أقرب جابية من جوابي المسجد، وأغلق على نفسه بابها. خلع ملابسه وغسلها جيِّدًا، ثم انغمس بدوره في ماء الجابية؛ يغسلُ ما علق بجسده وشعره من أقذار المطر ووحل الشوارع.

بعد أن تأكد من أن شكله قد بدا مقبولاً نوعًا ما، فيما عدا البلل الذي يغمر ثيابه ورأسه، برغم أنه بذل قصارى جهده في عصر ثيابه وتخليصها من الماء، لكنها مازالت مبللة وتحتاج إلى تجفيف، لو أن لديه غيرها لبدَّلها، ولكن هيهات. صحيح أنه اشترى ضمن ما اشتراه لزواجه ملابس جديدة، ولكنه كان قد ربَّطها في ماعونه، وتركها في مستودع التاجر، لا يهم هذا البلل، فكلُّ من سيحضر إلى المسجد سيكون مبلولاً؛ لأن السماء لا تزال تمطرُ بغزارة، هذا إذا حضر أحدٌ إلى المسجد أصلاً.

اتجه مبارك بعد خروجه من الجابية إلى غرفة المسجد التي يُصلي فيها الناس، وجلس يفكر فيما أصابه هذا اليوم من أحداث مفاجئة ومؤسفة وهو يرتجف من البرد. ما كان يعلم أن الأمور ستسوء إلى هذه الدرجة، ولكن قدّر الله وما شاء فعل، والحمد لله على كل حال.

في هذه الأثناء كان وقت أذان الظهر قد حان، فدلف إلى المسجد رجل كهل في أواخر الأربعينات من عمره، كان في هيئة حسنة، وملامحه تدل على الطيبة والصلاح. رأى مبارك فسلَّم عليه، ثم توجَّه إلى المنارة، فصعد سُلَّمها وصدح صوته الجهوري بأذان الظهر.

بعدها خرج الرجل إلى حيث يجلس مبارك، وسأله في فضولٍ مستغربًا: «من انته يا ولدي؟ من البلاد ذي؟ ما بدا شفتك من قبل في المسجد ذا، والا أنا غلطان؟»

ردَّ عليه مبارك: «لا لا، أنا مانا من البلاد ذي أبدًا، ذلا المطر يا عمّي أقت لي طحية ما كماها. دخلت اتبضع لعرسي ألا وهي تمطر بقوَّة، ومعاد قدرت ارجع بلادي.»

- «وغير ماهي بعيدة بلادك ذي؟»

- «ألا ولعاده شي! لعاد تتكلم لاشق، مسافة ساعة على عربية الحمار.»

- «أوهوي! وبعدين الماعون حقَّك كذ اشتريته ولا عادك؟»

- «والله كذ غُبقت واشتريته وحنبت به، مانا داري اطرحه فيين، ألا ربك صاحب الدكان الأخير اللي اشترت منه بعض البضاعة، رثي لي وفتح لي باب مستودعه، وطرحت الماعون فيه لمان يسهِّل ربي.»

- «على كذا ما باتقدر ترجع بلادك بالسهل لَه، ألا بعد أيام، بعد ما توهد السيول في السواقي والمسابيل.»

سكت مبارك واكتفى بهزِّ رأسه في حزن بالغ، فعاد المؤذن يسأله: «طيب وانته دخلت وحدك والا معك جماعة من أصحابك؟»

- «له دخلت وحدي بس.»

- «طيب ولك حد في البلاد ذي باتروح عنده؟ أهل والا أقارب؟»

- «والله شفنا ما نعرف ولا واحد في البلاد ذي، والا كانًّا رحت عنده، معاد باجي المسجد ذا. يا عمِّي ألا باقولك، آه اسمه المسجد ذا؟»

- «اسمه مسجد المؤمنين.»

- «خلاص يا عمِّي وأنا ضيف الرحمان في المسجد ذا.»

- «أكيد يا ولدي، ما عليك له، الناس عند بعضها، ولا يهمك أبدًا، بايتحسن الجو، وباترجع بلادك في خير وعافية، تطمَّن.»

سكت الاثنان فترة من الوقت، ظل فيها المؤذن يحدِّق في وجه مبارك بغرابة، ثم سأله: «يا ولدي ورانا شفتك من قبل في مكان؟ شكلك ماهو غريب عَلَي.»

ردَّ عليه مبارك: «ما أظن، أنا أصلاً مانا من هنا.»

وبعد مضي قليل من الوقت، تساءل مبارك وهو يتلفَّت حوله: «ذحين شفك من قبيلان من أذنت، وين الإمام حق المسجد؟ ووين الخَلِق؟! وين المصلِّيين؟»

- «ماحد بايجي لَه، لا كذها مطر يلبدون في ديارهم كما الدجاج! ذلا أنا يومنا داري فوق المسجد مباشرة تو جيت. شفه ذا هَه داري.» وأشار المؤذن إلى دار يطل على باحة المسجد المكشوفة وأكمل: «ذلا متر ونص بين داري والمسجد، ما الباقيين ما بايحضرون لَه ألا غدوه كودهم، ذلا الشوارع مجعوثة جعث!»

كانت السماء لا تزال تمطر بغزارة إلى تلك اللحظة، وصار أمل مبارك في عودته إلى قريته يتضاءل ساعة بعد ساعة. خاطب مبارك المؤذن: «خلاص بانصلِّي أنا ويَّاك، انته قَعْ الإمام، وأنا المأموم.»

- «ريّض، يا بختي حصَّلت لي مناوس في المسجد.»

قام المؤذن وأقام الصلاة وصلى بمبارك إمامًا، وبعدها همَّ بالخروج من المسجد، لولا أنه فكَّر بهذا الضيف المسكين الذي يلبس ثيابًا مبللة ويرتجف من البرد، فنادى من ردهة المسجد على ابنه وهو ينظر باتجاه بيته: «علي، يا علي.»

لم يستجب لندائه أحدٌ في بادئ الأمر، ولكن بعد أن كرره أطلَّ من إحدى النوافذ المطلة على المسجد طفل في حوالي الثانية عشر من العمر.

خاطبه المؤذن: «سمع يا علي، قُل لمَّك قال أبوي هاتي المسدرة البنيّة، والصارون الرمادي لي في الصندوق حقه.»

كرر الصبي ما قاله أبوه، كأنه يريد التأكد من صحة ما سمع: «المسدرة البنية والصارون الرمادي لي في الصندوق حقك آه؟»

- «أيوا بارك الله فيك، ونزل بهن لا هنا ذحِّين يا ولدي، سمعت؟»

ماهي إلا دقائق حتى كان علي يناول أباه ما طلب من الملابس. أخذها المؤذن وناولها مبارك قائلاً: «كيه يا ولدي مسك الثياب اليابسة ذي. شفك كاكيه هَه تتنافض من البرد؛ يوم ثيابك كلها رِتْخَة من المطر!»

- «جزاك الله خير يا عم بو علي. ذحين قُل لي يا بو علي، هوذا الولد معك بس والا عاد حد ثاني؟»

- «لا لا ما شاء الله، معي ثلاث بنات مزوِّجات، وبعدهن علي واثنين سقل بعده.»

- «ما شاء الله ما شاء الله. الله يبارك فيهم كلهم.»

- «وفيك يا ولدي، قُت لي آه اسمك؟»

- «اسمي مبارك يا عمِّي.»

- «وتشتغل هواه؟»

- «نسني في مزرعة حق رجَّال طيب.»

- «يا بختكم يا أصحاب الريف، موهدين ماشي ضارب عندكم كما المدن حقنا ذي.وما شاء الله الماء والخضرة والرزق الطيِّب. يا بختكم!»

- «وانته يا عم... ذحين شفنا ما عرفت اسمك يا عمِّي؟»

- «اسمي حسن بن معتوق.»

- «وانته يا عم حسن ذحين آه شغلتك، والا مؤذن بس؟»

- «لا لا يا ولدي، الأذان ألا من زايد. لله وفي الله، شغلتي ألا معي دكان فيه هوكذا بضاعة حق دار، بيع صحان وفناجين ومسارف وبرم وقفف.»

شعر مبارك ببعض الحرج من المؤذن، فقال: «يا عم حسن والله ما شفتك يوم تبضَّعت لماعوني، وين دكانك؟»

- «دكاني يا ولدي قليل مدخوش، ماهو كما لي اشترت من عندهم، تو يشوفونهم الناس.»

- «طيب وعلى كذا بايقع السوق عندك بارد؟»

- «لا لا أوهوي آل البلاد كلهم مواعينهم ألا من عندي، ألا الغُرْبَا لي كماك كذا شفهم يشترون من أصحاب الدكاكين لي هم بوابهم عالخط؛ يومهم مساكين ما يعرفون آل البلاد وشوارعها.»

- «سوا كلامك، كننا يومنا عرفتك ذحين، لا كذنا بغيت مواعين والا شي تو باجي ألا لمَّان عندك، انته ألا روَّنا الدكان ولعاد سيبك أبدًا، حتى أصحابي في سبولة باوصفهم على دكانك.»

- «خلها بالسهالة يا ولدي، كلين برزقه، وما شاء الله الأمور ألا ميسَّرة ولله الحمد.»

ثم نادى بصوته العالي مرَّة أخرى على ابنه علي: «علي، يا علي...يا علي.»

فأطلَّ علي من نفس النافذة ثانية وتساءل: «آه كنك يابه، وراك طرَّبت؟»

- «أيوا أيوا، قل لُمَّك هاه زيِّدي الغداء اليوم سمعت؟ إن كانها عادها ما لقّته.»

فأعاد الولد ما قاله الأب ثانية: «تزيِّد الغداء؟»

- «أيوا، قلها يقولش أبوي زيدي الغداء، عندنا ضيف.»

- «وليه تكلِّف نفسك يا بو علي، أنا الا ريِّض.»

- «لا لا لا، كيه ريض؟! انته ذحين ضيف المسجد، لازم علينا نقوم بالواجب، شفك عجبتنا قبيلان يوم قت لي أنا ضيف الرحمان في المسجد ذا، شف الكلمة ذي دخلت قلبي، وتفطَّنت ألا يوم رحنا الحج وقُعنا ضيوف الرحمان، وكاكيه آل جدِّة ومكة والمدينة ما قصروا معنا أبدًا، هت يا ضيافات وكرم معاد بعده كرم أبدًا، عيال أصول. ما خلُّوا نحنا نحس بالغربة أبدًا، ذا يعزمك اليوم، والثاني يقول غدوه عندي، وهت يا موائد وخواطر زينة نفيسة، وذلا هواه أهل الحرم.»

- «تصدَّق يا عمِّي شفك بكلامك ذا شوَّقتنا للحج، أكيد لا ربي يسر أموري باحج إن شاء الله.»

- «ربي إن شاء الله يبلغك ويبلغ كل مسلم، آمين يا رب. وذحين سمع، شفنا باقوم باطلع الدار، باشوفهم إن بغوا شي والا شي. ودَّعتك الله يا ولدي، الوعد ألا بعد قليل، شف غداك باجيبه لا عندك، ذهن تروح هنا والا هنا، سمعت يا ولدي؟»

- «سمعت يا عمي.»

عاد العم حسن إلى داره، وبقي مبارك لوحده في المسجد، فهجمت عليه الأفكار بقوَّة، وحدَّثته نفسه: «يا حظَّك العيف يا مبارك! آه الحظ ذا؟ كذنا في سبولة من بعد وفاة الوالدة في حالة كشفا ما يعلم بها إلا الله، وعادنا حتى يوم جيت يحصل لي ذا كلُّه؟! ذحين آه لقِّيت تحت ربَّك يا مبارك؟ استغفر الله العظيم. يا رب فرِّجها علي يا رب، ذلا شفنا مسكين ما استحق لي يقع لي ذا لَه. لا حول ولا قوة إلا بالله. طيب وذحين والغنم هومن باينتبه لهن وأنا مرصون هنا كماهن بسبب السيول ذي؟ بايقع ألا يسلم بايحصِّلنا ماحد أنا بايعرف إن السيل حاينا؟ بايرجع بايتعنَّى بهن.»

ثم تذكر صديقه يسلم فغمغم وهو يبتسم: «أكيد يسلم ما بيقصر أبدًا، وكُذُه داري بالأقليد حق الدار وين إطرحه، بايمد يدُّه وتو بايحصِّله وبايفتح الباب وبايقوم بالواجب. عساه بس يفطن وين أنا إطرح لقليد حق المجر. ماشي ألا الغنم بس لي أنا حامل همِّهن، ما الباقي ألا يا سهلاه، الماعون محفوظ في المستودع، وأنا ما شاء الله حصلت لي خلق يضيِّفونَّا.»

نظر مبارك بإعجاب إلى دار المؤذن وهو يحدِّث نفسه: «يا خير رجال بو علي ذا ما شاء الله عليه، رجال نشمي. يا قهراه يا ريتنا كنت اعرفك من قبل يا بو علي، كانا باجيب حاجتي ألا من عندك، لكن خلاص، عاد الجايات أكثر من الرايحات، عسى العافية والعمر والسلامة. بعد اليوم أي وعاء حق دار والا حق مطبخ بايقع ألا من عندك يا بو علي بإذن الله.»

أحسَّ مبارك بالتعب ورغبة في النوم، فقال لنفسه: «كيه ذحين قلعك يا مبارك من التفكير ذا، وخُذ لك غمضة قبل ما يجيبون الغداء.» لكنَّه شعر بقشعريرة تسري في جسده؛ سببها الثياب المبللة التي كان لا يزال يلبسها.

استطرد مبارك وهو يقف ويلبس المئزر والمعطف الذين أعطاهما إياه العم حسن: «كيه لوّل بانبدّل الثياب الخضراء ذي، ولا منين بايجي لك النوم وانته ثيابك رتخة يا مبارك.»

بعد تبديل الثياب استجاب مبارك لرغبته الفطرية في النوم، بعد العناء والمشقة التي لاقاها في الساعات الماضية، وضع يمناه تحت رأسه، وأخذته سِنة من النوم.

***

استيقظ مبارك بعدها على صوت العم حسن مؤذن المسجد: «مبارك، مبارك قم يا ولدي قم تغد، شف عمك حسن جابه لا عندك، وأنا شفنا رحت وبارجع بعد قليل. كنَّك لا تخلِّيه يبرد.»

جلس مبارك مبهوتًا، وبدأ يفرك عينيه من آثار النوم، فوجد أمامه صحنًا موضوعًا على سفرة ووعاء صغير فيه بسباس. اعتدل مبارك في جلسته ونظر أمامه فوجد العم قد غادره، فذهب يغسل وجهه؛ لطرد النوم عن عينيه المتعبتين.

كان الغداء بسيطًا مكونًا من الأرز واللخم والبسباس الأخضر في صحن صغير، تناوله مبارك في نهم شديد، فمنذ فترة لم يذق طعم الأرز، فقد ماتت من كانت تطبخه له، ولكن ستأتي صفية لاحقًا، وسيشبع من الأكل كيفما يريد، ما عليه إلا أن يتأنَّى ويصبر قليلاً، وهكذا هي الحياة؛ يوم لك ويوم عليك.

أحسَّ مبارك براحة تامَّة، فهو في ضيافة أناس كرماء، وبعد أن تناول طعامه أخذ صحنه ليغسله عندما ذهب ليغسل يديه في ماء الجابية، إذ ليس من اللائق أن يُعيده إليهم مُتَّسخًا. شرب من الماء الموجود في قربة المسجد، ثم مكث قليلاً قبل أن يعود العم حسن بفنجانين من الشاي الأحمر المُحضَّر بالبخاري، أحدهما له والآخر لمبارك.

قال المؤذّن وهو يهم بالجلوس: «ذحين شرب الفنجان حق الشاهي ذا يا مبارك، شفه يصم الراس، وله خَرْمَة عندنا، ما نقدر على فراقه أبدًا، وآه انتوا في الأرياف؟ تحبُّون الشاهي حق البخاري ولا لا؟»

- «والله ماهو جم لَه يا عم حسن، نحنا أصحاب زراعة، أحيانًا لا كذ نحنا قاعدين في الدار نهار الجمعة والا في الأعياد نرشن عالبخاري.»

- «ما نحنا شف نحنا البخاري عندنا بنص، وإن كان ما شربت الشاهي تحس راسك بايشترخ عليك! لمَّان تشربه يوهد.»

- «ذلا يومكم دهَّلتوا أعماركم عليه، خلاص وِلِفْتُوه.»

- «معاد قدرنا في أعمارنا يا ولدي، لُه خرمة قوية المهيون ذا!»

تناول مبارك رشفة من فنجانه فوجد أن له نكهة خاصة، مميّزة ومحبّبة، فأثنى عليه قائلاً: «ذلا شفه من صدق شاهي زين! ذحين آه تقُّون له باقولك؟»

- «والله مانا داري، ماذا ألا شفها شغلة الحريم، نحنا ألا نشرب وبس. آه يطرحن فيه يخلِّينه هوكذا زين مانا داري.»

- «والله صدق شفه صم كوري يا عم حسن!»

- «آه آه يصم الكور شفه، ذا شفه خمرنا يا مبارك!»

- «ما ذلا خمر حلال محلل، ماهو كما خمر النصارى الحرام لَه يا عمِّي.»

- «ماحد قال شي لَه، خمر حلال محلل اسمه شاهي بخاري!» قالهم العم حسن وهو يبتسم، ثم نهض من مكانه وهو يخاطب مبارك: «هيَّا ذحين شفنا بطلع المنارة بِذِّن العصر.»

- «وتقول المصلِّين بايقع بايجون لصلاة العصر؟ شف المطر ألا أوهدت، بايقع حد بايجي؟»

- «أول الإمام داره بعيد، ما أعتقد إنه بايجي، بس جيران المسجد معاد ألا إن حد جاء صلِّينا به، وإن ماحد جاء صلِّينا أنا ويَّاك.»

- «خلاص توَّك توَّك يا عم حسن، معاد بقطع بك. طلع إذّن توك.»

صعد العم حسن درجات المنارة، وبدأ صوته الجميل يصدح بأذان العصر. عاد بعدها وجلس يتحدث قليلاً مع مبارك حتى جاء وقت الصلاة. وقبل أن تُقام الصلاة بدقائق، وصل المسجد رجلان كان بيتيهما قريبين من المسجد.

رحّب العم حسن بهما قائلاً: «يا حيَّا بجيران المسجد، كيف حالك يا سلمان، وانته يا سعيد.»

ردَّ الرجلان التحية على المؤذن، وانضما إلى مبارك والإمام في صلاة العصر.

بعد السلام استغرب الرجلان وجود مبارك الذي لم يرياه في يوم من الأيام لا في المسجد ولا في المدينة، فسأله سعيد: «ذحين يا خوي انته حال جديد في الساحة ذي أهواه؟»

تدخّل المؤذن مقاطعًا سعيد لإبعاد الحرج عن مبارك: «لا لا ماهو حال جديد في الساحة لَه، ذلا ضيف عندي.»

وضَّح سلمان لسعيد: «ذلا شفه بايقع من قوم الحرمة حق بو علي من قرية سبولة.»

فسأل سعيد مبارك: «هاه انته من سبولة؟»

أجاب مبارك وهو مندهش أن امرأة الإمام من نفس قريته: «نعم أنا من سبولة، تعرفونها؟»

أجابه سلمان وهو يغادر المسجد: «لَه ما نحنا ما نعرفها لَه، ألا بو علي يعرفها.»

وبعد أن خرج الرجلان من المسجد سأل العم حسن مبارك: «كان سكتت يا ولدي، ما بايتحكَّكونك هم لَه، ألا أنا ما بغيتهم ياذونك بس؛ حتنَّا قت لهم إنك ضيفي من سبولة.»

- «سمع يا عم حسن، وأنا ما كذبت لَه يوم قت لهم إننا من سبولة. ألا صدق أنا من سبولة يا عمي.»

- «آه تقول يا مبارك؟ من صدق؟!»

- «آه من صدق يا عم حسن، كنك انته ما انته مصدِّقنا لَه؟»

- «على كذا بايقع تعرف آل البَقِل؟»

- «نعم، نعرفهم. صاحبي متزوِّج عندهم.»

- «صاحبك من؟ غير ماهو يسلم ود عمر صاحب الدكان حق سبولة؟»

- «نعم يا عم حسن، هو بنفسه. بس انته كاكيه تعرفهم وتعرف يسلم حتى؟ كاكيه قلِّي يا عمِّي؟»

- «الحرمة حقِّي يا مبارك أصلها بت آل البقل، ويسلم ذا عرَّس على بت خوها عبيد، حتى اعتزمنا في عرسهم، قبل بايقع سنتين الكلام ذا، وجينا وحضرنا كل العرس حقهم.»

- «ما شفتنا عندهم لَه يا عم حسن؟»

- «والله شفنا شبَّهت بك، بس مانا داري فيين شفتك.»

- «في العرس حق يسلم صاحبي، أنا السيِّر حقه!»

- «ذحين فطنت! صح صح، انته السيِّر حقه في الحراوة؟! أيوا أيوا كُذ قت وين شفت الرجال ذا؟ وين؟ وين؟»

قهقهه العم حسن فرِحًا قبل أن يُردف: «آه خلاص، ضاع ولحقناه! ثرك ألا انته السيِّر حق يسلم؟ شفت الدنيا ضيِّقة كاكيه هه! يمكن تلتقي بإنسان ما انت داري من، تطلع ألا تعرفه؛ من قريب والا من بعيد، سبحان الله!»

- «وعادنا باقولَّك حاجة يا عم حسن.»

- «هت آه عاده؟»

- «البنيّة لي تكلّمت فيها وباتزوّجها قريب، شفها أخت يسلم صاحبي، وذحين أنا هنا منشان نشل ماعونها.»

أجاب العم حسن بفرح: «ما شاء الله، ذلا شف نحنا على كذا طلعنا أهل!»

- «هوكذا، تقدر تقول من بعيد قليل.»

- «من بعيد من قريب، المهم إن نحنا معارف.»

- «نعم، نعم. وشفنا بعزمك انته وكل العائلة لا عرست، تعالوا كلكم يا حيابكم، انته وبناتك وأزواجهم، كلكم تعالوا يا حيابكم.»

- «ولا يهمّك، بانجي يا مبارك، بانجي ما نصخى بك أبدًا. يالله يا ولدي. شفنا قمت باطلع الدار باتفاقده، غير ماشي غيار من المطر في الدار. وانته توّك تم في المسجد. خذ راحتك، المكان مكانك. ودّعتك الله، ومتشاوفين عند صلاة المغرب.»

لما حان وقت أذان المغرب أذَّن أبو علي وحضر خمسة من الرجال؛ لأداء الصلاة، فصلوا المغرب في جماعة، ثم خرج الرجال إلى مصطبة المسجد يتجاذبون فيها أطراف الحديث كعادتهم حتى يحين وقت صلاة العشاء، بينما أخذ المؤذن مصحفه يقرأ فيه، وبقي مبارك سابحًا في أفكاره الجمَّة، وكيفية النجاة من هذا الموقف السيء. كان طوال الوقت يفكر في يسلم وأغنامه، وهل قام يسلم باللازم تجاهها يا ترى؟

حان وقت أذانُ العِشاء وأذَّن المُؤذِّن، وحينما جاء وقت الصلاة أقيمت ودخل الرجال الموجودون في الخارج، وأدُّوا صلاتهم وتفرقوا إلى ديارهم بعدها.

وعندما همَّ العم حسن بالذهاب إلى بيته، إذْ بابنه علي قادمًا، يحمل صحفة صغيرة فيها خبزٌ مصبوغ، فناوله أباه وأخبره أنه عشاء الضيف. ناوله العم حسن مبارك بدوره قائلاً: «يا مبارك شُف عشاك ألا جاء، عادنا ألا يا خننا باروح وباجيبه، خلاص جابوه آل الدار.»

بعد أن اطمأن العم حسن على مبارك، تمنّى له ليلة سعيدة، وأخبره أن بإمكانه أن يستخدم الغرفة الداخلية في المسجد، التي تُستخدم كمخزن لحفظ أغراض المسجد

الغير مستخدمة إذا أحس ببرودة الجو، ففيها سيجدُ الدفء الكافي المطلوب، وأخبره بالمكان الذي سيجد فيه مفتاحها إذا احتاج إليه.

بعد أن تناول مبارك عشاءه غسل يديه ووعاء العشاء، ثم تمدد علّه ينعم بنوم هادئ، ولكن دون جدوى فقد كانت الأفكارُ والهموم المتراكمة تعصف برأسه من جهة، والبرد القارس الذي زاده المطر والرطوبة قساوة وشدة من جهة ثانية، فما كان منه إلا أن يبحث عن مفتاح إقليد المخزن الذي وصف العم حسن مكانه له، فوجده وقرر أن يبيت في مخزن المسجد؛ طلبًا للدفء والهدوء والراحة.

فتح مبارك باب المخزن، وبواسطة المصباح الصغير الذي أحضره الصبي مع العشاء استطاع أن يُهيئ لنفسه مكانًا مناسبًا ينام فيه. بعدها أطفأ المصباح، وألقى بجسده المُتعب في المكان، واستعد للنوم. كان الجو في المخزن دافئًا بالفعل قياسًا لما هو في الخارج، فاستسلم مبارك لنوم عميق.

***

استيقظ مبارك فزعًا من نومهِ على صوت باب المسجد يُغلق بقوة، وسمع بعدها جلبة قوية تجول في المسجد. انتصب جالسًا يسترقُ السمع، فإذا بصوت أحدهم يقول: «أيه سمعوا يا جماعة، توّكم لوّل لا الجوابي، غسّلوا رجيلكم من وسخ المطر، والا شوكم باتوسّخون المسجد بطين الشوارع. بعدين بانتحاسب.»

ساد صمتٌ نسبيٌّ، ولم يعد مبارك بعدها يسمع إلا أصواتًا هامسة لهذه الجماعة التي هجمت على المكان فجأة وفي وقت واحد وملأتُه غموضًا.

تساءل مبارك في نفسه: «ذحّين هومن همذيلا؟! مُصلّيين؟ كذه فجر أهواه وذيلا مصليين جاوا منشان الصلاة؟»

ثم أكمل وهو يفركُ عينيه: «لا لا، ماهو معقول ذيلا مصلّيين جاوا منشان صلاة الفجر أبدًا، كَانُه عم حسن جاء يثوِّرنا لوَّل.»

أنصت مبارك ليسمع همسًا خافتًا يصدر عن الجماعة، فأكمل محدثًا نفسه: «لانهم مصلِّيين ليه يتحاكون بشيش؟ أشتقول ألا سرق!»

تغيَّر وجه مبارك وهو يفكّر: «غير... غير ماهم من صدق سرق؟!»

ارتعب مبارك لمجرد تفكيره بأنهم ربما كانوا من اللصوص. هرع إلى الملاءة التي نام فوقها، وتحسسَ الأرض إلى أن وجد غترته التي استخدمها كوسادة للنوم، وهدأ روعهُ قليلاً عندما عثر على قروشه التي خبأها قبل أن ينام موجودة في مكانها، فتنهَّد وحمد الله على ذلك.

عاود القلق مبارك مؤغرًا صدره من جديد من هؤلاء الوافدين. كان الظلام دامسًا، تحسس مبارك موضع علبة الكبريت التي وجدها في المخزن قبل نومه، فوجدها حيث وضعها، وأشعل منها عود ثقاب، ثم قام بخطى حذرة جهة باب المخزن؛ علَّه يجد فيه خرمًا يستطلع منه حقيقة الجلبة التي يسمعها. تطلب الأمر إشعال عودا ثقابٍ آخرين قبل أن يجد مبارك خرمًا صغيرًا في الباب.

حدَّق مبارك في غرفة المسجد، ولدهشته لم يجد شيئًا سوى ظلام حالك يلفُّ المكان! ضيَّق عينيه ليحصل على رؤية أفضل، لكن دون جدوى. كان السكون يخيم على مُصلَّى المسجد، ولم يسمع إلا الأصوات الهامسة تأتي من جهة الجوابي.

عاد السؤال يلحُّ في رأس مبارك، يا ترى من هؤلاء؟ أهم من الإنس أم من الجان؟! ارتعدت فرائصه من ذكر الجان؛ لأنهم حينها سيجدون مكانه، ويكشفونه لا محالة، ولا يدري هو ماذا سيفعلون به، وماذا سيكون مصيره معهم؟

ماذا يفعل إذن؟ هل يفتح باب المخزن ويهرب إلى الخارج؟ فكر بالهروب فعلاً، وهمَّ به لولا أنَّه قد فات الأوان على ذلك!

الفصل السابع: أرق

في هذه الأثناء كان الهدوء المطبق يخيم على قرية سبولة الجميلة. كان الوقت منتصف الليل تمامًا، وكان هطولُ الأمطار بغزارة في ذلك اليوم قد أنعش الجو ليلاً بنسمات عليلة باردة تحمل رائحة المطر، وجعلت الجو مثاليًا لنوم هانئ ومريح. نومٌ نعمت به كل عائلات القرية، إلا عائلة العم عبدالله!

كانت ليلة فظيعة بالنسبة لسعيد، فقد كان نومه متقطعًا طوال المساء؛ بسبب الإزعاج المتواصل الصادر من بيت جاره مبارك. لم تتوقف أغنام جاره عن الثغاء طوال تلك الأمسية، ولكنها منذ ما يُقارب الساعة من الآن، قد زادت على ثغائها المرتفع إزعاجًا آخر، فقد صارت تتصرف بجنون، وتركل بحوافرها باب زريبتها محدثة جلبة تصل إليهم بوضوح تام، فاستحال على العائلة النوم وسط كل هذا الصخب.

خاطب العم عبدالله ابنه بعد نفاد صبره: «كيه قم قدا مبارك يا سعيد، خله يشوف حل لغنمه. سَكَتْنَا على بُعَّاقهن، ذحين رجعن ينطّبن ويرمِّحن! قم قم يا ولدي، قل لمبارك تصرَّف، بغينا بانَّام.»

امتثل سعيد لأمر أبيه، وخرج ليلاً يطرقُ باب مبارك. طرق بلطف في بادئ الأمر؛ فمبارك جاره وصديقه، ويستطيع التفاهم معه حول اسكات الأغنام المجنونة، وفهم مشكلتها. لكن طرقات سعيد لم تجدِ نفعًا، ولم يرد عليه أحد، مما اضطره إلى الطرق بشدة وهو يحدث نفسه باستغراب: «ذحين كنُّه مبارك ما يرد؟ ذحين ما يسمع القراقع لَه؟ لو كان حتى في سابع نومة بيثور! آه جرى لُه؟ غير ما قُع به شي؟»

كانت أم سعيد قد أطلت من نافذتها تُراقب الموقف باندهاش أيضًا، وقالت لسعيد بصوت خافتٍ رزين: «خلاص يا ولدي، خاف ما حد هو لَه.»

- «ماحد هو هواه. فيين بيروح يمَّه؟»

ثمَّ أضاف سعيد بقلق: «أنا فزعان لا يكون حصل له شيء لا قدَّر الله.»

- «لا، لا، لا. ماشي شر إن شاء الله. انته ألا طلع ونُم، والصباح رباح.»

تدخل العم عبدالله مخاطبًا زوجته: «منين بايجي النوم يا سعديّة؟! ما تسمعين بقعا باتنقعر كاكيه؟!»

أكد سعيد كلام والده: «صدق كلام أبوي يمَّه. كاكيه بايجي النُّوم والغنم حق مبارك مقَّات الضارب ذا؟! آه نقِّي بس؟»

أطل العم عبدالله من نافذة منزله وخاطب ابنه بحزم: «سمع يا سعيد، كيه روِّح عند يسلم صاحبه، بايقع هو داري بشي والا شي.»

استحسن سعيد فكرة والده، واتجه صوب بيت العم عمر والد يسلم. طرق بابهم على استحياء طرقات خفيفة، لم يسمعها أحد؛ فقد كان الجميع يغطون في نوم عميق. أعاد الطرق بهدوء مرارًا، ولكن دون جدوى. فاضطر إلى الطرق بشدَّة.

انتبه العم عمر من نومه، وأطل برأسه من النافذة يستطلع الأمر، وخاطب الطارق بحدَّة وتذمُّر: «ذحين هومن ذا يقرقع؟ هومن؟»

- «أنا سعيد بن عبدالله، جار مبارك يا عمي. كيه ثوِّر يسلم، بغيت باكلِّمه.»

رد العم عمر بتعجب: «بتكلِّمه في نصاص الليالي يا سعيد؟! عيب عليك!»

- «سامحنا يا عم عمر، ذلا أمر مهم، والا ما بدك عليكم كما ذا الوقت أبدًا.»

- «طيب، والأمر المهم هوذا معاد باياقف لمّان تطلع الشمس لَه؟»

- «لا يا عم عمر، ثوِّر يسلم.»

- «هَه هَه! شفك ألا فزَّعتنا، طيب طيب باثوِّر يسلم وباخليه يندر قداك.»

***

توجَّه بعدها العم عمر إلى غرفة ابنه وطرق بابها، فقام يسلم من نومه مذعورًا، وسأل أباه: «كنَّك يابه خير؟ غير ماحد به شي؟»

- «والله الظاهر إنه ألا حد به شي، كيه اندر وشف سعيد جار مبارك تحت الدار، قال بغاك في أمر مهم.»

فرك يسلم عينيه وهو يرد: «وذحين الأمر المهم هو؟!»

- «بغيتنا نقول هواه؟ إندر شفه آه بغى اللوحة ذا!»

خرج يسلم متثاقلاً إلى الشارع، حيث ينتظره سعيد، كان النوم لا يزال يُثقل جفنيه الناعسين، وجسده يتمايل يمنة ويسرة في حالة من عدم الاتزان.

أخيرًا وصل إلى الشارع، حيث ينتظره سعيد فسأله متضجِّرًا: «سعيد كنّك آه فيه؟ آه جابك في ذا الوقت يا خوي؟»

أجاب سعيد بنبرة خافته جادة: «مبارك يا يسلم، مبارك.»

ارتاع يسلم من كلام سعيد، وظن أنَّ مكروهًا قد أصاب صديقه العزيز. فسأل سعيد وهو يصيح: «وراه مبارك؟ آه حصل له؟ هري تكلَّم! آه حصل له؟»

- «أوهد يا خوي، ما نحنا دارين آه حصل لُه، بس من قبيلان ونحنا ندكدك عليه في داره وما يرد أبدًا.»

سأل يسلم متعجِّبًا: «وليه تدكدكون عليه؟!»

- «الغنم حقه ملقيات ضارب، يصولقن وينطّبن مخلات داره باينقعر! معاد جاء نحنا نوم.»

- «طيب كل الغنم حق الناس ساعات يقين هوكذا، تقوم تثوِّر نحنا نِصفات الليلول منشان غنم مبارك؟! شُف ذا ما هو ريض يا خوي!»

- «ما هو كذا يا يسلم.»

- «ألا كاكيه؟! كيه قل لي كاكيه؟»

- «دكدكت على مبارك بكل قوتي ما يتكلم، بايقع قُع بُه شي في الدار ولا حد داري بُه.»

استشعر يسلم خطورة الموقف، وحاول أن يكتم صراخه قائلاً: «ابن أبوي! يالله يالله قدّامي يا سعيد، سرينا. قُع به شي هواه؟!» أغلق يسلم باب بيتهم وهرع مع سعيد نحو بيت مبارك.

حثَّ يسلم سعيد قائلاً: «سرع يا سعيد دحق!» ثم تمتم هامسًا: «لا حول ولا قوة إلا بالله. ذحين آه بك يا مبارك؟ آه بك بس؟»

وصل الاثنان الى بيت مبارك، وطرقاه ثانية وثالثة فلم يجبهم أحد. تأكد يسلم من جدية الموقف، والتفت نحو سعيد يسأله: «ذحين من متاه وانتوا تدكدكون عليه؟»

- «وينك يا خوي، بايقع من قبل ساعة.»

وهنا ضرب يسلم جبهته بباطن كفّه كمن تذكّر شيئًا، وقال: «أوهوي! شفنا نسيييت مرة وحدة. وذحّيييين فطنت.»

- «آه لي نسيته يا يسلم وذحين فطنته؟»

- «ألا شفه بايقع ماحد هو في الدار لَه، أكيد حَايُه السيل يوم راح السوق حق المدينة، وبعدين مطرت وهو فيها. وأنا شفنا معاد قُع لي ادري العصر قداه، كان المفروض جي قداه العصر، بس معاد جيت ولعاد دريت به. أكيد حَايُه السّيل، وما ذحين بايتمي في المدينة لمَّان ينشف الماء من المساييل.»

ثم استدرك يسلم بعد أن هدأ قليلاً: «ذحين توَّك انته يا سعيد، دخل دارك ونم وطيّب نومك. وأنا بدخل دار مبارك وباشوف الموضوع آه هو. توَّك يا خوي، جزاك الله خير.»

امتثل سعيد لكلام يسلم، ودخل بيته وأغلق بابه، بينما تحسس يسلم موضع الأقليد الذي كان مبارك معتادًا على وضعه فيه، وعثر عليه بالفعل، وفتح المنزل.

كانت الأغنام لا تزال تصيح بشدة، وترفس بأرجلها ورؤوسها باب الزريبة بقوة، فكان على يسلم أن يحل هذه المشكلة أولاً. تحسس الرف الخاص بالباقُزْقُز في مدخل الدار، فوجد المصباح وعنده علبة الكبريت.

أشعل المصباح وذهب يتفقد الغنم الهائجة. وجدها مُنهكة من الجوع والعطش، وقد ثارت ثائرتها؛ لتدل الناس على حاجتها في إشباع جوعها وإرواء ضمئها.

أعاد يسلم غلق باب الزريبة، وتوجه بمصباحه إلى المطبخ حيث سكب بعض الماء في وعاء كبير، وذهب به إليها، وصبَّه في الأوعية المخصصة لذلك.

هرولت الأغنام العطشى تشرب بلهفة شديدة، وبعد أن ارتوى ضمئها ورآها يسلم قد أقلعت عن ورود الماء، توجَّه بمصباحه إلى مستودع (الشِّيَر)، وأخذ مجموعة من الحُزَم وعاد إليها، ونثرها في أماكن متعددة أيضًا؛ حتى لا تتدافع فيما بينها، فيما إذا وضعها في مكان واحد.

وبالفعل، هجمت الأغنام على الشِّيَر تلتهمه وكأنَّ بها جوع شهر لا جوع يوم! بينما جلس يسلم يراقبها بهدوء على ضوء القزقوز الذي أحضره إلى زريبتها، حتى انتهت من وليمتها.

هدأت الأغنام بعد أن شربت وأكلت، وخرج يسلم ينادي على صديقه من أسفل درج المنزل: «مبارك، مبارك. حد انته طالع؟»

كرر يسلم ندائه ثلاثًا، لكن أحدًا لم يُجبه، فصعد إلى الأعلى وهو شبه متأكد أن مبارك ليس هناك. دخل غرف المنزل غرفة غرفة، وبحث في السطح، وفي كل مكان في المنزل، لم يكن مبارك هناك.

حدَّث يسلم نفسه: «آه ألا كذا! رحت يا مبارك لا المدينة تبيع الذهب والفضة، وجات المطر والسيول وحبستك هناك!»

كان أهل القرى متعودون أصلاً على مثل هذه الظروف، ففي حال هطول أمطار غزيرة تنقطع القرى عن المدن لأيام، وربما لأسابيع؛ إذا امتلأت السواقي ومجاري السيول بالماء.

عندما غادر يسلم منزل مبارك سمعه الجيران يُعالج مفتاح الباب لإغلاقه، فأطلَّ سعيد برأسه من إحدى نوافذ المنزل وسأله: «هاه يا يسلم؟ غير ماشي به مبارك؟»

- «لا لا، كما ما توقعت، ماحد هو في الدار أبدًا، حَايُه السيل في المدينة.»

فاستدرك العم عبد الله أبو سعيد هذه المرة: «يالله الحمد لله على كل حال. العفو منك يا ولدي يا يسلم، ثوَّرناك نصفات الليول. الغنم ما خلينا نحنا ننام من البُعَّاق لي مِقَّاتُه والدَّربية.»

رد يسلم: «ألا جويعات وضمانات يا عم عبدالله، أنا مانا داري إنه معاد رجع، مقايسه ألا راح ورجع قبل الغيث. أصلاً انشغلت في دكان الوالد العصر، ولعاد قع لي اتخبر على مبارك.»

- «حصل خير يا خوي» رد سعيد، ثم أردف قبل أن ينسحب إلى الداخل: «مبيات عافية.»

- «علينا وعليكم.» أجاب يسلم وهو يحثُّ الخُطى عائدًا باتجاه منزله؛ ليكمل نومه، وليُطمئن أباه.

أحس يسلم بهدوء الليل ونسماته العليلة المنعشة، وقال يحدث نفسه: «يا سبحان الله! قبل قليل عبرت الشارع ذا وأنا فزعان على مبارك، ورجيلي تتنافض، ولا حسيت بالجو الزين ذا أبدًا. بس ذحين بعد ما هديت نفسي نحس به ما شاء الله إيش على برود وعلى هدوء زين، معاد بعده! والا ريحة الأرض والمطر، أووه ما شاء الله! سبحان مغير الأحوال.»

ثم تذكر يسلم مبارك المسكين، وقال في نفسه: «يوه يا صاحبي! شفه ألا على ما يقولون من صدق، تجي في كور لقرح! ما حصَّلت ألا انته تقِّيها فيك السماء اليوم!

الله يكون في عونك. الله أعلم وين أنت ذحين، بردان ولا متغطي؟ جويع ولا شبعان؟ وآه من مكان عمدت فيه وانته ما تعرف حد في المدينة؟ بس الله ما يسيب عبده أبدًا، إن شاء الله ربك يسر أمورك وساق لك عيال الحلال يا رب.»

في هذه الأثناء كان يسلم قد وصل إلى باب حوشهم، فتحه ثم دلف إلى داخل المنزل.

صعد يسلم درج منزله، وقبل أن يدخل غرفته ليواصل نومه سأله أبوه، الذي كان لا يزال مستيقظًا من القلق، فقد سمع ما قاله سعيد لابنه عندما خرج إليه: «أيوا يا يسلم؟ خبِّر، آه حصل لصاحبك؟»

رد عليه يسلم متثائبًا؛ فقد هجم عليه النوم من جديد: «ما حصل له شي ياا...ابه...» قال يسلم ذلك وهو يتثاءب واضعًا يده على فمه «...ألا حَايُه السيل في المدينة، وماحد هو في الدار أبدًا.»

- «الحمد لله، حق ربك كله زين. الله يكون في عونه مسكين. يالله دخل يا ولدي، كمّل نومك. زعلوا بك الناس ذيلا.»

- «لا ما زعلوا بي لَه، ذلا حتى هُم كانوا فزعانين لا يكون حصل له شي لا قدَّر الله.»

- «خلاص خلاص، جزاهم الله خير. يالله مبيات عافية.»

بعدها دخل يسلم غرفته وأغلق بابها وعاد إلى النوم من جديد.

الفصل الثامن: ورطة

تسمّرت عينا مبارك في شق الباب يُراقب الموقف.

فُتح باب المسجد فجأة، وإذا بأربعة من الشَّباب بأيديهم الشُّموع يدخلون قاعة المسجد. جلسوا ينتظرون قُدوم أصحابهم، الذين كانوا لا يزالون يغتسلون في الجوابي.

دار الحوار الهامس بين الجالسين، حيث ابتدر أحدهم الحديث وهو يهمسُ قائلاً: «إيه يا ناس، وراه برد زاد اليومين ذي؟»

فرد عليه آخر: «ألا حق المطر يا القربوع زيَّدته، وبو مطرقة ما حصَّل ألا اليوم الزفت ذا يلاوف نحنا فيه. كيه قم يا المكعرر قفِّل الباب.»

قام أحدهم وكان قصير القامة وممتلئ الجسم قليلاً إلى باب المسجد الداخلي ليغلقه، وقال وهو متجهٌ إلى الباب يردُّ على صاحبه: «ليه وراه يعلم الغيب هو؟! وش عرَّفه يا المغفَّل إنُّه بعد ستِّة إشهر وفي اليوم ذا باتمطر وباتعتصد بقعا كذا؟» وتابع سيره إلى الباب وأغلقه بقوة جعلت مبارك يجفل في مكانه!

اغتاظ آخر وشتمه: «لبوك راعة يا النَّايِر! باتقلد بشويش، ليه رَصَعِت الباب بقوّة كذا؟! بغيت باتثوِّر الخلق أهواه؟»

دافع البدين عن نفسه: «كان قمت إنته تقفِّل يا هادي حنك! فالح ألا في اللِّحي بس!» ثم أكمل وهو يعاود جلوسه: «وآه من ناس باتثور في نص الليل على ملى قربعة باب؟!»

- «كيه آه من ناس باتثور؟ أول المؤذِّن حق المسجد ذا شف داره هَه في حَلْق المسجد، لا سمع أصواتنا بايندر لبونا بالصميل!»

أسكتهم ثالث بحزم: «وبعدين! خلوا حقكم العلاق، يكفي! ذحين متاه بايندرون القبعان ذيلا من الجُوابي؟»

فرد الرابع: «أوّل بو مطرقة بغى لُه ساعة في الجابية، لا دخلها عد سبعة شيابة على ما يندر!»

- قهقه المكعرر قائلاً: «حتى سعيد سفرة هوكذا، يبطي في الجوابي.»

- «لا لا ما بايقع كما بو مطرقه أبدًا، ألا موسوس جم!»

كان عدد الموجودين أربعة فقط، بينما البقية لا يزالون يغتسلون في الجوابي. وكان الجالسين حينها قد أطفأوا جميع الشموع التي بأيديهم، فيما عدا واحدة.

لمح أحدهم صحنًا وراء المدعو هادي حنك، فتساءل: «آه لي جاب الصحن ذا يا حنك؟»

خاف مبارك حينها، وظن أن شكوكهم ربما قادتهم إلى فتح المخزن، الذي يختبئ فيه.

أكمل السائلُ كلامه وهو يشير إلى الصحن: «كيه هته، ناولنا إيَّاه يا حنك.»

ناوله إياه هادي حنك، فقام بثبيت الشمعة التي كانت في يده فيه، وكرر السؤال مرة أخرى: «آه لي جابه المسجد؟»

برر أحدهم وجوده قائلا: «وانته ليه فزّاع كذا يا بو مزحاة، ألا بايقع بو علي شرد من عياله، وجاب عشاه لا المسجد وقعد يتعشى فيه. بايقع عياله لقّوا له ضارب في الدار.»

ردَّ عليه حنك: «وحصَّل ألا المسجد يتعشَّى فيه؟! بغاه يمتلي جرذان أهواه؟»

في أثناء كلام هؤلاء الأربعة، كان مبارك يجهل سبب اجتماعهم في المسجد. كلُّ ما هو متأكد منه هو أنهم بصدد فعل شيء مُخزٍ، يستحون أن يطلَّع عليه الناس؛ ولهذا

هم يتهامسون في كلامهم. كما أنَّ مبارك تعرّف والتقط بعض أسمائهم أو ألقابهم، لا يدري أهي أسماء أم ألقاب كانوا يتنادون بها، مثل: المكعرر، أبو مطرقة، سعيد سفرة.

وهاهو أحد الذين كانوا لا يزالون يغتسلون في الجوابي قد انضم إليهم، فناداه أبو مزحاة: «علي حذية، تعال تعال قعد هنا عندي.»

اتّجه علي حذية إلى المكان الذي أشار عليه صديقه أبو مزحاة وجلس فيه، وتساءل: «ليه قلدتوا الباب يا بو مزحاة؟»

فرد عليه المكعرر: «برد برد ياخي. ما بك برد له؟»

قال علي حذية وهو يجلس: «قليل ما هو جم.»

رد عليه القربوع: «ليه تعشيت عصيد أهواه؟! ما نحنا شف نحنا ألا نتنافض! قُعد قعد خل الخراط حقك. وذا حين متاه باينذرون العِلَل ذيلا من....»

لم يكمل القربوع حديثه حتى خرج اثنان منهم، وانضموا إلى الجمع المُتحلِّق حول الشمعة المتألقة.

تساءل أحد القادِمين: «ذذذحين عععاد حد ففي الججوابي أأأأهو...اه؟»

- «عاد الصمصوم يا المتعتع. قعد قعد وانته ساكت أحسن لك.»

لم يعر المتعتع سباب القربوع أي اهتمام، وتساءل: «ببوو....ممممط....رقة هاه؟»

- «ألا هومن عاده؟ بو مطرقة آه.»

وهنا فُتح باب المسجد، وقدم شخص طويل القامة، يرتدي ملابس فاخرة نوعًا ما. كان يهزُّ شعر رأسه بيديه، فتناثر بعضُ الماء على الحاضرين، ووصلت قطراتٌ منه إلى الشمعة فأطفأتها، وغمر الظلام غرفة المسجد.

- «الله يلعن شياطينك! طفِّيت الشمعة يا بو مطرقة. كيه يا بو مزحاة هت الشَّخِط، خل نحنا نرشنها.» قالها علي حذية لأبو مطرقة غاضبًا.

مدَّ له أبو مزحاة بعلبة الكبريت التي كانت بحوزته، لكنَّ علي حذية لم يرَ يده الممدودة؛ بسبب الظلام الدَّامس. فسبَّهُ هو الاخر: «الله يقلعك يا بو مزحاة! نقول لك هت الشَّخط ياخي.»

- «وذحّين ما تشوف يدِّي مادته لك لَه؟ انته اللي ما تشوف يا الأعور؟!»

- «طيب بترشن عود؛ منشان نشوفك يا الأهبل!»

فأشعل أبو مزحاة عود الثقاب، وقرب من الشمعة بنفسه وأشعلها، وهكذا عاد النور إلى غرفة المسجد من جديد.

وهنا تساءل أبو مزحاة: «ذحّين متاه باتقسِّمون العدِّي حقنا؟ يالله يا بو مطرقة، هت العدِّي، خل نحنا نضوي.»

- «ذحين ليه انته مستعجل يا بو مزحاة؟ عاده الا سَمِح.»

- «سمح آه! كذه ألا مساء شفه. يالله عاد الحسابات بغت وقت، يالله خارجوا نحنا، بنضوي.»

تدخل علي حذية مخاطبًا أبو مطرقة بنفاذ صبر: «هت جونية العدِّي يا بو مطرقة، وكثب القروش هنا، خلنا نحنا نتقاسمها.»

نهض أبو مطرقة الذي كان قد جلس للتو وخاطب نحيف الجسم قائلاً: «قم معي يا المتعتع بانجيب الجونية، شفنا طرحتها عند الباب حق المسجد.»

علّق هادي حنك ساخرًا: «وحصَّلت ألا المزومن ذا بغيته يشل معك؟!»

ردَّ المتعتع بحنقٍ زاد من تأتأته: «ليه... هوووممن طللعها لكككم ممممن المممصووو..غة يا قِل...قِل...قِلال الخخيير، غي...غيررر الكككور ذا! الكككور ذا!» قال ذلك وهو يضرب رأسه بإحدى يديه بشدَّة.

تدخّل القربوع قائلاً بصوت وقور مُصطنع: «أوه ذحين عيب عليكم، زعّلتوا بالمعلِّم حقّنا! خلاص خلاص يا معلِّم ما عليك منّهم ذيلا.»

وخاطب أبو مطرقة المتعتع مواسيًا: «قلعك من الحمير ذي، تعال معي خل نحنا نجيب الجونية ونسكن.»

عاد الاثنان بشوال متوسط الحجم، واتجها به إلى مكان جلوس الجماعة. سأل علي حذية: «ذحين كم هيذي يا بو مطرقة؟»

رد عليه أبو مطرقة حانقًا بعد أن وضع الكيس الثقيل بجانب الشمعة في وسط الحلقة بمساعدة المتعتع: «كم هيذي؟ كم هيذي؟! كُذكم داريين، ست مية قرش.»

- «يالله كثبها هنا وكل واحد يشل نصيبه.»

أشار أبو مطرقة إلى الرجل البدين مخاطبًا: «فِرِش راديك انته يا المكعرر، يومه أسود بتعترف القروش فيه، وبتشتاف سوا»

رمى المكعرر بغترته إليهم، فالتقطها سعيد سفرة وتقدَّم إلى وسط الحلقة، وبمساعدة أبو مطرقة سكب الاثنان كمية هائلة من القروش الفضية من الشوال لتقع على الغترة؛ تمهيدًا لعدِّها وقسمتها.

بدأ سعيد سفرة وأبو مطرقة بتقسيم القروش إلى ثمانية أقسام، على عدد الجماعة. وكان الاثنان يرصُّانها القرش فوق الآخر، حتى وصلوا إلى خمسين قرشًا في كل قسم، فأصبح لديهم أربع مئة قرش معدودة جاهزة، وبقيت ثلاث مئة على جانب لم تحسب بعد.

صاح هادي حنك: «زيدوا زيدوا، طرحوا عادكم من عشرة قروش في كل قسم.»

ردَّ عليه بو مطرقة: «لا توكله حار يا حنك، كل شيء بايتقسَّم، انته ألا صبر.»

وبالفعل، أضيف إلى كل كومة بها خمسين قرشًا عشرة قروش أخرى، فأصبحت في كل كومة ستون قرشًا، وبقيت قروشٌ كثيرة أيضًا. فأضاف بو مطرقة عشرة قروش أخرى في كل كومة لتصبح سبعون قرشًا.

كلُّ هذا كان يحدث تحت ناظري مبارك المختبئ، الذي دخل في حالة من الذهول والخوف؛ من كمية الأموال التي بحوزتهم، ومن وجوده في مثل هذا المكان الخطر. لكنه حتى الآن هو لا يدري عن مصدر هذا المال شيئًا.

تساءل مبارك بينه وبين نفسه: «ذحين هم ذيلا دخلوا شُرْكًا في تجارة وذحين ذي أرباحها يتقاسمونها أهواه؟»

سمع مبارك المتعتع يذكر مصوغة، ولكنه لا يدري ماذا يقصد بها، ثم استدرك: «وآه من تجارة ذي تدخِّل الأرباح ذي كلها؟! وليه يتقاسمون إلا في مسجد؟!»

فكّر مبارك قليلاً، ثم قال لنفسه: «ألا بايقع بغوا البركة تنطرح في العدي!»

بعد أن صار في كل كومة سبعون قرشًا، بقيت أربعون قرشًا، فقال أبو مطرقة: «ذحين خلاص، هوذا شوه قسم كل واحد فينا؛ سبعين قرش.»

اغتاظ الجميع، وأبدوا تذمُّرهم، وقال القربوع: «والأربعين اللي عادها معك ذي؟ حق من؟ حق حبابتك؟!»

- «حق أصحابها ما هي حق حبابتي يا ذا المغفل! أول عشرين قرش حق لي صبَّ الذهب، اشترى بها مواد غالية لي صبَّته، وألا قايستوا أعماركم باتبيعون الذهب هوكذا؟ بيعرفه صاحبه وبيدخِّلون نحنا السجن يا الطِّبز! كيه سكت بس.»

في هذه اللحظات فقط أدرك مبارك أن من أمامه يتقاسمون المال، إنما هم مجموعة من اللصوص، قاموا بسرقة ذهب وصبِّه في سبائك؛ حتى لا تُعرف ماهيته. ويُظَنُّ بأنه مجرّد معدن ذهب للبيع جيء به من أرضه.

- «ياعِنْكُور أبوكم على سرق!» قالها مبارك في نفسه وهو يراقب حركة اللصوص من خلف الثقب باهتمام شديد. انحنى قليلاً ليحصل على رؤية أفضل، فاصطدمت إحدى رجليه بفنجان قهوة صغير كان مُلقىً على أرضية المخزن.

تدحرج الفنجان قليلاً قبل أن يصطدم بالجدار، ليصدر صوتًا خافتًا انتبه له أحد اللصوص! فتساءل باندهاش: «ايه يا ناس، سمعتوا شي؟ شونا سمعت صوت!»

جمد الدم في عروق مبارك! لقد علموا بوجوده وبمكانه أيضًا، وماهي إلا لحظات ويقتحمون المكان، وربما قتلوه وأخذوا ما معه من مال هو الآخر.

ساد صمتٌ رهيب للحظات، كتم فيها مبارك أنفاسه وأغمض عينيه من الخوف، وبدأ العرق يتدفَّق من جبهته، وانزوى مرتعشًا وهو يلصق ظهره بجدار المخزن.

بعد لحظات من السكوت الحذِر أكد المتعتع كلام القربوع: «حتتى أنا سسمعت صصوت...مماهو الققرربببووع ووح...ده لَه.»

أجاب سعيد سفرة: «ما سمعنا ألا القروش تحنحن! خلُّوا اللحي الزايد حقكم!»

وأضاف علي حذية: «بايقع ألا جرذان! تسمعون كلام المصمَّخين ذيلا؟! الجرذان شفهن في البلاد ذي كما الرز! ساعات يقوِّمن نحنا حتّى من النوم.»

يبدو أن كلام علي حذية أقنعهم؛ لأن عقولهم وألبابهم كانت مشدودة بالمال، وأكَّد المكعرر كلام رفيقه: «ما الجرذان لعاد تتكلم عنها أبدًا، حتى نحنا دارنا ملان بها.»

وهنا تدخل سعيد سفرة منهيًا الجدل: «خلاص خلاص ما علينا. خلونا نكمل حساباتنا.»

وتساءل المكعرر: «ذحين الرَّكم ذي كُل رُكمة فيها سبعين؟! طيب عاد أربعين.»

فسَّر الأمر أبو مطرقة: «عشرين منَّها حق مواد صب الذهب.»

وتساءل المكعرر أيضًا: «والعشرين الباقية؟»

- «العشرين الباقية يا المكعرر؛ خمسة منها عطيناها الدلال لي باع لنا الذهب.»

- «طيب والخمستعشر؟»

- «والخمستعشر خمسة منها شَقَا لي صب الذهب.»

احتجَّ أبو مزحاة قائلاً: «ذحِّين كنَّك تغالط يا بو مطرقة؟ يا غير قُت عشرين حقه، كنَّك عادك باتعطيه خمسة؟»

- «قلنا لك عشرين يا اللي ما تفهم حق المواد لي ذوبت الذهب، طيّب وشقاه؟ هو ماشي لُه أهواه؟!»

تمتم أبو مزحاة في حنق وتذمُّر: «طيب خلاص بس، فهمنا. معناها عاد عشرة، ذحيين فيينها؟»

- «قُتُّوا لي عاد عشرة؟» قالها أبو مطرقة وهو يحكُّ رأسه، ثم أكمل: «والله العشرة ذي إن كانكم راضين، ألا إن كانكم راضين، شونا أنا بغيت منّها خمسة؛ يومنا نخبخب لكم، ندور لكم على لي بايذوب، ولي بايدل، ولي بايشتري. راضيين تكون شقاي خمسة زايدة عليكم ولا لا؟»

وافق الجميع على إعطائه خمسة قروش زائدة عن قسمته، وقال هادي حنك: «طيب عاد خمسة شفها، عاد خمسة قروش. وين باتروح هيذي؟»

فردَّ أبو مطرقة: «ذحِّين باقول لكم الخمسة ذي بتروح وين. أنا شونا بغيتكم تعطونها المسكين الحطيط ذا، هو لي دخل في الفتحة لي حفرناها، ولفلف لكم الذُّهبان حق المصوغة وناولكم إياه، وبعدين اندر، عرَّض نفسه للخطر مسكين. برضه إن كانكم راضين، زيدوا له خمسة قروش في قسمته.»

قالوا جميعًا: «خلاص رضينا.»

- «رضينا، يستاهل بو تعتوعة!» قالها المكعرر باستهزاء، وهو يضرب ظهر المتعتع بقوة هزت جسم الرجل النحيل، ملقية إياه إلى الأمام حتى كادت جبهته أن تمسَّ الأرض!

صاح الجميع في وجه المعكرر باستنكار، وعاتبه هادي حنك: «ذحين انته بحسَّك يا البُعُط والا بلا حس! ما تشوف إيدك عودة كما المسرفة لَه؟! هلل بغيت بتقتله علينا، بغيت نحنا نحشك حبابتك بجعبتك السمينة ذي في الحفرة اللي نحفرها مرَّة ثانية أهواه؟!»

جاء صوت سعيد سفرة مستنكرًا: «كنك آه يا حنك، السِّفر ما سيبهن! والا الكلام ما بايجي سوا شفه!»

نهض المتعتع عن الأرض، وابتعد عن المكعرر وهو يدمدم: «لببووك رررراعة على إييد! اشتتتقول كككربة!»

- «ماهم عطوك خمسة قروش زايدة علينا لَه؟ اشتر لك راس غنم وصرف على نفسك؛ منشان معاد تنوِّش لاحد قبع لك!» وجه المكعرر كلامه السابق إلى المتعتع كنصيحة له لمَّا رآه قد فقد توازنه وكاد وجهه أن يرتطم بالأرض بعدما ضربه مداعبًا.

غضب المتعتع على المكعرر من جديد، ورد عليه: «ذذذحيين اننته مممكاننك تتتاذذيينا، ششششردنا من ييددك....رررجعت ببلسسانك!»

وحينها علق أبو مطرقة يعاتب المكعرر ويُخاطب المتعتع: «ذلا حسودي ذا شفه، عوذ بالله! قلعك منه.»

- «وو...واللله إن ققققُع ببي شي...بباققول أللا إننته غبططنا ييا ذذا البُبُعط!»

رد هادي حنك وهو يضحك من انفعال المتعتع: «سمع هَه يا المتعتع، إن كان قع بك شي، تعال لبوه لا داره واندر نُبْزِة من حقه القَمْزُوز ذا هَه وتِدَخَّن بها، شفك تو باتتباخر!» انتظر قليلاً ثم أردف: «تعرف داره لَه يا المتعتع؟»

فرد المتعتع: «آه نعـ...ررفه دداره الدُّدبب ذذا!»

وهكذا قُضي الأمر، وحصل كل واحد من اللصوص في هذه الجلسة على مبلغ قدره سبعون قرشًا، إلا المتعتع وأبو مطرقة، حصل كل واحد منهما على خمسة وسبعين قرشًا، إضافة إلى تكاليف العملية؛ من دلالة، وأجرة تذويب الذهب، وقيمة مواد التذويب.

قنع كلٌّ بنصيبه، فناولهم إياها أبو مطرقة، وهو فيما يبدو زعيمهم الأساسي في هذه العملية. عد كلٌّ واحدٍ منهم نقوده، وغادروا المكان بعدها بسرعة، كلٌّ إلى حال سبيله.

***

تنفس مبارك الصعداء بعد عودة الهدوء إلى المسجد، وبلل حلقه بريقه؛ فقد جف من الرعب وهول المفاجأة. حاول النوم، ولكن دون جدوى.

تواردت الهواجس عليه من كل حدب وصوب؛ فحينًا يفكِّرُ في حاله البائسة، التي انتهت به سجينًا في مخزن مسجد يقصده اللصوص، وتارة يفكِّرُ في ماعونه الذي خسر عليه المال الكثير، ويقبع -حاليًا- في مستودع في سوق المدينة، ولا يدري أهو لا يزال في حال حسنة أم لا، وأحيانا يُفكِّر في أغنامه التي تركها دون عناية، اللهم إلا إذا صادف أن اكتشف يسلم غيابه، فلن يتركها وسيعتني بها بكل تأكيد. كان يفكر في قريته، في بيته، في مزرعة العم عوض التي لن تحتاجه هذه الأيام؛ لأن السماء كانت قد قامت بواجبها -ولا تزال- تجاه الزرع وسقيهِ.

سيل من الخواطر والأفكار تتوارد في ذهنه، وصور رجال العصابة لا تزال تحوم في مخيِّلته، كانت وجوه بعضهم كالحة، وشعورهم طويلة، وهيئاتهم غريبة تدلُّ على الجلافة والقسوة، وكأنهم أتوا من زمن آخر! بينما ثلاثة منهم بدت سحناتهم عادية نوعًا ما وهُم؛ المكعرر، وهادي حنك، وسعيد سفرة. أما أبو مطرقة فكانت آثار النعمة جليّة على محيَّاه.

مرَّ وقت طويل ومبارك هائم مع أفكاره، كان يشعر بمرور الزمن بطيئًا جدًا، وكان خائفًا يرتجف من الخوف، وبالرغم من دفء المخزن، إلا أن البرد كان لا يطاق وكأنه نائم في العراء!

عاد صوت الرعد يزمجر بشدَّة كأسد هائج غادر عرينه ليؤكد حضوره في المكان وسطوته عليه بصوته المرعب، والبرقُ يخطف الأبصار، والرياح العاتية يُسمع لهبوبها صفير مخيف موحش، وشدَّتها تضرب ألواح النوافذ والأبواب المفتوحة بلا رحمة. وحدها الأمطار كانت غائبة عن المشهد تمامًا وكأنما السماء كانت قد أفرغت حمولتها سلفًا، واكتفت بما سكبت من مياة في ساعات النهار الفائت.

لم يعلم مبارك كم مرَّ من الوقت، فقد انْقضَت ساعات ظل فيها ساهرًا يقلِّبُ رأسه يمنة ويسرة، يريد النوم فلا يجد له إلى عينيه سبيلا.

بينما هو في حالِه تلك، إذ بباب المسجد الخارجي يُفتح من جديد، ثم يرتطم بقوة هائلة كاد أن ينخلع لها قلب مبارك من الخوف والهلع!

- «أوهوي! ذحين رجعوا السَّرق ذيلا أهواه؟! ذحين رجعوا لي والا هواه؟ يا ريتنا شردت بعد ما نزلوا تو. ذحين شف يا مبارك، رجعوا لك! الزَّنْقَة حق السرقة كُذ تقاسموها، ذلا شكلهم لي سمعوا قربعتي جاوا مرة ثانية، وما ذحين أكيد جالوا لك يا مبارك! ذحين آه لقِّي بس؟»

كانت أعصاب مبارك مشدودة جدّاً، ولكنه تحامل على نفسه وقام إلى ثقب باب المستودع يستطلع الأمر.

كان الظلام لا يزال حالكاً. فُتح باب المسجد الداخلي فجأة ولاح شبح رجل واحد في الظلام: «أوهوي! ما ذا أكيد الرجال اللي سمع صوت رجلي يوم رمحت الفنجان وهم يتقاسمون سرقتهم. وما ذحيِّن جالك يا مبارك، بايقتلك ويتخلص منَّك!»

تسارعت أنفاس مبارك واتسعت عيناه وهما تلاحقان الطيف المشؤوم يتقدَّم بخطوات حذرة نحو باب المخزن.

عندما أصبح الرجلُ قريبًا اندفع فجأة نحو الباب واصطدم به بقوَّة هزَّت المكان وارتعدت لها فرائص مبارك ليسقط صريعًا من الخوف على أرضية المخزن!

الفصل التاسع: صدمة

- «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.»

وتكرر الدعاء. كلمات تسبيح قالها مؤذن المسجد بوقار جم ليأنس بها عن وحشة الظلام الذي وجد نفسه فيه، بعد أن أطفأت شدَّة الرياح فجأة مصباحه الذي أتى به من داره، واتجه ليشعل مصابيح المسجد؛ استعدادًا لأداء أذان الفجر الأول.

استغرب لعدم وجود مبارك في المسجد، ولكنه قال في نفسه لا بد وأنه قد شعر بالبرد الشديد، فلجأ إلى المخزن. كان صوت الرعد لا يزال يُسمع من حين إلى آخر في تلك الليلة، فلم يسمع المؤذن صوت ارتطام جسد مبارك عندما سقط صريعًا؛ بسبب قوة صوت الرعد حينها، فظنه نائمًا وقال في نفسه: «باخلِّيه عادنا قليل مسكين، وبعدين باثوِّره لكذ نزلت من المنارة.»

صعد العم حسن إلى المنارة، وأدَّى الأذان، ثم نزل واتجه إلى باب المخزن يطرقه وينادي على مبارك، واستغرب أنه لم يرد عليه.

طرق الباب ثانية وثالثة ولكن دون جدوى. فما كان منه إلا أن أحضر حديدة، وبدأ يُعالج الباب من الخارج حتى تمكّن من فتحه. دخل ليجد مبارك مرميًا بلا حراك في أرضية المخزن. حاول إيقاظه بلا فائدة.

في هذه الأثناء كان إمام المسجد قد حضر، ورأى مبارك وجسمه ممدد على أرضية المخزن. فقال للعم حسن باستغراب: «ذحِّين هومن هوذا يا عم حسن؟»

- «ذا غريب يا شيخ محمد من سبولة، حبسه السيل وجاء المسجد ينام فيه.»

- «وكنُّه معاد قام؟ أه به؟»

- «والله علمي علمك! من قبيلان وأنا نثوِّره ماشي فايدة. ذحِّين غير ماهو ميِّت بس؟»

قرب الإمام من مبارك، ووضع إذنه على صدره؛ ليسمع دقات قلبه، ثم قال للعم حسن: «لا لا، شفه ألا حي يا عم حسن. ألا الظاهر إنه مغيِّب. كية هت قليل ماء بارد من القربة.»

امتثل العم حسن لكلام الإمام، وأحضر قدحًا من الماء البارد، فأخذ إمام المسجد قطرات منه، وبدأ يرشُّها على وجه مبارك، فأفاق مبهوتًا بعينين متّسعتين، وصرخ في الرجلين حين رآهما: «من...من أنتوا؟ انـ..انته القربوع ألَهَ؟!» وأشار إلى الإمام!

ثم أشار إلى العم حسن: «وذا الممم..كعرر! فيين الباقين؟ لا تقتلونَّا لَه.» وغطَّى رقبته بكلتا يديه كمن يتّقي بهما أحدًا يُريد خنقه: «أنا ألا غريب، ما بفتن عليكم لَه.»

سأل الإمام وهو مندهش: «ذحين آه يقول ذا يا عم حسن؟! ذحّين عاقل هوذا ولا مغروم؟»

- «والله البارح لمَّا رحت من عنده بعد صلاة العشاء كان عاقل! لكن ذحّين، شفه ماهو طبيعي لَه. القربوع من؟! والمكعرر من؟! آه التخاريف ذي؟!»

- «خاف شي حصل له في المسجد، شي فزعه ولا شي؟»

- «والله مانا داري يا ولدي، ذحين نقي به هواه؟»

- «كيه سدحه، خله ينام لوَّل. لمَّان نصلي الفجر. بعدين بانشوف آه خبره. شفهم الناس ذحين بايجون، ولوَّل نحنا بانصلِّي وبعد ما يروحون الخلق، بعدين بنقعد له وبنشوف لنا حل معه. كيه قفِّل المخزن، ورحنا.»

امتثل العم حسن لكلام الإمام، فأعاد مبارك إلى وضعية النوم، بعد أن هيَّأ له مكانًا لائقًا، ثم أغلق عليه باب المخزن، وجلس الاثنان في المسجد انتظارًا لصلاة الفجر.

أذّن العم حسن الأذان الثاني، وبعد قليل توافد الناس إلى المسجد، وأقيمت الصلاة وصلى المصلون صلاة الفجر، ثم غادر الناس المسجد. فتح العم حسن باب المخزن، ودخل مع الإمام للاطمئنان على مبارك الذي ظل مستيقظًا، ولكنه لا زال في حالة من الذهول لا توصف.

كان مبارك قد سمع صلاة الفجر وقراءة الإمام، وعندما فُتِحَ باب المخزن رأى العم حسن والإمام وهما يجلسان إليه يحادثانه، ولكنه مازال مسلوب اللب والإرادة، فخاطبه الإمام: «كيه هلل يا خوي، هلل. ذحين انته صاحي له؟!»

نظر مبارك إليهما وكأنهما قادمان من عالم الأموات، وسألهما: «وين العصابة؟ راحوا ولا عادهم في المسجد؟!»

- «آه من عصابة يا ولدي يا مبارك، آه من عصابة؟! ذلا شفك في مسجد ما انته في مكان عيف لَه. ما انته قلت من قبل إنك ضيف الرحمان لَه؟ وضيف الرحمان ما يقعد ألا في بيت الرحمان، بيت الله.»

- «والعصابة اللي سرقوا الذهب؟ آه جابهم لا بيت الله؟»

- «وينهم العصابة ذيلا يا مبارك الله يهديك؟ ذحِّين حلمت حلم عيف أهواه؟»

تابع مبارك كلامه وهو يتلفّت: «وين بو مزحاة؟ وبو مطرقة؟» ثم حرّك رأسه جانبًا ليرى إن كان أحدهم يختبئ خلف الإمام أو العم حسن: «وهادي حنك، وعلي حذية، وسعيد مسرفة...»

أطرق مبارك قليلا وهو يتمتم بينه وبين نفسه: «مسرفة والا سفرة؟»

- «ذحين آه الأسامي الغبراء ذي يا مبارك؟ آه لي حصل لك؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.»

فأسكته الإمام: «أصه يا عم حسن، شف الإسمات لي ذكرها ذي، بعضها أسمات ناس من عندنا، ناس مجرمين. خلُّه خلُّه يتكلم.»

- «آه تقول يا شيخ محمد؟! ذحين صدق هوذا الكلام؟» قالها العم حسن مستغربًا.

رد عليه الإمام: «أيوا أيوا شفه ذكر سعيد سفرة، وعلي حذية وهادي حنك، وهاذيلا شفهم من النصابين حق البلاد! ليه ما تعرفهم لَه يا عم حسن؟»

- «لَه يا ولدي، مانا ما أعرفهم لَه. خاف ألا شباب من عيال ذا الوقت.»

- «بس آه اللي خلاه يذكرهم وهو ما يعرفهم ولا هو من هنا أصلاً؟ كيه خلنا أسأله عادنا.»

سأله الشيخ محفِّزًا إياه على الكلام: «سمع يا مبارك، منين تعرفهم الاسمات الغبراء ذي؟ منين تعرفهم إنته ألا إنسان طيِّب.»

- «كيه شفتهم هنا في المسجد ذا، سرقوا مصوغة وباعوا ذهبها وجاوا يتقاسمون العدِّي هنا في المسجد. كُل واحد حصَّل سبعين قرش!»

وهنا تدخَّل العم حسن مخاطبًا الإمام: «سمع يا شيخ محمد، شف الرجال ذا الظاهر إنه ألا معاده بحسُّه له، سبعين قرش هواه؟! على كذا قل خلاص، كل واحد منهم بيقِّي لُه مصوغة لحاله!»

تجاهل الإمام كلام العم حسن، وسأل مبارك: «كم منِّهم يا مبارك؟ عددهم كم؟»

لم يجب مبارك، بل بدأ يتلفت بحذر، وبدل أن يُجيب، سأل: «عاد حد هُم في المسجد هاه؟ شفهم رجعوا لي بعدين. عادهم هنا؟»

طمأنه الإمام: «لا لا، ماحد هُم لَه.»

فأردف مبارك: «كيه شوفوهم بايقع حد منِّهم في الجوابي. روّحوا شوفوهم» ثم اتسعت عيناه ثانية: «والا...والا انتوا منِّهم والا هواه؟!» وبدأ يلطمُ رأسه بكفّيه بشدَّة.

أمر الإمام العم حسن أن يذهب ليرى الجوابي، فامتثل العم حسن الأمر وذهب وهو يضربُ كفَّاً بكف على يديه.

أعاد الإمام على مبارك نفس السؤال: «يا خوي أنا الإمام، وذا عمّك حسن المؤذن. يا مبارك يا خوي نحنا ما نحنا منِّهم أبدًا. هلل ذحين، وقل لي بس كم منِّهم يا مبارك؟ كم عددهم؟»

- «ثمانية. كل واحد حصَّل سبعين قرش، ذلَّا رُكْمَة حق قروش طرحوها في الرَّادي حق المكعرر!»

عاد العم حسن، وأكَّد أنَّ الجوابي خالية، وتساءل: «ذحّين آه القصة؟»

رد الإمام: «الظاهر -والله أعلم- إن مبارك شاف جماعة من السَّرق دخلوا المسجد ذا يتقاسمون غنيمة سرقوها حق مصوغة. وحصَّل كل واحد منهم في نصيبه سبعين قرش. والثلاثة لي نعرفهم أنا وقت لك عليهم كانوا في الجماعة ذي. ألا المصوغة اللي استرقت ذي، فيين؟ وحق من؟»

ثم وجَّه سؤاله إلى العم حسن: «ليه شي مصوغة استرقت قبل أيام يا عم حسن وأنا مانا داري أهواه؟»

- «لَه، ماشي مصوغة استرقت ولا حاجة، ذلا يخرّف شفه يا شيخ محمد. الظاهر إنُّه مارود، كيه لمسه.»

فلمس الإمام جبينه، فوجده يكاد يشتعل من الحرارة: «أوهوي، حار حار يا عم حسن!»

أجاب العم حسن بشيء من الانتصار: «شفتِه لَه، ذلا خربطة وَرِد شفها!»

فكَّر الإمام قليلاً، وبعدها طلب من العم حسن أن يُبللَّ غترة مبارك؛ ليستخدمها ككمادة لخفض حرارته المرتفعة. ففعل، وبعد أن طواها الإمام ولفَّها جيِّدًا، وضعها على جبين مبارك وهو لا يزال ممددًا في أرضية المخزن. سادت بعدها فترةُ صمتٍ، حاول فيها الإمام تذكّر حوادث السرقات في الأيام الماضية في هذه البلاد.

فجأة صاح الإمام حينها: «أووووه! نعم نعم يا عم حسن، استرقت مصوغة قبل ثلاثة شهور، مصوغة مجوهرات المدينة؛ أكبر مصوغة في البلاد! ذلا شفهم هم ذيلا السرق حقها يا عم حسن، وجاوا يتقاسمون عديهم في المسجد ذا.»

- «أووووه يا عيال الكلب! عليكم من الله ما تستحقون. ما حصلتوا ألا مسجدنا ذا تنجِّسونه يا كلاب! ذحين ياخاه صدق هوذا الكلام يا شيخ محمد؟»

- «صدق آه، أكيد صدق، والمسكين ذا شافهم. وحصل له لي حصل. ألا ربَّك ما قتلوه!»

- «ما قتلوه يومه كان متخبِّي في المخزن يا شيخ محمد. وأنا لمَّا جيت بَذّن الأذان الأول، حصلته ألا قَالِد على نفسه داخل، بايقع ما شافوه له.»

- «أيوا...وهو شافهم. هوذا شفه التفسير.»

نام مبارك بعد حواره القصير مع الامام والعم حسن، وهو لا يزال في حالة غير واعية تمامًا؛ بسبب الحمى الشَّديدة التي أصابته وهدَّت قواه.

استأذن العم حسن ليذهب الى منزله، بينما ظل الامام جالسًا عند رأس مبارك؛ وكأنه يحرسه ويخاف عليه من أذيٍ مُحتمل. وبين فترة وأخرى كان الإمام يجدد الكمادة الحارة، فيغسلها بماء بارد ويُعيدها الى جبين مبارك، حتى خفَّت الحرارة كثيرًا، وبدأ مبارك يعود إلى وعيه وإدراكه تدريجيًّاً.

ما إن حان وقت صلاة الظهر، ألا وقد استطاع مبارك أن يصطف مع الجماعة ويُصلِّي الظهر، وقد تحسنت حالته كثيرًا بعد أن نام، وبعد أن خفَّت درجة حرارة جسده؛ بالكمادات المتوالية التي كان يضعها الامام على رأسه.

الفصل العاشر: نقاهة

ودَّع الإمام مبارك بعد صلاة الظهر بعد أن اطمأن عليه، وبعد الصلاة أصرَّ العم حسن أن ينزل مبارك ضيفًا عليه في بيته. تناول الاثنان الغداء معًا، وجلب علي الشاي و(الحَنْظَل) لهما بعد الغداء.

حاول العم حسن أن يدخل البهجة في قلب مبارك، وينسيه ما عاناه في الليلة الماضية، فجلس يحادثه عن رحلته إلى الحج مع زوجته قبل ستة أعوام.

مرَّت الساعات بسرعة، وسرعان ما حان وقت آذان العصر. خرج مبارك مع العم حسن إلى المسجد، وصلَّيا مع المصلِّين الذين عادت أعدادهم إلى ما كان عليه قبل المطر؛ فالطرقات مازالت في حالٍ مزرية من آثار المطر، ولكنَّ العبور فيها ممكنٌ بعد توقُّف المطر.

أراد العم حسن أن يأخذ مبارك في جولة في المدينة بعد الصلاة؛ ليشرح صدره قليلاً، فخاطبه قائلاً: «سمع يا مبارك، شفنا ذحين بغيت لي درية قليل في السوق. وانته إن كانك باتجي معي، يالله سرحنا، بانشوف الأوضاع كاكيه هي. آه قلت؟»

- «نعم باجي معك، بغيت بتعرَّف على البلاد ذي، وأهم شي بغيت بعرف دكانك يا عم حسن؛ منشان لا كذنا بغيت شي ماعون ولا شي تو جي لعندك.»

- «هيا قمنا يا ولدي، خل نحنا نوخذ لنا لفَّة في البلاد، ونتنسم قليل.»

تبعه مبارك وخرجا من المسجد. جال الاثنان في المدينة طوال فترة العصر، متنقلين هنا وهناك. مروا بجانب محلِّ السجَّاد الذي وضع مبارك ماعونه في مستودعه.

كان مالك المحلِّ يُبعد الغبار عن سجَّاده بخرقة نظيفة في يده، وما إن لمح مبارك يقترب مع العم حسن حتى حيَّاه مبتسمًا: «يا حيَّا بالزبون حقنا، آه بقعا عندك؟ ريضة؟ ذحين جيت باتشل الماعون حقك؟»

- «لَه لَه، ما بشله لَه. عادنا ألا ريّض في البلاد ذي، السواقي والمساييل عادها ما يبست لَه، خلها على الله بس.»

- «بايقع خير، ما ضاقت ألا وتفرجت يا خوي، الصبر. وذحين كنَّك ألا تتمشى في البلاد؟»

- «نشوف بقعا، معاد يقع، كذ نحنا مقطوعين من الطريق، قلنا بانتعرَّف على البلاد وأهلها. وذحين سمع هَه، في الأيام لي باتجي، إن جاء يسلم لي قلت لك عليه يدوِّر لي، قُل له شف صاحبك في مسجد المؤمنين، خله يجي المسجد بايحصلنا فيه.»

تبسَّم صاحب المحل، وأجاب وهو ينظر إلى العم حسن: «آه، حَتَّتُّه بو علي يسير معك. هوذا المؤذن حق مسجد المؤمنين. هوذا آله؟»

- «نعم جزاه الله خير، ما قصَّر معي أبدًا. قام بالواجب وزيادة. الله يكثر من أمثاله.»

- «خلاص ولا يهمَّك أبدًا، إن جاء حد يتخبَّر عليك باقول له شفه في مسجد المؤمنين، وإن ما حصّلته في المسجد تخبّر المئذِّن حق المسجد منه.»

- «أيوا جزاك الله خير.»

ثم توجه بعدها الاثنان، العم حسن ومبارك إلى أماكن كثيرة، وأراه العم حسن دكانه الذي يريد معرفته، وعددًا من الأماكن التي لم يكن يعرفها مبارك في هذه المدينة. ولما قاربت الشمس على المغيب كان على أبو علي أن يعود؛ لأداء الأذان في مسجده. فعادا معًا إلى المسجد.

بعد صلاة المغرب، جاء الإمام ليحادث مبارك، فوجده قد عاد إلى طبيعته تمامًا، فجلس يتكلم معه إلى أن حان وقت صلاة العشاء.

بعد الصلاة لاحظ الإمام وجه مبارك متغيِّراً، لقد بدا متجهِّمًا والقلق بادٍ في مُحيَّاه. فهم سبب ذلك على الفور، فجاء إليه وعرض عليه أن يبيت عنده: «سمع يا مبارك، شفنا اليوم عازمك عندي على العشاء، وبعد العشاء بغيتك تبيِّت عندي، معي محضرة برَّع الدار حقِّي مخصصها للضيوف، لا جانا ضيف من أهلي والا أصحابي يقعد فيها. شفنا قلت كلمتي، وما بغيتك تردَّنا أبدًا. كلمتي كلمة بدوي شفها.»

ابتسم مبارك، وقبل دعوة الإمام محمد بامتنان. وقبل أن يغادرا، أخبر الإمام العم حسن بذلك. وسارا مهتديين بضوء القمر مسافة ليست بالقصيرة، إلى أن وصلا إلى بيت الإمام.

فتح الإمام باب الغرفة لمبارك، كانت غرفة مستقلَّة عن بيت الإمام، وملاصقة له تمامًا. رحَّب الشيخ محمد بمبارك بحفاوة: «توك يا مبارك شف الغرفة ذي اعتبرها ألا حقك، قعد فيها كم ما بغيت، نحنا ما نستخدمها ولا حاجة. وذحين شفنا قليل باخلِّيك، باروح الدار باجيب العشاء وبانتعشَّا مرَّة.»

ذهب الإمام إلى بيته، وجاءت ابنته الصغيرة تقدِّم الماء لمبارك، ثم جاء هو بالعشاء بعد لحظات قليلة. بعد تناول العشاء، جلس الإمام يحدِّثه قليلاً ويسمع قصَّته وما حدث له منذ وصوله المدينة.

بعدما حكى مبارك للإمام ما حدث له بالتفصيل، خاطبه الإمام: «ذحِّين آه تشوف يا مبارك؟ باتقدِّم خدمة لأصحاب المصوغة المسروقة مساكين، وباتشهد باللي شفته البارح في المسجد؟»

- «نشهد عند من؟» أجاب مبارك مستغربًا.

- «عند الشرطة لازم نقدِّم بلاغ عندهم، إن كان نحنا بغينا الذهب يرجع لأصحابه. والا شف السرق ذيلا، بايكررون سرقاتهم في أشياء ثانية، وبايأذون خلق الله.»

- «طيِّب، بشهد وباقول للشرطة بكل لي شفته وسمعته، بس بشرط.»

- «آه هو؟»

- «إنه ماحد يشوفنا من العصابة الخبيثة ذي أبدًا، والا شفهم بايحزرون علي، وبايجون لي لمَّان سبولة، وبايقضون علي.»

- «طيِّب بانقول للشرطة هوكذا، وبانشوفهم يقولون هواه.»

- «خلاص، بغيت نحنا متاه نروح عندهم؟»

- «بكرة الصبح إن شاء الله، بانروح وبانكِّلمهم في الموضوع. بغينا بانلحق السرق ذيلا، قبل ما يتصرَّفون في العدادي لي معهم؛ منشان يرجِّعون الذهب حق المساكين أصحاب المصوغة.»

- «خلاص، طيب يا شيخ محمد، غدوة بانتوكل لا عندهم.»

في صباح اليوم التالي، توجه الإمام الشيخ محمد ومبارك إلى مركز شرطة المدينة، وأخبرهم مبارك بكل ما رآه وسمعه في المسجد في الليلة المشؤومة. ولما حُدِّدَت الأسماء، وعرَّفهم الإمام، ذهبت الشرطة مباشرة إلى بيوتهم، وألقت القبض على الثلاثة من أهل المدينة أولاً، ثم جيئ بالخمسة الباقين. كان أربعة منهم من قرى مجاورة، وليسوا من أهل المدينة.

لم يبت جميع المجرمين ليلتهم إلا في سجن المدينة، إلا أبو مطرقة زعيمهم؛ حيث أخفى هويته الحقيقية. لكن في الأيام التالية للتحقيقات، اتضحت هويَّته، فقد كان موظفاً يعمل في المصوغة المسروقة نفسها، فألقت الشرطة القبض عليه أيضًا، ولحق بعصابته في سجنهم.

بعد تقديم الإمام محمد ومبارك البلاغ عن العصابة، أخبرت الشرطة مُلّاك المصوغة بأمر العثور على العصابة التي سرقت مصوغتهم، ففرحوا كثيرًا بعد أن كانوا قد فقدوا الأمل في العثور على مسروقاتهم.

لم يظهر مبارك لأي فرد من العصابة كما أراد، ولكن أحدُ أصحاب المصوغة طلب من الشرطة مقابلته، فاستأذنوا الإمام في ذلك، فشاور مبارك، الذي رفض في بادئ الأمر، ولكن وبعد مناشدات من الإمام والعم حسن رضي بمقابلته في بيت الإمام.

في ضحى اليوم التالي جاء هذا الشريك، واسمه عبدالقادر بن محمد إلى بيت الإمام. شكر مبارك كثيرًا، وناوله خمسة قروش؛ كمكافأة له على مجهوده في القبض على اللصوص. رفضها في بداية الأمر؛ متذرعًا بأن ذلك كان مجرد صدفة محضة، لكن إصرار العم عبدالقادر على أن يأخذها مبارك دفعه إلى قبولها في نهاية الأمر؛ فهو محتاج لها على كل حال، خصوصًا وأنه مقبلٌ على زواج وتكاليف باهظة، سيستغرقها منه الزواج.

- «تستاهل يا مبارك.» قالها له الإمام محمد بعد ذهاب العم عبدالقادر.

وتدخل العم حسن في الحوار قائلاً: «ذلا يومك ود حلال، ربنا يسرك لنا؛ منشان تكشف لنا العصابة الخبيثة.»

رد مبارك مستدركًا شيئًا غفل عن ذكره سابقًا: «وعادنا شفنا سمعتهم وهم مروِّحين يقولون وذحِّين متاه باتقع الفَقْعَة اللي بعدها!»

رد العم حسن: «شفته لَه؟ عادهم ناويين على خنِّة ثانية، لانك ألا ما كشفتهم! ويمكن ثالثة ورابعة، والله أعلم بيدقُّون من بعد أصحاب المصوغة ذي؟»

وأردف الإمام: «والله يا خوي العدِّي ذي لي عطاك إياها عادها ألا شوي عليك.»

قال العم حسن: «الحمد الله إنها نزلت منِّه القروش ذي! رزق وجاء لك يا مبارك.»

فردَّ مبارك مازحًا: «ذلا ثرنا برجع بخيور لا بلادي من المقعد والمقطعية ذي.»

- «وعاد الفضل اللي بتحصله في الآخرة أكثر من ذا بجم. ذلا شفها العصابة ذي ما حد جاء على أبوها أبدًا، دوَّروا في دوروا وحقَّقوا في حقَّقوا، الظاهر إنُّهم يومهم ألا لِبْدُوا بعد السرقة، وخلّوا التقسوم ألا بعد شهور، لمان نسوا الناس خبر السرقة، ما حد جاء عليهم أبدًا.»

وهنا تدخل الشيخ محمد: «ذحين قمنا يا جماعة، شوفوه قريب وقت أذان الظهر. وعاد الطريق بغت مننا مرجع مرة ثانية.»

فقال العم حسن محتجًّاً: «وذحين ونحنا ما بغيت عندنا لَه يا مبارك؟ قاعد ألا عند الشيخ بس؟»

- «لا لا يا عم حسن، انته ما قصرت من قبل أبدًا. فِيْش عليك يا عم حسن، قمت بالواجب، وذحين الله يسلمه الشيخ، ما قصر معي أبدًا. ساعة عندك وساعة عنده، لمان ربي يفرجها وتنفتح الطريق.»

سار الثلاثة في طريقهم إلى المسجد. وقبل وصولهم إليه قابلهم علي ابن المؤذن وأخبرهم أن رجلاً يريد مبارك موجود في المسجد.

***

بعد أن جفت المساييل وفُتحت الطرق، جاء يسلم مسرعًا إلى المدينة؛ يبحث عن صديقه العزيز الضائع، سأل عنه أصحاب محلات الذهب والفضة، فأخبروه أنهم لا يعرفون مكانه. ولمَّا كان مبارك قد أخبر يسلم أنه رُبَّما عرَّج على أصحاب المتاجر؛ لشراء ماعون العرس، فقد سأل أصحابها عنه أيضًا، حتى وصل إلى المحل المقصود، فأخبره العامل بأن ماعون مبارك عندهم، وأنه موجود في مسجد المؤمنين، ووصف له مكان المسجد، فتوجه إليه.

عندما وصل يسلم المسجد، كان الوقت لا يزال مبكرًا على صلاة الظهر، لم يجد أحدًا فيه ولكنه تذكر أن صاحب الدكان أخبره أن يسأل عنه أبو علي مؤذن المسجد إذا لم يجده هناك، ووصف له داره بأنه الدار الذي يُشرف على المسجد مباشرة.

نظر يسلم إلى الأعلى، فرأى منزلاً يُطل على المسجد مباشرة، فقال في نفسه وهو ينظر إلى الدار: «ذحين بايقع ذا دار المؤذن لي قال عليه صاحب الدكان، كيه باروح وباسألهم.»

طرق الباب عدة مرات، سمعه من في الدار وأطلَّ من النافذة صبي وسأله: «بغيت من يا رجّال؟»

- «بغيت أبوك، هوذا دار بو علي المؤذن؟»

- «آه هوذا، وأنا شفنا علي.»

امتدحه يسلم وسأله: «ما شاء الله يا ولدي، وين أبوك يا الصمصوم؟»

- «ألا في الدكان حقه، ماحد هو لَه.»

- «طيب بسألك، حد رجال جاء قبل يومين وقعد في المسجد يا ولدي؟»

كانت الأم حينها تسمع الحوار الدائر بين ابنها وبين الرجل الذي طرق الباب، فسألت يسلم من وراء الستارة: «غير ما انته تقصد على مبارك؟ تدور له أهواه؟»

تنفس يسلم الصعداء، فعند المرأة الخبر الأكيد. فأجابها: «أيوا أيوا ندوِّر على مبارك، وينه ذحِّين؟ كنُّه ماحد هو في المسجد؟»

تجاهلت المرأة سؤاله، وسألته: «وذحين وراك انته يسلم صاحبه ألَه؟»

كان زوجها قد أخبرها بقصة مبارك، وأنه من قرية سبولة، وأن يسلم زوج بنت أخيها عبيد هو في الواقع صديق مبارك، ولكن يسلم لم يستوعب الأمر بعد، وأصابه الذُّهول عندما نطقت المرأة اسمه، وظل يفكرُ طويلاً فيما قالته له وحدَّث نفسه: «ذحين كن الحرمة ذي تعرف اسمي؟ كاكيه عرفته؟ ذحين آه القصة؟»

ظل يفكرُ طويلاً ولم يرد عليها، فأعادت المرأة سؤالها: «ذحِّين انته يسلم ولا حد ثاني؟»

أخيرًا تشجع يسلم وأخبر المرأة بهواجسه وسألها: «نعم، أنا يسلم بشحمه ولحمه. ألا كاكيه انتي عرفتي اسمي؟! هو من قال لش به؟»

- «مبارك قال لزوجي، وزوجي قال لي. وذحِّين قُل لي يا يسلم، كيف حال مرتك مريم؟ عساها بخير؟»

عقدت الدهشة لسان يسلم! فسكت مذهولاً برهة من الوقت، ثم تجرَّأ وسألها للمرة الثانية: «مر...مريم من يا حرمة؟!»

- «مريم بت خوي، مرتك. عساها أقَّت لها عوين؟ ذلا أني شفني عمَّتها، بت آل البقل، من عندكم من سبولة.»

اندهش يسلم لهذه الصدفة الغريبة التي جمعت مبارك بأقرباءه من قرية سبولة، وسألها بسرعة: «انتي عمَّة مريم مرتي؟»

- «أيوا يا يسلم، حتى شف نحنا جينا وحضرنا عرسك قبل سنتين، معاده عرس لاشق ما شاء الله! وذحّين قل لي، آه أخبار بت خوي؟»

ردَّ يسلم بأدب هذه المرة: «ما شاء الله عليها يا عمّة، وذحين قولي لي أول، انتي وراش مرت بو علي المؤذن والا وحدة ثانية؟»

- «أيوا أني مرته، ذلا من وينك عرَّست عليه، قبل ما تخلق انته، كذني ألا ذحين معي ثلاث بنات معرسات ما شاء الله، وثلاثة سقل ألا عادهم صغار مساكين.»

- «بايكبرون يا عمّة بيكبرون. عسى العافية. وذحين قولي لي يا عمّة، وين مبارك؟ ذحين عاده عندكم؟ غير ما قع به شي؟»

- «لا لا ما قع به شي أبدًا، ما شاء الله عليه. ألا حَايُه السيل مسكين، وجاء قعد أوَّل في المسجد؛ يومه ما يعرف حد في البلاد ذي. وبعدين ألا تعارفنا ويا خير هو تمَّى عندنا بايقع يوم ونص، كنُّه ألا بعدين راح عند إمام المسجد، الشيخ محمد.»

فسألها يسلم بلهفة: «وين داره الشيخ محمد ذا؟»

- «داره ألا بعيد قليل، صعب أوصفه لك. ومنته ذحين آقف لهم في المسجد، بعد قليل بايجون، لكذهم بايصلّون الظهر، بايجي الإمام وبايجي مبارك قفاه.»

- «خلاص يا عمّة، جزاش الله خير، بقعد في المسجد لمَّان يجون.»

- «توك يا ولدي، وانته لاكذ رجعت سبولة، سلم على مريم جم. قُل لها عمتش زهرة تسلّم عليش.»

- «يصل إن شاء الله يا عمّة.» قالها يسلم ثم دخل المسجد؛ ينتظر صلاة الظهر وحضور مبارك.

الفصل الحادي عشر: العودة إلى سبولة

حينما وصل الثلاثة المسجد، كان وقت أذان الظهر قد حان، فصعد المؤذن إلى المنارة لأداء الأذان، بينما دخل مبارك والإمام المسجد، فوجدا يسلم ينتظرهم على أحر من الجمر.

صاح مبارك فرحًا لرؤية صديقه، واحتضنه بشدِّة؛ فرحًا بقدومه إليه، وأخذ بيده إلى ناحية من نواحي المسجد يسأله عمّا جرى في القرية أثناء غيابه.

طمأنه يسلم على كل شيء، وبشَّره بولادة إحدى شياهه أثناء غيابه، ولمّا أراد يسلم الاستفسار عمّا جرى لصديقه، أقام الإمام الصلاة، فأجَّل مبارك الحديث إلى وقت لاحق.

بعد الانتهاء من الصلاة، اعتذر مبارك للجميع وودَّعهم، وانصرف مع يسلم بعد أن عرف أنَّ الطريق قد أصبحت سالكة، وقبل مغادرة المدينة عرَّج على الدكان الذي استودعه ماعونه، فأخذه منه بعد أن استأجر عربة لأخذه إلى قريته. ولمَّا كان يسلم قد حضر للبحث عن مبارك، وليس لشراء أي شيء من المدينة.

انطلقت العربة بالماعون والصديقين إلى حيث توجد قرية سبولة الغالية، أسرعت العربة تحثُّ الخُطِى نحو القرية، تحملُ ماعون عرس مبارك، والصديقان الحميمان.

كان مبارك طوال الوقت في طريقهم إلى القرية مؤثرًا الصمت على الحديث؛ لأنه آثر ألا يسمعه العربجي يتحدث عمَّا حدث له في المدينة، وكان قد أوصى الإمام والمؤذن ألا يتحدَّثا عن الحادثة لأحد أبدًا، ولا يُفشيان سِرَّ عثوره على العصابة لأي مخلوق كان، ووعداه بذلك.

استغرب يسلم عزوف صديقه عن الكلام عمَّا حدث له، لكنَّهما ظلا يتحدثان عن أمور شتّى، وعمّا حصل في قرية سبولة جرَّاء الأمطار الأخيرة، وأحيانًا يكتفيان

بالتحديق في الطريق، وما أحدثته فيها الأمطار من أضرار جسيمة، فقد صارت في حالة مزرية، ويلزمُ إعادتها إلى سابق عهدها جهودًا جبارة مضنية.

كانت السماء لا تزال ملبدة بالغيوم، ولكن ولله الحمد هاهم قد اجتازوا المساييل ومجاري السيول، ولم يبقَ إلا عبورهم المزارع ليصلوا إلى الديار.

رأى الفلاحون مبارك وماعونه الجديد في العربة، ففرحوا له وصاروا يحيونه ويتمنون له حياة سعيدة، فهذا أحدُهم قد رآهم مقبلين، فصاح بأعلى صوته: «مبارك، مبارك، معونة معونة.»

فرد عليه مبارك بابتسامة: «الله يبلّغ كل إنسان مراده يا خوي.»

- «آمين.» ثم وجه الرجل خطابه إلى يسلم: «وانته كنَّك ألا بلا ماعون يا يسلم؟! ما جبت شي للدكان له؟»

ردَّ عليه يسلم والعربة تسير مبتعدة: «لا لا، الدكان ألا مَعْمُور. غلّقوا لي فيه لوَّل منشان نجيب غيره.»

صاح الفلاح ليُسمع يسلم جوابه بعد أن ابتعدت العربة: «العَدِّي يا خوي راسها ضارب!»

استمرت العربة تسير بصعوبة في شوارع القرية؛ بسبب الوحل وتراكم الأحجار والأوساخ التي حملها السيل من الجبال. كان كثيرٌ من الفلاحين قد اكتفوا بالتلويح للصَّديقين من بعيد، وكان يسلم ومبارك يرفعان أيديهما إليهم أيضًا لرد التحية.

وصلت العربة أخيرًا إلى جوار منزل مبارك، فقفز الاثنان عنها، وتوجه مبارك إلى بابه يفتحه، بينما بدأ يسلم برفع بعض الماعون عن العربة متمتمًا بشيء من التبرُّم: «أخيرًا وصل ماعون القبول!»

- «الحمد لله ياخي على كل حال. قدَّر الله وما شاء فعل.»

اشترك العربجي في الحوار، وقال موجِّها كلامه ليسلم: «يا ولدي النَّاس تروح بأمرها وترجع بأمر غيرها، ومادامه لوَّل بخير الحمد لله.»

همس يسلم لمبارك وهما يحملان بعض الماعون إلى داخل المنزل: «ليه ذخّين عرف صاحب العربية ذا قصّتك أهواه؟! كنُّه ألا يتلسَّن؟»

- «آه، صاحب المستودع يوم يحمِّل الماعون قال له إن السيل حاينا، وتميت في البلاد كم أيام، والماعون عنده في المستودع من يوم المطر.»

بعد أن انتهيا من نقل الماعون الى داخل الدار، حاسب مبارك العربجي وناوله أجرته، فانطلقت بعدها عربته إلى حال سبيلها، بينما دخل الصديقان مبارك ويسلم إلى داخل المنزل.

سأله يسلم صديقه: «عساك حصَّلت قرموشين زيان من بيع الفضة والذهب يا مبارك؟»

- «الحمد لله بعت الفضة بخمس تعشر قرش، وأمَّا مريِّة الذهب تصدُّق يا يسلم جابت كم؟ جابت عشرة قروش، والله ما كنت أتوقع ألا خمسة أو ستة قروش على الأكثر فيها، الحمد لله. الحمد لله.»

- «معناها معك ذخّين خمسة وعشرين قرش؟»

- «لا يا يسلم، ما شفت الماعون لي جبته لَهْ، هوذا بلاش هوذا؟! دفعت في الماعون ذا أربعة قروش ونص، وضوِّيت عشرين قرش ونص، كنَّنا ماعون العرس خلاص سكنت منّه، قلت في نفسي كُذك في المدينة يا مبارك فرصة، شل ماعونك معك وخلِّص نفسك وقتل شغلة لابد منها.»

- «صح والله شفك ممخمخ يا مبارك، ممخمخ! خلاص ما ذحيِّن شفك انتهيت من قصة الماعون قبل ما تُخطب حتَّى!»

- «كل شي بايجي يا يسلم في وقته، انته لا تستعجل بس.»

- «معناها من العدِّي لي عادها بتقدر تدفع مهر صفيِّة، وباتبقى لك قرموشين تدبِّر أمورك بها. بس وراها شوي يا مبارك؟ شوي لي باتبقى ألّه؟»

- «من ناحية إنها شوي، شوي من صدق، بس باتتدبر إن شاء الله ربك بيسهّل. وعادنا شفنا حصلت لي رزقة ثانية، بعدين باقولك عليها، لوّل ذحين سمع يا يسلم، مانا شفنا هلكان من الطريق والرعرعة، وبغيت بوخذ لي غمضة، ذلّا شفنا من قبل أذان الفجر وأنا ذاهن.»

- «خذ راحتك يا خوي خذ راحتك، والعفو منك إن ثقلت عليك.»

- «والله راسي ذا اللي ثقل علي يا خوي ماهو انته، هي ألا شوي غمضة وبيقوم بعدها صاحبك كما الحصان.»

- «يالله يا حيَّابك يا خوي، نم وارتاح وبعدين لنا كلام.»

- «العصر يا يسلم...تعال وبحكي لك كل شي من ساعة ما روّحت لمّان جيت. وسمع هَه، لا تنسى تقلِّد الباب وتبعِّد الاقليد من المجر، زقل به في الضيقة ولا قمت أنا باشلُّه، معاد حاجة حد يدخل الدار وأنا نيم، سمعت؟»

- «طيب طيب ولا يهمك.»

***

غادر يسلم دار صديقه بعد أن أحكم إغلاق باب الدار الخارجي كما أمره مبارك، وعاد إلى داره ليترك مبارك يرتاح من عناء رحلته، ويعود إليه عصرًا.

بعد أن وصل إلى بيتهم أخبروه أن زوجته ذهبت للغداء في بيت أهلها بعد غيابها الطويل عنهم، وأخبروه بأن صفية هي التي طبخت الغداء للعائلة بدلاً عنها هذا اليوم، فنادى عليها: «صفيِّة...يا صفيِّة...يالله غرفي غدانا شينا جويع، ومريم اليوم ماحد هي، يالله تحيمشي.»

فردَّت عليه باحتجاج: «خل أبوي يجي لوَّل، بغيت بتتغدَّى لوحدك أهواه؟»

- «ليه فيينه ماهو جاء الدار لَه؟»

ردَّت الأم على يسلم: «نعم جاء الدار يا ولدي من قبيلان ومسك المحضرة القبلية، قال إنه قليل ما منُّه شي وقلبها نومة. الظاهر إنه هلكان وتعبان.»

ثم التفتت إلى صفية: «كيه طلعي يا صفية ثوِّريه للغداء.»

ذهبت صفيَّة لتوقظ أباها لتناول الغداء، فقال لها: «مانا يا بتِّي شينا ما منِّي شي، توّكم تغدوا انتوا، بغيت بوخذ لي رقدة زينة خاف ألا اتباخر.»

- «ليه كنَّك يابه آه بك؟»

- «ماشي جم لَه، ألا قليل ضارب والنفس حسَّها ما بغت الأكل أبدًا، توِّش روحي وقولي لأمش قال أبوي توّكم تغدّوا.»

عادت صفية إلى غرفة المعيشة، وأخبرت أمها بما قال أبوها، فطلبت منها الأم تجهيز الغداء وجلست العائلة لتناوله، وما إن وضع يسلم اللقمة الأولى في فمه حتى أصابه التأفف، فقال متبرّما: «آه ذحين الأكل ذا؟ كنُّه بَاسِغ كذا؟! ذحين معاد شي معنا ملح أهواه؟»

غضبت صفية من كلام أخيها وردَّت بحنق واضح: «ليه آه بُه؟ ماهو باسغ ولا حاجة! ذلا يومها ماهي مريم طبخته اليوم توَّلتُه انته يا الحرامي!»

- «استغفر الله العظيم، ماحد يقول للأكل هوكذا يا عيالي لَه، ذلا نعمة شوها.» هكذا ردت الأم، ثم وجَّهت خطابها لابنتها: «يا خير غداء يا بتِّي زين ايش على غداء! الله يعطيش العافية، ذلا خوش ذا شيه شِكِع ما هو كما الناس.»

جلس الثلاثة يتناولون طعامهم بهدوء. وبعد أن تناول يسلم لُقيمات قليلة همَّ بالانصراف، فسألته الوالدة: «ذحين بغيت وين يا ولدي؟ عاده حتى ما أذن العصر.»

- «بوخذ لي غمضة قليل وبعدين باروح عند مبارك بتولَّه قليل أنا ويَّاه.»

- «طيِّب آه رايك أعطيك غداء له، مسكين ما حد يطبخ له ولا شي، والغداء اليوم زايد؛ لا أبوك تغدَّى ولا انته حتى.»

- «خلاص يمَّه جهِّزيه وطرحيه في التنار منشان يتمّي حار، ولاكذ ثرت باشلّه وباروِّح به معي.»

بعد أن استيقظ بيسلم من غفوته توجَّه إلى التنور؛ ليأخذ غداء مبارك إليه، ثم حمله وتوجَّه إلى بيت صديقه. وعندما وصل إلى جوار البيت نادى عليه وهو يطرق باب البيت: «مبارك...فتح يا مبارك والا عادك نيم.»

مرَّت لحظات قليلة قبل أن يفتح مبارك باب بيته مرحِّبًا بيسلم: «يا حيابك يا يسلم، تفضل. وكن ذا ألا لَقَن معك؟!»

ابتسم يسلم وهو يدخل إلى المنزل مناولاً مبارك صينية الطعام: «غداك يا مبارك، الحرمة حقي اليوم ألا تغدَّت عند أهلها، والوالدة لما عرفت إننا باجي عندك عطتنا إيَّاه، خلاص ما ذحين يا مبارك كذها باتقع خالتك.»

- «خالتي زينة كذها تحبَّنا من وينك. خل الخراط حقك يا يسلم، ليه انته نسيت إننا دايم وأنا صغيِّر كنت اتغدى واتعشى ألا عندكم؟ نسيت أهواه؟»

- «صح كلامك، وعادها زادت المحبَّة ذحين.»

- «وذحين ليه تحرجنا يا صاحبي، عيب عليك ياخي.»

- «ذلَّا نصفط معك، يالله يالله ذحين قم كل لك لقمة، الغداء بايبرد، شفنا عادنا ألا قبل قليل شليته من التنَّار.»

قام مبارك يتناول غداءه، وقال يداعب صاحبه: «عساها صفية لقَّته اليوم!»

- «ومن قالك إنها صفية لقَّتُه؟! صح كلامك صفية طبخته، بس من قالك؟»

- «منته قُت إن مرتك راحت عند أهلها لَه؟ من عاده بايقِّيه؟ أمك ألا مسكينة عجوز معادها حق شغل لَه. بس سمع هَه يا خوي، ذلّا صفيِّة طلعت طبّاخة شفها! يا خير غداء ما شاء الله.»

- «طباخة هواه؟! مانا ما عجبنا طبخها لاشق، حتى معاد تغديت سوا أبدًا، ذلّا انته عجبك طبخها يومها باتقع مرتك مدحتها، ذحين قل لي لوّل، آه لي حصل في المدينة من ساعة ما رحت لمان رجعت.»

بعد أن أكمل مبارك غداءه، جلس يحكي لصديقه ما حصل له في المدينة بالتفصيل؛ من حين ذهابه من سبولة إلى أن التقاه في مسجد المؤمنين. وعندما انتهى من كلامه سأله يسلم: «وذحين مسكوا أبوهم السرق ذيلا ودخلوهم داخل؟»

- «آه مسكوهم.»

- «ذَلْفِة! وذحين خل نحنا في المهم، كم معك عدِّي؟»

- «معي خمسة قروش مربَّته، وعشرين ونص جبتها من ثمن الفضة والذهب، والخمسة لي عطانا إياها الصِّيْغ، معناها شي وثلاثين قرش.»

- «يالله خل نحنا نحسبها، قل انته عشرة قروش مهر أختي، بتبقى منها عشرين قرش، وهيذي على ما حسب الوالد شفها باتسد تكاليف الشروحات وحق الوجبات من رز وبُر ولحم وتوابعها، وعاد حق رشوشة الدار، منشان يقع دار عليه عمد.»

- «أوَّل من ناحية رشوشة الدار بانشوف أصحابنا العمال إن كانهم بايعطون نحنا كم عصريات مبادرة من عندهم وبايرشون الدار باتقل التكاليف.»

- «أكيد أصحابنا بايجون كم عصريات وبايرشونه ألا بلاش، أكيد بيخدمونك كما يوم تخدمهم.»

- «وأمَّا حق اللحم نِزّله؛ لأننا معي ثمانية رؤوس بانذبحها بايسدين لغداء الصُّبحة وعشاء الحراوة، وبانخلي ألا شاتين بس منشان اللبن، يكفين نحنا وبعدين بايزدن مع الوقت.»

- «هه هه شفها ألا تسهلت الأمور جم يا مبارك، وعاد نحنا نسينا حق الطّروحات لي باتجي من المعازيم، أكيد باتحل المشاكل لي عادها. خلاص خلاص شفك طمَّنتنا. وما ذحين شفنا باقوم، عادنا بافتح الدكان ذحين؛ يوم الوالد مستاذي.»

نهض يسلم مغادرًا، وقام مبارك يرافقه إلى باب المنزل.

إلتفت يسلم قبل أن يغادر وقال لمبارك: «لكن سمع ياخي، مادام الوالد ذي الأيام صحّته مستاخره، آه رايك نُخُّر الخطوبة قليل لمَّان الأسبوع اللي بايجي؟»

- «خلاص تمام، لمَّان يتباخر عمِّي عمر إن شاء الله، وأنا غُدوه عسى العافية بازوره، وذحين سلّم عليه جَم.»

- «يصل إن شاء الله.»

ذهب يسلم وبقي مبارك لوحده، وقضى عصر ذلك اليوم في نقل الأثاث الجديد وتصنيفه وتربيطه، ثم وضعه في مخزن الدار إلى حين الاحتياج إليه.

الفصل الثاني عشر: الخِطبة

في الأيام التالية، ونظرًا لمرض العم عمر الذي طال قليلاً، لم يتسنَّ لمبارك خطبة صفية إلا بعد مرور أسبوع على آخر لقاء بينه وبين يسلم؛ لأنه بعد مرض العم جلس يسلم في دكان العائلة بدلاً عن أبيه، إذ لم يكن لدى العم عمر ابن غيره، فلم يعد يلتقي بصديقه مبارك الذي استبطأ مجيئه إليه، فزاره في دكانه، وعرف منه سبب تأخير الخطبة. فرضي بأمر الله حتَّى يمن الله بالشفاء على العم عمر.

في هذه الفترة أراد مبارك أن يُشرك العم عوض الذي يحترمه كثيرًا في صحبته لحضور مراسيم خطبته لصفيَّة، فكلمه في ذلك بعد أن أنهى عمله ذات يوم عندما كان مارًا أمامه: «عم عوض، عم عوض. كيه آقف قليل باكلِّمك إن كانك ما انته مستعجل.» ثم ذهب إليه على عجل.

سأله العم عوض: «خير يا ولدي؟ لَه مانا مستعجل.»

- «ألا أنا شفنا همِّيت على الزواج.»

- «هوه هوه هوه! بالبركة بالبركة، ما ذلا يا خير خبر شفه! وعلى بت من؟»

- «على بت آل بو يسلم صاحب الدكان، كذك تعرفه.»

- «ماهي صغيرة لَه؟ والا عادهم معهم وحده أكبر مِنَّها وأنا مانا داري؟»

- «لا لا معهم ألا وحده يا عم عوض.»

- «طيب ما دامك بغيتها ألا هيذي، الله يبارك لك فيها.»

- «ذلا بغيتك تحضر معي في يوم الخطبة والمَدَاد، إن كانك ما عندك مانع. شفنا نشوفك ألا في مقام أبوي.»

ابتسم العم عوض، ثم أكمل وهو يضع يده على كتف مبارك: «ولا يهمَّك يا ولدي أنا حاضر. انته الا قُلِّي بس متاه بغيتنا نحضر وأنا باجي معك.»

- «ما باتقصِّر أبدًا يا عم عوض، خلاص لا كذ حددنا اليوم باقولَّك وبانروِّح أنا ويَّاك عندهم.»

- «طيب طيب، ولا يهمَّك.»

- «جزاك الله خير يا عم عوض.»

وها قد جاء هذا اليوم بعد تماثل العم عمر للشفاء التام من مرضه، إذ عاود عمله في الدكان، فوجدها يسلم فرصة سانحة لزيارة صديقه العزيز مبارك، فذهب إليه عصرًا، فوجده نائمًا بعد عودته من المزرعة التي يعمل فيها عند العم عوض. كان متعبًا ومنهكًا، ولكنَّه ما إن سمع صوت يسلم يناديه حتَّى انجلى همَّه وبادر بلقائه ببشاشة ومرح قائلاً: «يا حيَّا بالصديق الغالي، يا حيَّا بالمغيِّص.»

- «كذك داري يا مبارك بالسبب، ماهو بيدِّي يا صاحبي.»

- «ألا صدق يا يسلم كيف حال عمِّي عمر؟ عساه بخير؟»

- «الحمد لله تحسَّنت حالته، ونزل الدكَّان اليوم.»

- «ذِكِر وعافية إن شاء الله.»

- «ها يا مبارك، قلِّي هيين وصلت؟»

- «والله ما وصلت لشي، كل يوم سيرح وضيوي للشغل كما شاة الرَّعي!»

- «يعني ما حرّكت ساكن أبدًا؟!»

- «لَهْ ما لقِّيت شي أبدًا، مساهنك يا خوي.»

- «كنت حتِّى باتكلِّم العمَّال أصحابنا يجون يسبّرون بشغلة الدَّار.»

- «مانا شفنا عادنا ما تحرَّكت، قُتْ ما باتحرَّك لعاد يغبُّر الدار ويالله رشُّوه من جديد، خسارة ثانية! مانا ألا قلت لمَّان يتعافى عمِّي عمر بعدين فَكَّة.»

- «خير إن شاء الله، خلاص أنا باكلِّم أبوي الليلة إنك باتجي غدوه بعد صلاة العشاء منشان تخطب صفيِّة، وهت المهر قفاك، فرّح الوالد قليل، شفه اندر من مَرْضَة عيفة!»

- «خلاص يا خوي، غدوة بعد صلاة العشاء باجي لا عندكم، وباتقع الخطوبة رسميِّة. لكننا قبل ما انسى، شفنا باجي أنا والعم عوض، بغيته يحضر الخطبة حقِّي.»

- «العم عوض صاحب المزرعة لي تشتغل فيها؟ والا قصدك عمَّك خو أبوك وأنا ما أعرفه؟»

- «لا لا يا يسلم، العم عوض صاحب المزرعة لي اشتغل عنده، قُت باشرِّفه يحضر خطوبتي، كذه في مقام أبوي. ماهو ألا فرح وقال بايحضر معي، ما بايقصِّر أبدًا.»

- «يا حيَّابكم اثنينكم، وكما اتفقنا من قبل، شفك انته وعم عوض عشاكم عندنا.»

- «إن شاء الله يا يسلم إن شاء الله.»

وفي اليوم التالي ما إن أذَّن المؤذن لصلاة العشاء حتَّى أخذ مبارك قروشه العشرة (مهر صفيِّة) بعد أن لفَّها في خرقة صغيرة وتوجَّه إلى المسجد لأداء صلاة العشاء، وقد حضر الجميع في المسجد، يسلم والعم عمر، وحضر أيضًا العم عوض بعد أن أخبره مبارك بالخطبة والوليمة.

بعد انقضاء الصلاة، جاء يسلم والعم عمر إلى مبارك والعم عوض ليُسلِّما عليهما، وليأخذانهما معهما إلى البيت، ولقد دعاهم العم عمر قائلاً: «هيَّا يا جماعة روَّحنا، وعسى التوفيق.»

- «هيَّا يا عمِّي، إن شاء الله بس ما نقع ضيوف ثقال عليكم.»

تدخَّل يسلم معترضًا على كلام مبارك: «هيَّا هيَّا من ذا الكلام! من اليوم ورايح يا مبارك شفك منَّنا وفينا، واعتبر نفسك واحد من آل الدار، سمعت وألَّا لا؟»

- «بارك الله فيكم، وجزاكم الله عني كل خير.»

- «هيا سمع يا بوي آه يقول ذاء يحسس نحنا اشتقول ألا مغرّقينه بالفضل! سمع يا خوي انته اللي لك فضل علينا، باتخلص نحنا من الغشيمة اللي اسمها صفيَّة وبانوهد من كَشَافتها!»

- «الله يسامحك يا بسلم، ليه تقول كذا على أختك؟ غدوه باتعقل وباتقع ألَّا أُم المال والعيال، وعادنا باذكِّرك.»

- «الله يهنيك بها، والله أنا ما أتمنى لكم ألا الخير.»

في هذه الأثناء كان الأربعة قد وصلوا إلى البيت، فدخل الاب أوَّلاً ثم دخل بسلم، وتبعهما مبارك والعم عوض إلى غرفة الضيوف، وهي غرفة كبيرة تقع إلى يمين مدخل الدار؛ حتَّى يدخل الضُّيوف إليها مباشرة فلا تنكشف نساء المنزل عليهم.

بعد جلوسهم والسؤال عن الأحوال، بادر العم عوض بالكلام موجِّهًا خطابه للعم عمر بنبرة رسميَّة تُقال في مثل هذه المناسبات: «سمع يا خوي عمر، أتشرَّف إننا أتقدَّم لخطبة بنتك صفيِّة للي هو في مقام ولدي مبارك بن صالح سالم، آه قُت؟»

ردَّ العم عمر بنفس النَّبرة الرسميَّة: «قَبلتُ الخطوبة، على أن يُسلّمني مهرها الآن عشرة قروش بالتَّمام والكمال.»

وهنا مدَّ مبارك يده إلى عمِّه عمر يناوله خرقة صغيرة بها عشرةُ قروش هي مهرُ صفيَّة: «شفها ذي القروش العشرة يا عمِّي.»

ثم أردف مبارك بعد أن تناول العم عمر منه المهر قائلاً: «والله إنَّ صفيّة عندي تستحق أكثر من ذا بجم، لكن العين بصيرة والايد قصيرة.»

- «والنِّعم يا ولدي مبارك، والله ما بانحصِّل لها زوج أحسن منَّك أبدًا»

وبعد أن تناولها منه العم عمر، دسَّها في جيبه مكملاً: «ما ذخّين شف صفيِّة خطيبتك يا مبارك، وكلَّها أسابيع وباتكون في دارك بإذن الله. الله الله فيها يا ولدي، وتحمَّلها كم سنين شفها ألَّا عادها غشيمة، وبعدين بايجي العقل.»

- «إن شاء الله يا عمي، ولا يهمَّك.»

نادى العم في هذه الأثناء على النِّساء ليُحضِرن العشاء، فأحضرنه إلى قرب الباب وتناوله يسلم إلى الدَّاخل. أكل الجميع حتى شبعوا وضحكوا ومرحوا، وجاءت النِّساء بالشَّاي والحلوى، وكانت بالنسبة لمبارك ليلة من ليالي العمر، وقد تم خلال هذه الجلسة تحديد موعد الزَّواج في الأسبوع الرابع من الشهر القادم.

بعد مرور هزيع من الليل استأذن مبارك والعم عوض وغادرا وقد ملأ قلب مبارك فرح لا يُوصف، فقد صار قاب قوسين أو أدنى من الزَّواج وتأسيس أسرة.

ودَّعه العم عوض عائدًا إلى منزله، بينما توجَّه هو الآخر إلى داره، وفي طريق عودته تذكَّر مبارك والدته العزيزة، وتمنّى لو أنها كانت على قيد الحياة؛ لتشاركه فرحته وسروره.

الفصل الثالث عشر: ترميم

في صباح اليوم التَّالي نهض مبارك من النُّوم مبكّرًا، إذ كان عليه أن يذهب إلى مكان السّباطة؛ لشراء النُّورة الكافية لإصلاح داره وتلميعه، فقد كانت الدَّار في حالة مزرية من الإهمال والقِدَم.

بعد أدائه لصلاة الفجر، دسَّ مبارك قرشًا من القروش المتبقية معه في جيبه، واتَّخذ سبيله إلى مكان بيع النورة، حيث اشترى من هناك ما يحتاجه من نورة، وعاد بها على عربة جاره إلى المنزل.

وعندما زاره يسلم بعد يومين من ليلة الخطبة، استشاره في دعوة فرقتين من العمَّال للعمل في المنزل كمتطوِّعين في عصريات الأسبوع الأول من الشهر القادم، وتقاسم الاثنان المهمة، ذهب مبارك ليشاور صديقه حسن وجماعته، بينما ذهب يسلم يشاور ربيع وفرقته.

بعد صلاة مغرب ذلك اليوم التقى يسلم بمبارك، وكان كل واحد منهما يحمل للأخر أخبارًا سارة. وجلسا بعد الصلاة يتحدثان عمّا حدث لهما مع العمال.

ابتدر يسلم الحديث: «يا مبارك شفنا رحت عند المعلِّم ربيع وكلَّمته في الموضوع وكان متعاون معي، أوَّل ما سمع خبر زواجك من أختي وطلبك لهم بالمعاونة وافق بسرعة، وشفه قال من غدوة العصر بايكون عندك هو وعماله، ذلَّا أنا قُتْ له لا بغيناكم بداية الأسبوع الأول من الشهر لي بايدخل أحسن، كذهم بيجون عمال ثانيين وباتتعاونون كلكم على الدَّار بسرعة، فعجبته الفكرة وقال لي: (وِصَخَّا نحنا ألا بمبارك ونسايب مبارك، ونحنا كذ نحنا ألا قاعدين في العصريَّات، لا شُغُل ولا مَشْغَلِة).»

- «حتَّى أنا يوم قابلت حسن أول مرَّة استحيت وبعدين قلت لنفسي معاد بها، إذا استحيت ماحد بيلقِّي لك شي يا مبارك، ما أنا ألَّا غمَّضت وقُت له، وفرح لي جم وقال لي: (لا كُذَك بغيت نحنا طُرُّب علينا) قت له: (بغيناكم بداية الأسبوع الأول من

الشهر القادم). ماهو ألّا وافق وقال: (يا خير شور، لا ما نفعنا أصحابنا بَطَلْنَا). وأنا شفنا من ناحيتي جبت النورة من المسبط وعطيتها البراميل، نقّعتها منشان ما تيبس.»

- «ريض ريض، ما شاء الله عليك. عادنا الا أنا باقولّك نقّعها، لكنك عرفت من عمرك.»

فردَّ مبارك متهكّما: «أوه يا خوي ذلّا خَارَي! ورانا مصمَّخ أنا؟! خاف الله يا يسلم!»

- «خلاص، خلاص. العفو منَّك، زعلت أهواه؟»

***

في الأسبوع الأول من الشهر التالي، حضر العمال المتطوعون في موعدهم المحدد، وباشروا العمل فورًا. وجَّه يسلم كلامه نحوهم قائلاً: «هيا يا شباب همتكم، شو العصريَّات ألّا قِصَيييرة.»

رد عليه المعلم حسن: «ولا يهمك يا يسلم ولا يهمك، شف أمر الرِّشوشة ألّا سهلة، قليل نورة وماء ومقاشة وبانعطيها ألا يومين والا ثلاثة، الدار ألّا صغير ماهو كبير لَه.»

بدأت مكانس النورة تضربُ الجدران في دار مبارك، وتهيِّئُه ليكون دار آل العرس. بدأت فرقة حسن العمل في غرفة مبارك الخالية، فقد نقل مبارك ماعونها إلى مخزن البيت. كانوا شبابًا ذوي نشاط وهمَّة عالية، فأتمُّوها مع سقفها في عصريَّتين متتاليتين.

ابتهج مبارك أشد الابتهاج وهو يرى غرفته الكئيبة قد بُعثت فيها الحياة من جديد، بفضل سواعد الأصدقاء المخلصين. وكانت فرقة ربيع قد أنهت أيضًا العمل في غرفة المرحومة، وأحالوها بسواعدهم الفتيَّة إلى دُرَّة بيضاء ثانية.

واستمر عمل الأصدقاء في رَشِّ النورة في دار مبارك، كانوا لا يتوقفون إلا قبيل أذان المغرب بقليل؛ ليتسنَّى لهم الاغتسال والذهاب إلى المسجد لأداء الصَّلاة.

استمر العمل أسبوعًا كاملاً، قامت فيه الفرقتان برش البيت بالكامل من الدَّاخل، الثلاث الغرف الموجودة في الطابق الثَّاني، مع الصالات والدرج والأسطح، إضافة إلى المطبخ الموجود في الطابق الأول وما حوله، والدرج المؤدي إلى الطابق الثاني.

في اليوم الثامن لم يبقَ من العمل إلا رش الواجهة الخارجية للدار، ونظرًا لبساطة العمل المتبقي، فقد اعتذر المعلم حسن عن الحضور، وأما المعلم ربيع فقد وافق على إكماله مع اثنين من عماله، هما خميس وعبود.

حضر الثلاثة في عصر اليوم التالي وبدأوا العمل. بعد مرور دقائق على بدء العمل خاطب المعلم ربيع مبارك قائلاً: «سمع يا مبارك، شف نحنا بغينا بانسبِّر سمح منشان نضوي سمح، خلاص بغينا بنقتل الشغلة اليوم، رُح شف خميس قال الماء نقص عليه، طرح عنده قليل ماء، وأنا باسبِّر نقرش السترة ذي.»

هزَّ مبارك رأسه موافقًا، وأثناء ذهابه سمع مبارك أحدهم ينادي على المعلم ربيع في الخارج لكنه لم يكترث له، بل ذهب إلى المطبخ وحمل وعاءً صغيرًا مملوءً بالماء، ووضعه إلى جوار خميس، الذي أخذ منه بعض الماء، ليضيفه إلى النورة الغليظة ليتم معالجتها. أما عبود فقد كان مشغولا بتنظيف الوعاء الذي ستُسكب فيه النورة الجديدة، من بقايا نورة قديمة جافة كانت عالقة به.

خرج مبارك إلى المعلم ربيع ثانية، ولكنه لم يجده عند السَّلم المنصوب خارج المنزل. رأى مبارك جاره سعيد وأباه وقد انضمت إليهما ثلة من رجال القرية يتحدَّثون عن وفاة شخص في القرية، فأراد مبارك الانضمام إلى الجمع لمعرفة المتوفى، لولا أنه سمع أغنامه وقد ارتفع ثغائها، وبدت تتقافز بصورة غريبة في زريبتها، فدخل يستطلع الأمر. وفي طريقه إلى مكان الغنم، أخبر خميس أنه موجودٌ هناك إذا احتاجوا إليه.

وجد مبارك أنَّ إحدى شياهه الحوامل قد حان وقت ولادتها، وهي التي تحدث الصخب والفوضى في المكان، أخرجها من الزريبة إلى الحوش الصغير الملاصق للزريبة، وأوثق إحدى رجليها بحبل طويل كما كانت أمه المرحومة تفعل ذلك، وذهب إلى

مستودع العلف، وأخرج لها حزمة من البرسيم، ربطها بخيط وعلقها أمامها؛ حتى تُلهي نفسها بالأكل، وتتحمل آلام الوضع.

وبالفعل توجَّهت الشاة إلى حيث ربطة البرسيم تأكلُ منه، وتشرب من الماء الذي أحضره لها أيضًا. بعدها ذهب مبارك إلى المخزن، وأحضر لها الرضيح؛ وهو نوعٌ من العلف مكوَّن من نوى التمر المدقوق، تعشقه الأغنام، وتتلذَّذ بأكله، ففرحت به الشاة كثيرًا، ونسيت آلامها وبدأت تقضمه وقد هدأ ثغائها وهياجها، ولكنها لا تزال في حال يُرثى لها، فالدماء تسيلُ منها ولم يظهر وليدُها بعد.

استند مبارك إلى جدار الحوش الصغير وانتظر طويلاً ينظرُ إليها والحزنُ يعصر فؤاده، لكنَّه لا يستطيع فعل أي شيء لها سوى الانتظار. كانت أمه المرحومة خبيرة في توليد الأغنام، أما هو فلا يستطيع فعل شيء. تعب من الجلوس، ففرش ثوبًا باليًا وجده هناك، واستلقى فوقه وأغمض عينيه؛ كي لا يرى منظر الدماء المُرعب.

بعد فترة ليست بالقصيرة، فتح مبارك عينيه بعد أن سمع خميس يناديه من الخارج، نهض واقفًا بسرعة، فوجد أن شاته لم تلد بعد، لكنها كانت هادئة ومنشغلة بالرضيح الذي وضعه لها.

خرج مبارك من حوش الغنم، ووجد خميس في ردهة البيت وقد وضع النورة في إنائها الجديد، وبدأ في تحريكها. سأله مبارك: «وين المعلم ربيع؟ ووين صاحبك عبود؟»

- «المعلم راح الطهارة قبل قليل، وعبود راح ينشل بطحاء، نقصت قليل اللي عندي هنا.»

خرج مبارك إلى خارج الدار، ونظر بقلق إلى الشمس التي بدأت في الانحسار نحو المغيب. نظر إلى الجدار الخارجي فوجد أن نصفه فقط قد تمَّ كشطه، فحدث نفسه: «العصرية بتغلق قريب والشغل عاده مَشْنُوْي، والله شغلة!»

نظر مبارك إلى المزحاة المسنودة بجدار البيت الخارجي، بعد أن تركها المعلم ربيع، فحدثته نفسه أن يواصل العمل الذي توقف عنه ربيع ريثما يعود ويستلم منه باقي العمل، فذلك سيسرع وتيرة العمل.

صعد مبارك السُّلم المنصوب؛ ليُكمل ما بدأه المعلم ربيع، من نحتٍ للجدار الخارجي؛ تمهيدًا لطرقته الجديدة.

لم ينتبه ويتأكد مبارك من تثبيت السلم جيِّدًا في الأرض قبل صعوده، ولذا وما إن صعد عليه وبدأ في نحت الجدار الذي تركه المعلم ربيع حتى تحرك السلم فجأة وسقط مبارك من فوقه والتوى مفصل قدمه اليمنى، وسُمع له صوتٌ غريبٌ؛ لأن ثقل جسمه كله قد سقط عليه.

صاح مبارك بأعلى صوته من الألم، فجاء العاملان الموجودان في الداخل مسرعين، ليجدا مبارك وقد كُسرت قدمه يتلوى من الألم ولا يستطيع حراكًا. استدعى أحدهما المعلم ربيع من داخل المنزل، فحضر إليهم وأخبروه بما حصل.

أوقف المعلّم ربيع العمل، وخاطب خميس: «رح يا خميس طرّب على المعمِّر، خله يلحق نحنا.» وقبل أن ينفذ خميس ذلك، أردف المعلم ربيع: «وعبر قدا يسلم في طريقك، أكيد بتحصله في الدكان حقهم، قُل له تعال لحق صاحبك.»

***

كان يسلم يرتب بعض الحاجيات في رفوف دكان والده، بينما كان العم عمر يكيلُ بعض حبوب الذرة لأحد زبائنه المعتادين عندما دلف خميس إلى المحل صارخًا بأعلى صوته وهو يلهث من التعب: «يسلاااااام!»

جفل يسلم من الصوت العالي، والتفت العم عمر نحو القادم بوجه شديد الوجوم، وقبل أن ينطق مقرِّعًا خميس الذي دخل الدكان متجهًا إلى يسلم أعاد خميس كلامه بصوت مرتفع، لكن أقل حدة من المرة الأولى: «لحق مبارك يا يسلم.»

وضع يسلم ما بيده جانبًا، ثم اتجه نحو خميس قائلاً: «كيه هلل يا خميس! اذكر الله، آه حصل؟ كنك تص...»

قاطعه خميس بحدَّة: «مبارك سقط من فوق المشعبة، وذحين رجله انكسرت!»

تغيَّر وجه يسلم، وصاح في وجه خميس: «آه تقول! وينه ذحين؟»

- «تحت الدار حقه، المعلم ربيع قال لي رح هت يسلم والمعمِّر معك.»

التفت يسلم إلى أباه الذي بادره قائلاً: «رح قدا صاحبك يا ولدي، أنا ريض وحدي.»

انطلق يسلم مسرعًا مع خميس نحو بيت مبارك، وخاطب يسلم خميس: «كذ كلَّمت عم بخيت أَله؟»

أجابه خميس وهو يجري إلى جواره: «عم بخيت من؟!»

توقَّف يسلم فجأة، وقال لخميس بوجه حائر: «المعمّر.»

دارت عينا خميس بسرعة في محجريهما وهو يقول: «لَه عادنا!»

- «وتخب قفاي لهواه يا المبدَّل؟! رُح طرّب عليه.»

ركض خميس في الاتجاة المعاكس ليحضر عم بخيت مُجبِّر القرية، بينما واصل يسلم طريقه إلى بيت مبارك.

كان مبارك يصرخ بشدَّة عندما وصل يسلم إليهم، بينما كان المعلم ربيع وعبود يحاولان تهدئته، وقد مد رجله المكسورة قدمُها ولا يستطيع تحريكها. جلس يسلم إلى جانب الاثنان محاولاً تهدئه صديقه، وانضم إليهم سعيد أيضًا الذي كان عائدًا إلى منزله حينها.

بعد وقت قصير لكنه كان دهرًا بالنسبة لمبارك، وصل المجبّر برفقة خميس أخيرًا، حاملاً في يده أدواته التي يستخدمها في تجبير الكسور. عاين مشكلة مبارك، وحاول تحريك قدمه، فصاح مبارك من الألم.

سأله المجبر: «ذحين آه لي حصل يا مبارك؟ قل لي أه لقيت؟»

ردَّ مبارك وقد قطَّب وجهه من الألم: «والله يا خوي تعرَّاض، عندي عمال يشتغلون وواحد منهم راح بيت الماء، جيت أنا استبطيته وقلت باسبّر في الشغل حق المعلم على ما يوصل، بقرش السترة كما يوم يقي ربيع؛ منشان نخفف عليه قليل، ويسرع الشغل وينتهي.»

- «طيّب هو راح بيت الماء وعرفنا، والعمال حقه وين راحوا؟»

رد عليه خميس الذي استدعاه للحضور: «ألا كنا داخل نخبُط النُّورة ونجهِّز الأوعية حقها، والمعلم راح بيت الماء.»

- «لا حول ولا قوة إلا بالله. وبعدين انته طلعت فوق المشعبة وسقطت؟» قال كلمته الأخيرة موجهًا إياها لمبارك، فهز مبارك رأسه موافقًا وهو يئن من الألم بعد أن تحرَّكت قدمه قليلاً أثناء كلامه مع المجبر.

رد عليه المجبر بعتب: «هيا شف ذحين حق اللّخْفَة حقك آه حصل، سرع العمل ألله؟! سرع العمل؟»

رد مبارك: «خلاص يا عم بخيت، معاد ينفع العِلاق، مقدَّر ومكتوب.»

وجه المجبر كلامه ليسلم: «طيّب ذحين بغيتوه يقعد فيين؟ منشان نسبر في تعمير رجله، يالله حملوه وطلعو به طالع، ما بيقدر يطلع ورجله هوكذا لَه، حملوه حملوه.»

فسأله يسلم بقلق: «غير ماهي باتبطي رجله مربَّطة يا عم بخيت؟»

أجاب المجبّر بأسف بالغ: «باتبطي يا يسلم باتبطي، بتوخذ حوالي شهرين، وإن شاء الله بعدها ترجع رجله كما عادتها.»

- «أوهوي شهرين؟! شهرين هواه؟! ونحنا كذ وعدنا بالعرس.»

- «معاد ألا قضاء وقدر يا يسلم، ما هو بيده ياخي.»

- «لا حول ولا قوة إلا بالله. خلاص آقفوا قليل لول، بطلع أنا فوق بجهِّز المحضرة؛ ذلا بقعه طالع كُل أبوها نورة ومقيش وبطحاء، بيحشها وبفرشها، وبعدين طلّعوه.»

رد المجبر بصوت حازم؛ ليكون لأمره وقعٌ على نفس يسلم: «يالله كنك سرع سرع، بغينا بانلحق الرجل بدري، قبل ما تيبس العروق، سرع هيَّا.»

دخل يسلم الدار مسرعًا ينفذ ما أراد المُجبِّر تنفيذه، وبقي المجبِّر مع مبارك في الشارع. وكان بعض الرجال من الجيران والمارة قد انضموا إلى المشهد؛ بدافع الفضول،

ورأوا ما حدث لمبارك وتأسفوا لما حصل له، وأبدوا استعدادهم تقديم الخدمات لمبارك المسكين.

خرج يسلم أخيرًا، وأحضر معه فرشًا غليظًا ليُحمل مبارك عليه، وأخبرهم أنه قد جهز إحدى الغرف لصديقه، وخاطب خميس وسعيد: «انتوا الاثنين كل واحد يشل طرف من أطراف السليمود من قدَّام، وأنا والعم بخيت بانشل أطراف السليمود من وراء.»

تدخل المجبِّر محذِّرًا: «كنكم شلوه بشويش هاه، لا تزعقلون بالرجال. وانته يا يسلم لا تخلي رجله المكسورة ذي تتحرك أبدًا، سمعت؟»

- «طيب طيب يا عم بخيت.»

قال عبود وهو يقف إلى جوار المعلم ربيع: «ونحنا خلاص شف نحنا رحنا يا يسلم، معاد لنا حاجة هنا.»

- «توّكم توّكم. كنَّك يا عبود لوّل طلِّع الكيس ذا حق المعمّر، وبعدين توّك روّح.»

امتثل عبود للأمر، وصعد بالكيس الذي أحضر فيه المعمّر أدوات تجبير الكسور ووضعها في الغرفة التي عيَّنها له يسلم ثم غادر.

التفت يسلم إلى سعيد: «يا سعيد شل من عندك سوا، لا تخلي مبارك ينتكس قدا خميس.»

بدأ الرجال بحمل مبارك. كان مبارك أثناء نقله يصرخُ من الألم عندما تتحرك قدمه المكسورة، حتى وضعه أصحابه أخيرًا في المكان الذي أشار إليه يسلم.

بدأ المجبر بمباشرة عمله على الفور وأخرج أدواته من كيسه الذي أحضره معه؛ عيدان وجبس وأربطة وشاش، وما يلزم لعملية التجبير. وبمعاونة الحاضرين، استطاع المجبر إكمال عمله وإنجازه وسط صرخات مبارك المؤثرة.

- «الحمد لله غلَّقنا.» هكذا تمتم المجبِّر وهو يتنفس الصعداء، وبدأ يلملم أشياءَه في كيسه الذي جاء به معه، وهو يستعد للمغادرة.

وقبل أن يُغادر، أعطى مبارك بعض النصائح: «ذحين سمع يا مبارك، الله الله في نفسك، إن كانك بغيت بتتباخر بسرعة، تعن بنفسك؛ شرب لبن واجد، وكل أكل زين، صرف على نفسك وقلل الحركة، ولا تقوم من مكانك ألا للضرورة وتكون على حذر، وأنا بعد شهر عادنا باجي بدري عليك. والصلاة صل وانته قاعد وماد رجلك، لا تكلف نفسك فوق طاقتها أبدًا، الدين يسر، ورجلك انتبه تلمِّسها الماء، تيمم بس.»

رد مبارك: «جزاك الله خير يا عم بخيت على النصائح.»

ثم طلب مبارك من يسلم أن يُعطي المُجبّر أجرة عمله، فرفض المجبِّر بشدة قائلاً: «أنا وأهلي العمل ذا نقيه ألا لوجه الله، ما نشل عليه عدي لَه، لك ولكل الخلق لي يُحصل لهم مثل ما حصَّل لك.»

- «يا بختكم يا عم بخيت، بيكون ثواب عملكم عند الله كبير.»

- «الناس لبعضها يا مبارك. هيا يا جماعة، تعقب ألا العافية.»

وهكذا غادر المجبر منزل مبارك، بينما بقي يسلم والعامل خميس وسعيد جار مبارك العزيز.

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب حينها، وقرب وقت آذان المغرب.

نظر مبارك إلى رجله المجبرة الممدودة، وقال بأسى: «ضاعت العصرية، وضاعت الرجل! فضيلة علينا، كُل ما اندرنا من مشكلة وقعنا في غيرها.»

رد عليه سعيد معاتبًا: «انطرِح يا مبارك انطرِح. ذلا شفها مكاتيب، والمكتوب ما منه مهروب.»

وأضاف يسلم: «خلاص يا جماعة توّكم الله معكم، أنا باتمّي على يال مبارك، وانته يا خميس عبر على آل الدار، وقل لهم شو يسلم بيتأخر عند مبارك قليل، لا تشتغبون لَه، وزيدوا العشاء اليوم.»

هزَّ خميس رأسه بالموافقة، ورافق سعيد أثناء خروجهما من منزل مبارك.

الفصل الرابع عشر: طريح الفراش

أذَّن المغرب، فأحضر يسلم وعاء به تراب؛ من أجل أن يتيمم مبارك منه وقت ما شاء، ووضعه بجانبه. وبعد أن تيمم مبارك، صليا المغرب جماعة. ثم أحضر يسلم مصباحًا وأشعله قبل حلول الظلام، وجلس مع صديقه يتناقش معه في قضية الاعتناء به في هذه الفترة العصيبة: «ذحين سمع يا مبارك، كاكيه باتقى في الشهرين لي باتجي ذي؟ فكرت في شي والا شي؟ قُل لي؟»

- «أول الزواج أجِّلوه، لمان اتباخر.»

- «ما ذا الشي معاد فيه كلام، ألا قصدي هومن بيتمي عندك؟ وبيقرِّب لمان تحتك في المدة هيذي؟ هومن يا مبارك؟»

صمت مبارك قليلاً، وبعد تفكير دام برهة قصيرة أجاب: «ماحد ألا عمتي عيشة، بغيت حد يروح لمان القرية حقها ويقول لها باللي حصل، ويقول لها إننا بغيتها تجي على يالي. ما بتقصر له يا يسلم، عمتي عيشة ألا طيبة، وباتجي اكيد.»

- «خلاص أنا بكرة باروح قريتكم وباقول لها، وإن شاء الله تجي بسرعة وتدركك.»

- «ذحين توّك يا يسلم، إن كانك بغيت بتروح توك الله معك، أنا ألا ريض وحدي.»

- «طيب باقوم بعد قليل، كننا شفنا برجع باجيب عشاك، كذ قلت لهم يزيدونه. ألا صدق يا مبارك، وين الباقزقز؟ كننا ما حصلته في رف الضيقة يوم اندرت نجيب الطين حق التيمم؟»

- «ألا أنا بعِّدته يوم كُذ العمال يشتغلون في طرقة الضيقة. شفنا طرحته في طرف الوضيع، أول ما تفتح الوضيع على إيدك اليسار.»

- «خلاص ذحين، أول قبل ما روح الدار شفنا باندر باعَشّي الغنم حقك، وبحلب لك لبن منّهن. ما سمعت المعمر قال شرب لبن واجد لَه؟»

- «توَّك لق لِي قُت عليه، وحلب لي لبن في الطاسة ذيك هَه.» وأشار إلى وعاء معدني نصف كروي، يقبعُ في إحدى نوافذ الغرفة «والعفو منك يا خوي، تعبتك معي.»

- «لا لا لا، ماشي تعب لَه، ما هم يقولون الخو عند خوه، والخصم يعنبوه لَه؟ وإن كان ما نفعتك أنا في الظروف ذي بَطَلِت.»

- «والنعم يا خوي يا يسلم، ما بتقصِّر أبدًا.»

توجّه بعدها يسلم إلى المخزن، فأشعل الباقزقز، ووضع للأغنام علفها وشيرها وماءها، وجلس عندها برهة، ثم تركها تأكل وتشرب على ضوء مصباح الباقزقز الذي قام يسلم برفعه في رفِّ الحظيرة، بينما صعد هو إلى مبارك بالطاسة المعدنية وهي مملوئة باللبن، بعد أن حلبه من إحدى شياهه ثم غادر الى منزله ليُحضر العشاء.

شرب مبارك كُل الحليب الذي أحضره يسلم، وجلس مع نفسه ومع أفكاره، التي ساعدت وحدته في حضورها، وسيطرتها على عقله وكيانه.

لماذا تحدث له كل هذه الأشياء الرهيبة؟ كان قاب قوسين أو أدنى من إعلان الزواج والاستقرار، فإذا بالمصيبة تهجم عليه وتسرق منه فرحته وتفاؤله.

ثم أنصف الأقدار قائلاً لنفسه: «انته لي آذيت نفسك بنفسك، آه سيبك انته يا الساني في شغلة الطرقة والنورة؟! انته اللي تعرفه المَرْبَطَة تعصُبها في قُصْعَك، والثور لي جنبك، والدلو والنَّارَة والبير. كُل واحد يُعرف شغلته، لا ترد اللوم على حد أبدًا. آه بايندر منَّك يوم تاقف قليل لمّان يندر المعلم ربيع ويكمل شغلته؟ كَذَا التِّعرَّاض حقك ذا؟! يالله ذحين، لا الشغل تكمَّل، والعرس بعد شهرين والا زايد، الله أعلم عاده آه بايقع بعدها! استر يا رب.»

وسبح في ذكرياته القديمة، وكل الأمور السيئة التي حدثت له خلال الأسابيع الماضية، وشعر بالخوف فعلاً، فآثر أن يُغمض عينيه وينام لفترة وجيزة. صحا بعدها على صوت يسلم يوقظه لتناول العشاء.

ساعده يسلم على الجلوس، وأخبره أنه سيتعشَّى معه هو أيضًا، فقد طلب من الوالدة تجهيز عشاء اثنين؛ له ولمبارك، وتضعه في صحن واحد كبير.

جلس الاثنان يتناولان عشائهما على ضوء المصباح الخافت، وقد أحس مبارك بالأنس والألفة من جديد؛ لوجود يسلم معه، وماهي إلا لحظات حتى حضر العم عمر أيضًا؛ يطمئن على صحة صهره المُستقبلي.

أحضر العم عمر معه بعض المُكسَّرات من دكَّانه ليتلهَّى بها مبارك في أوقات فراغه. شكره مبارك على ذلك، وقبل أن يُغادر العم عمر مع ابنه، طلب مبارك من يسلم: «سمع يا يسلم، شفنا بغيتك تعبر على محفوظ صاحبي، وتقول لُه باللي حصل لي، وتقول لُه إن كانه ما معه شي شغل، يروح يمسك بدلي عند العم عوض، كذه داهله.»

- «طيب ولا يهمَّك يا مبارك، باروح قداه وباكلِّمه، انته ألا ارتاح ونم، ولعاد تفكِّر في شي أبدًا، ما بايقع ألا الخير إن شاء الله.»

***

غادر العم عمر وابنه يسلم دار مبارك، أما العم عمر فقد عاد إلى المنزل، وأما يسلم فقد ذهب إلى بيت محفوظ، وصرخ مناديًا إياه من الشارع: «محفوظ... يا محفوظ.»

كرر يسلم ندائه على محفوظ بصوته العالي المعتاد، فخاطبته والدة محفوظ: «محفوظ عاده ماحد هو لَه. هومن انته؟»

- «أنا واحد من طرف مبارك، لاكذ جاء قولي له إن ما معه شغل غُدوه، يسرح المزرعة حق العم عوض بدله.»

فسألته الوالدة بفضول: «ليه كنُّه امبارك؟ غير ما بُه شي؟»

- «مبارك دعوا له يا والدة، سقط من فوق مشعبة، وانكسرت رجله.»

- «يوه مسكين يا حافظ عليه! طيب لا كذ جاء محفوظ باقوله.»

- «ألا إن كانه مشغول غدوه حتى يسرح بعده، المهم يظهر على العم عوض ويقول له بلي حصل لمبارك.»

- «طيب باقول له يا ولدي، معاد سيبك، ذلا اليوم شفه تأخر ماني داريه ليه؟ كل يوم ألا يضوي سمح.»

- «غير كذه خزا هو! الدنيا مخازية!»

- «الصبر يا عيالي، وبعد. الدنيا شفها بغت صبر، والآخرة بغت عمل، يالله بحسن الخاتمة.»

- «خلاص يا خالة، شينا باستامن عليش.»

- «خلاص طيِّب يا خير شور. الله معك يا ولدي، نقوله من لا قال هومن هوذا لي جاء؟»

- «قولي له يسلم ود آل عمر هادي.»

- «آه انته ود صاحب الدكان أله؟»

- «أيوا يا خالة، ولد صاحب الدُّكَّان.»

- «آه خلاص سلِّم على أمك جم، قلها شي خالة سلامة عمره أم محفوظ تسلِّم عليش. شفها ألا باتعرفني.»

- «إن شاء الله يصل يا خالة سلامة.»

وهكذا عاد يسلم إلى منزله بعد أن كاد رأسه ينفجر من التفكير والهموم التي هجمت عليه بسقوط صديقه مبارك.

في الصباح استأذن يسلم أباه في الذهاب إلى قرية عمة مبارك؛ لاستدعائها، وقبل أن يذهب، حمل لمبارك قرصًا من خبز الذرة، وذهب إلى بيته؛ يستفسر منه عن عنوان العمة في قريتها: «ألا بقولك يا مبارك، وين دارها عمَّتك ذي؟»

- «باوصفك عليه، أول ما تدخل نخلة من طريق الخط النِّجدي، توَّك سر طوَّالي لمَّان تخلّص المزارع وتظهر الديار، بعدين عِد خمسة ديار على يدَّك اليمين، الدار السادس بتحصله دار ما شاء الله كبير ومنوَّر، وفيه حِيْط حق ليم وبيدان، هونا قُص يمين وبايجيك دارين ما سيبهن، هو الدار الثالث بعدهن.»

أعاد يسلم وصف الدار على مبارك، ليتأكَّد أنَّه قد فهم المكان جيِّدًا، وقبل أن يُغادر، طلب منه مبارك أن يُساعده على الجلوس؛ ليتناول فطوره.

بعد أن جلس مبارك مُستندًا بظهره على الحائط، قال ليسلم: «كيه يا يسلم هت وعاء الروبة حقي، شفه في المطبخ.»

فأحضره يسلم، وبدأ مبارك يفتُّ الخبز ويضيفه إلى الروبة، ثم أضاف إليها قليلاً من الملح والماء. ترك مبارك قليلاً من الروبة في قعر الوعاء ليصنع بها مزيدًا من اللبن الرائب. أثناء تناول مبارك لفطوره طلب من يسلم أن يُطعم الأغنام ويُقدِّم لها الماء، ويحلب اللبن فوق الباقي من اللبن الرائب الموجود في قعر الوعاء؛ ليتكوَّن لبن رائب جديد يستخدمه في الأيام القادمة.

امتثل يسلم لكلام مبارك، ونفَّذ كل ما طلبه منه، ثم غادر متجهًا إلى القرية التي تسكن فيها عمَّة مبارك.

وصل يسلم إلى قرية نخلة بعد أن أوصلته عربة خضار كانت مارة إلى هناك. طلب من صاحب العربة التوقف عندما شاهد البيت المطلي بالجصِّ الأبيض أمامه، كان وصف مبارك دقيقًا، فلم يكن العثور على بيت العمَّة صعبًا، مشى في الطريق الجانبية التي أخبره بها مبارك، فوجد البيت المقصود، لا يفصله عن البيت الأبيض إلا بيتان فقط.

طرق يسلم الباب، فجاءَهُ صوتُ العمة من الداخل: «هومن ذا يقرقع؟»

فرد يسلم: «ألا أنا يسلم، صاحب مبارك.» لقد فضَّل أن يُعرِّف عن نفسه تعريفاً كاملاً؛ حتى لا يلتبس الأمر على العمَّة، فتسأله (يسلم من؟).

وبالفعل، عرفته العمة، وفتحت البابَ بصورةٍ جزئية؛ لتسمحَ لنفسها فهم ما يُريده منها، وتساءلت باستغراب: «كنُّكم ألا هنا يآل سبولة؟!»

- «ذلا شينا جيت مُوصَّى من مبارك.»

- «يُو يُو! ليه ما جاء هو بنفسه؟!»

- «ذلا شِيه سقط من فوق مشعبة حق العمال لي يطرقون داره، وانكسرت رجله، وذحين شيه مسكين معاد يقدر يسير أبدًا.»

- «يووه يا حافظ عليه! آه الفضيلة لي على ود خوي ذي؟!»

- «ذلا يوم ربه يحبه يا عمّة، ما هو الرسول قال: (إذا أحب الله عبدًا ابتلاه) وذحين ود خوش دايم وهو مُبتلى.»

- «صلاة عالنَّبي، مشهور النَّبي! طيب وذحين بغى هواه مني؟»

- «بغاش تجين لا عنده وتقعدين على ياله لمان يتباخر، ماحد لُه، والنَّاس ما بايدومون لُه ألا لانه يوم والا يومين، يمكن يحصل لي يُقعد تحت راسه، ما لا كُذه ألا شهرين، هومن بايرضى؟! ذلا انتي يومش عمَّته، ولا لُه حد ألا انتي.»

- «خلاص طيب، وصَّخَانِي ألا بمبارك ود خوي.»

ثم استدركت قبل أن يُغادر يسلم: «اليوم لوَّل فات شرُّه، وماني غُدوة الصبح بارسِّخ غنمي، وباخلّي حد من الجيران يِذْهَن بهن، وباجي طيب، يا خير شور. وانته اليوم سلّم عليه، وقل له غدوة عمَّتك باتجي قداك، وباتقعد عندك لمان تتباخر.»

- «خلاص طيِّب، جزاش الله خير يا عمّة عيشة، خلاص شينا روَّحت.»

- «بغيتني جيب لك قلاس ماء؟»

- «لا لا، عادنا ألا شربت قبل قليل من السقاية ذي لي في الطريق.»

- «يالله توِّش، قلدي بابش والوعد ألا غدوة، بانساهنش في سبولة.»

- «يالله يا ولدي، توَّك الله معك. وقُل لمبارك، تقول لك عمَّتك ما انته في وعد شر لَه.»

غادر يسلم عائدًا إلى قرية سبولة بعد مشوار العمة، وعندما ذهب بغداء مبارك ذلك اليوم أخبره أن عمّته قد وافقت على الحضور إليه فترة مرضه، وأنها قادمة في صباح الغد.

الفصل الخامس عشر: سند

بدأت العمَّةُ تهيئُ نفسها للذهاب إلى ابن أخيها، فذهبت إلى جيرانها عصر ذلك اليوم. استقبلتها صديقتها وجارتها فَطَم عبودة بالترحاب: «ياحيَّا بعيشة سالميِّة، يا حيَّا.»

- «وبش الانس، ذلا شيني جيت وبغيت باكلِّمش في حاية بغيتها منش.»

- «آه هي ياختي؟ خير إن شاء الله.»

- «ذلا ود خوي سقط من فوق مشعبة، وانكسرت رجله.»

- «يوه يا حافظ! هوذا لي في سبولة؟»

- «أيوا هوذا.»

- «المعرِّس؟ لي عرسه قريب؟»

- «سكتي، مسكين الله ما ذحين خلاص بايؤخرون العرس كمَّه أشهر، لمَّان يتباخر.»

- «يوه مسكين يا حافظ عليه! وذحين باتقِّين آه انتي؟ باتروحين باتزورينه؟»

- «لاه، باروح باقعد عنده، ماحد لُه مسكين، أمه ألا ماتت وأبوه مات. ماحد لُه ألا أني عمته.»

- «آه صح يقول يا من؟! انتي عمَّته، الظفر ما يطلع من اللحم، الله يكون في عونش ياختي.»

- «وذحين شيني جيت عندش بغيتكم تتعنُّون بغنمي وأني ماحد أني، تعطونهن شيرهن وطُعمهن، وتسقونهن، وتيحشون من تحتهن. وتوُّكم استنفعوا بلبنهن، وأني لا كذ جيت، باعطيكم شقاكم وكل ما خسرتوه فيهن.»

- «طيِّب يا خير شور، باخلّي بتّي مدينة تقِّي الحاجة ذي، كذها ألا قاعدة.»

- «خلاص يا فَطَم، وأني لا كذ جيت ما باقصِّر معها ولا معكم أبدًا.»

- «ما يقول شي لَه، الجيران لبعضها. اليوم عندكم، وغدوه عندنا.»

بعدها استأذنت العمة عيشة من صديقتها فطم، وعادت إلى المنزل.

في صباح اليوم التالي جهَّزت العمة ثيابها وأشيائها، وللمرة الأخيرة اهتمَّت بأغنامها. قدَّمت لها الكثير من الماء، وكنست مكانها، قبل أن تغتسل وتلبس حجابها، وتذهب إلى قرية سبولة.

***

استبطأ مبارك قدوم العمة، فقد حان وقت أذان الظهر تقريبًا ولم تأتِ بعد. كان حينها جالسًا لوحده، وقد ضاق ذرعًا بقدمه المكسورة تلك، وتمنى لو أنه كان في مزرعته يُمارس عمله ويكدُّ ويتعب، فهو لم يتعود أبدًا على الجلوس والراحة لفترات طويلة. ولكن ماذا يفعل؟ هذا قضاء وقدر من الله.

كان في هذا الصباح ينتظرُ قدوم العمَّة حسب اتفاقها مع يسلم بالأمس، ولكنَّها لم تأتِ بعد وقد أوشك النهار على الانتصاف. حدَّث مبارك نفسه: «بايقع عمِّتي مسكينة مشغولة، ما علي ألا إننا آقف، خاف ألا تجي بعد قليل.»

لم تطل عليه المدة، بل قطع عليه حبل أفكاره طرقٌ خفيفٌ على الباب، سمعه مبارك، فنادى من مكانه: «لَقْلِيد فوق المَجَر يا المقرقع.»

كان يسلم قد أخبره أنه سيضع المفتاح في مكانه المُعتاد، فيما إذا زاره أحد أو قدمت إليه العمَّة، فلما سمع الطرق على الباب أخبر الطارق بالأمر. بعدها سمع صوتَ فتح الباب، وصُعود أحدهم إلى الدار.

تساءل مبارك من يا تُرى سيكون؟ أهو أحد أصدقاءه جاء يطمئنُ عليه بعد أن علم بأمر سقوطه وكسر رجله، أم هي العمة قد حضرت أخيرًا. كانت عيناه مُسمَّرتان على

مدخل الباب؛ ينتظر دخول الشخص القادم، فإذا بصوت العمّة يأتيه من الدرج قبل أن تصل إليه: «وينكم يآل الدار؟ امبارك، وينك يا ولدي؟»

طار قلبُ مبارك من الفرح، إذن لم تتخلى عنه عمَّته أبدًا، وتركت جميع مشاغلها وأحوالها وجاءت إليه؛ لتقف إلى جواره، وتسنده في محنته. ردَّ عليها بصوت متهدِّج من الفرح: «هنا هنا يا عمّة. في غرفة الوالدة تعالي تعالي أنا هنا شينا. ياحيَّابش.»

دخلت العمّة الغرفة التي أشار عليها مبارك، لتجد ابن أخيها جالسًا، ورجله ممدودة لا يستطيع ثنيها أو تحريكها، فأسرعت إليه باكية من التأثر.

قبَّلها مبارك في يدها ورأسها؛ محاولاً تخفيف أثر الصدمة عليها، وواساها قائلاً: «خلاص يا عمّة عيشة، ألا ابتلاء من الله، والواحد مننا لازم يصبر، إن كانه بغى فضل الصبر. ما سمعتي الله في القرآن آه يقول لَه؟»

قالت العمة وهي مختنقة بعبراتها: «آه يقول يا ولدي؟»

- «ربي يقول في القرآن: (إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب) معناها يا عمّة، إن ربنا يكتب للصابرين أجر عظيم عنده، بعدين في الآخرة يشوفه ويفرح به جم، يشوفه ألا كما الهدية، ماهو هوذا يفرِّح جم يا عمّة لَه؟»

أجابت العمّة وهي تُكفكفُ دموعها: «نعم يفرِّح يا ولدي، الله يعطيك على قدر نيتك وصبرك يا ولدي.»

- «الحمد لله. يا حيابش يا عمّة لوَّل يوم جيتي.»

- «ألا بغيتني خلِّيك لمن؟ ما لك حد ألا عمَّتك. ذحين بغيت شي، والا شي بغيتني قرِّبه لا عندك؟»

- «لا لا، ألا الطين ذاك لي في الخلفة حق التيمم بغيته يقرب قدايه قليل، يومه ذحين وقت ظهر بايذِّن.»

- «وذحين يا ولدي ما تقدر تقوم تسير لَه؟»

- «لَه يا عمّة، قاع الله وعيدانه!»

قالت العمَّة معاتبة وهي تضعُ وعاء التيمم بالقرب من مبارك: «لا تقول هوكذا يا ولدي لَه، الله يشفيك إن شاء الله. وذحين العرس أخرتوه ولا هواه؟»

- «آه خلاص أخرناه، لمَّان نتباخر.»

- «والدار ما شاء الله شفه ألا انقلب ثاني يا مبارك!» قالتها العمة بإعجاب، وهي تتلفَّت وتراقب الجدران البيضاء.

ردَّ مبارك مبتسمًا: «أيوا، ماهم الأوليين يقولون خطط السِّترة، وهي تزين لَه؟»

- «صح كلامك يا ولدي، شف كلامك ألا كله كما حق الأوليين.»

- «ذلا يومنا نحبُّهم يا عمّة، كلامهم كله موزون وفي مكانه.»

بقيا يتحدثان في أمورٍ شتَّى، وحكى لها مبارك كيف سقط من على السلم، وكيف ساعده يسلم في محنته. بعد وقت قصير، أذَّن الظهرُ، فتيمم مبارك وصلى جالسًا بالإيماء، مادًّا رجله اليُمنى أمامه، وذهبت العمَّة إلى المطبخ لتُحضِّر الغداء.

بعد أداء صلاة الظهر في المسجد، جاء يسلم الى بيت صديقه وصاح مناديًا عليه من الشارع: «مبارك، يا مبارك. حد عمَّتك جات والا لا؟»

فرد عليه مبارك بصوت عالٍ ليسمعه: «نعم نعم، جات جزاها الله خير.»

- «خلاص ودَّعتك الله، ألا جيت باطمَّن عليك بس.»

في اليوم التالي -وكان يوم الجمعة- اتفق العم عوض مع عمال المزرعة أن يذهبوا عصرًا لزيارة مبارك في بيته؛ للاطمئنان عليه. وعندما وصلوا إلى الدار، صاح العم عوض من الشارع مناديًا: «مبارك، مبارك، يا مبارك. ذحين حد عندك بايفتح لنا؟ شف نحنا جينا بانزورك أنا وكل عمال المزرعة، كلهم معي شفهم.»

فرد عليه مبارك بصوت مرتفع كي يسمعه: «يا حيَّابك يا عم عوض، انته والعمال لي معك. توَّك شف لقليد فوق المجر، فتحوا وطلعوا. يا حيَّا وسهلا.»

مد أحدُ العمَّال يده إلى فتحة الباب، فوجد المفتاح الخشبي وفتح باب الدار، وكانت العمَّة قد هيأت الغرفة لاستقبال الضيوف، وغادرت هي إلى غرفة أخرى.

صعد العم عوض وعمال مزرعته، وجلسوا عند مبارك فترة من الوقت، يسألونه عن حاله ويُصبِّرونه على مصابه.

قابلهم مبارك بوجهه البشوش، وثغره الباسم، وكأنَّ شيئًا لم يكن. كان كلُّ شيء في المنزل مرتبًا وجميلاً، وترك انطباعًا جيِّدًا لدى الزائرين، وبعد مدَّة استأذنوه وغادروا.

وهكذا توالت الزيارات من الاصدقاء والجيران في الأيام التالية للحادثة، وبعدها سارت الأمورُ سيرًا عاديا، ومرَّت الايامُ ثقيلة بطيئة على مبارك، ولكنَّهُ كان صابرًا مُحتسبًا؛ على أمل الشفاء في القريب العاجل. وقد استمر يسلم يزوره بين الفينة والأخرى يؤانسه في وحدته، ويُخفف عنه وطأة الوحشة والمعاناة.

***

مرَّ شهرٌ على الحادثة، وفي يوم من الأيام، سمعت العمَّةُ في الصباح طرقًا على الباب، ظنته يسلم جاء يطمئن على صحة مبارك كعادته. فنادته: «توّك توّك دخل يا يسلم، شفني بعدت من الطريق.»

لكن العمة سمعت صوت رجل آخر يطلب رؤية مبارك، فأخبرته العمَّة أنَّه سيجد المفتاح في الفتحة الصغيرة بجانب الباب، ففتح ودخل إلى البيت، ثم صعد السلم، ومن هناك نادى: «أي يآل الدار، وينكم؟ أنا المعمِّر، وينك يا مبارك؟ عادك في المحضرة هيذي؟»

تفاجأ مبارك بزيارة المُجبِّر، إذ لم يكن يتوقع أنّه قد مرَّ شهر على الحادثة، بل كان يظنها أكثر من ذلك بكثير، وكان يعتقد أن المجبّر قد نسي أمره! لكنه عندما سمع صوته فرح بقدومه فرحًا عظيمًا وردَّ عليه: «طلع طلع يا عم بخيت، شفنا في هيذي المحضرة، يا حيّابك يا حيّابك.»

جلس المجبِّرُ يُحادث مبارك ويطمئن على صحته، بعدها قام بفك رباط الجبيرة، ولاحظ تماثلَ القدم للشفاء وبصورة سريعة، فبشَّر مبارك بذلك، وأعاد تغطية القدم بشاشٍ جديد؛ لأنَّ السابق كان قد بليَ واتسخ فتخلص منه المجبِّر واستبدله بشاشٍ نظيفٍ ولائق.

ودَّع العم بخيت مبارك وانصرف بعد أن سمح له بالتدرُّب على المشي قليلاً شريطة أن يُساعده أحدٌ على الوقوف، وأعطاه عكازين أحضرهما معه؛ ليسهل عليه التَّنَقُّل بهما في أرجاء المنزل من غُرفة إلى أخرى.

جاءه يسلم في وقت مبكِّر من عصر ذلك اليوم؛ ليطمئنَّ عليه قبل أن يتوجَّه إلى الدكان، فأخبره مبارك بما قال المُجبِّر: «نقولك يا يسلم، اليوم جاء عم بخيت المعمِّر، وقال لي شف الرجل سبَّرت تتباخر، وقال لي لازم نمشي عليها؛ منشان نحرِّك الدم قليل.»

- «الحمد لله. وذحين كذ قمت تدحق قليل قليل والا عادك؟»

- «لا لا عادنا، لكن ما دامك جيت، كيه بغيتك تعاونا نوخذ لي لفَّة في الدار قليل.»

- «ولا يهمَّك يا مبارك، هيَّا هت يدَّك.»

مدَّ مبارك يده لصديقه، ليعينه على الوقوف. وضع مبارك كامل ثقله على قدمه اليسرى، وبحركات حذره، بدأ يخطو على رجله اليمنى مُعتمدًا على عكَّاز في يده اليمنى، ويسلم يسنده إلى يساره.

تهللت أسارير مبارك وهو يمشي بضع خطوات في أرجاء الغرفة، فلأول مرة منذ سقوطه يطأ الأرض بقدمه المصابة. مشى بخطوات بطيئة غير متزنة حتى وصل إلى الممر الذي يفصل الغرف، ثم طلب من يسلم أن يعودا مرَّة أخرى إلى مكانه.

عاد مبارك إلى فراشه ثانية ببطء وحذر، وخاطب يسلم: «والله ماشي كما العافية يا يسلم، شفنا ذحين مشيت دحقتين بس في الدار وكذنا نلهف! أوَّل كنت نمشي يوم كامل ونشوف نفسي ريِّض.»

- «ألا حق القعدة يا مبارك، لكن على قليل قليل. العافية ألا دَبِي ذَرَّة شفها كما ما يقولون.»

- «صح كلامك والله. ذحين شفنا لغبت، باتعقَّب قليل.»

- «توَّك توَّك، وأنا شفنا باروِّح. بالحق الشيبة في الدكَّان.»

- «الله معك يا يسلم.»

بعد أن خرج يسلم، أخذ مبارك غفوة قصيرة؛ ليرتاح من المجهود الذي بذله، فرغمَّ أن تلك الجولة كانت بسيطة جدًا، ألا أنها كانت مجهدة له؛ كونها جاءت بعد فترة خمولٍ طويلة.

بعد فترة قصيرة من إغماض مبارك لعينيه، أحس بأحدٍ يُداعب باطن رجله اليُمنى المُصابة، فتمتم وهو لا يزال مغمضًا عينيه: «كنَّك يا يسلم ما رحت الدكَّان لَه؟!»

لم يُجبه أحدٌ، واستمرَّت رجله وكأن أحدًا يُدغدغها!

صاح مبارك وهو يحاول إبعاد رجله المصابة جانبًا: «قلع الصَّفاط حقَّك ذا يا يسلم، ما صدَّقت إن رجلي تتباخر، ذحين بغيتها تقض علي والا هواه؟!»

لم يتوقَّف الشخص الذي كان موجودًا عند قدمي مبارك عن الدغدغة حينها، فغضب مبارك وفتح عينيه وانتفض جالسًا وهو يصيح بحنق: «وبعدين؟! ذحين ما تسمع انته لَه؟!»

ذُهل مبارك عندما وجد شاته تحكُّ رأسها بباطن قدمه اليُمنى! تلفَّت حوله ليجد نفسه في حوش منزله الصغير، فتساءل: «ذحين آه جابنا لا هنا ؟!»

فكَّر مبارك وهو يفركُ عينيه من أثر الغفوة: «ذحين آه اندربك يا مبارك من غرفة المرحومة؟! كنك ألا كذك في حوش الغنم؟! آه اللي وصّلك لا هنا؟!»

كان الظلام قد بدأ يلفُّ المكان، ونور النهار ينازع في لحظاته الأخيرة. لمح مبارك حملان حديثا الولادة، خلف الشاة التي كانت عند قدميه، كانا لا يزالان يترنَّحان في محاولات منهما للوقوف على أقدامهما الصغيرة.

فرك مبارك عينيه بشدَّة ثانية، ثم تحسس قدميه، لقد كانتا سليمتين تمامًا! ولا أثر للجبيرة على الإطلاق. لقد كان كابوسًا مزعجًا عاشه مبارك في الفترة التي غفاها وهو يراقب شاته التي كانت على وشك الولادة.

قفز قلب مبارك في صدره من الفرح، وتحسس قدميه ثانية وثالثة، لا شيء على الإطلاق، إنه سليمٌ ومعافى تمامًا. لقد عاش كابوسًا مُزعجًا في الساعة الماضية، وقد وضعت له حدَّاً شاته الحبيبة، عندما أيقظته من نومه وكابوسه المُزعج، ومن شدة فرحه ونشوته، جلس يُحدِّثها: «ولدتي يالصمصومة؟! ما شاء الله! ما شاء الله!»

ومسح بيده على رأسها ورقبتها، فاستجابت لمداعبته وردَّت بثغاء خافت، ثم أدارت رأسها ناحية ولديها؛ تُريهما إياه.

فهم مبارك ما أرادت قوله، فردَّ عليها: «نعم ما شاء الله، جيبتي لنا اثنين شِكَالِة.»

فمدَّت الشاة رأسها ورقبتها إلى الأعلى ورددت ثغاء أقوى من الأول، فخاطبها مبارك ضاحكًا: «تِتْقَعْمَرِين ذحين يوم ولدتي لَه؟! توِّش توِّش تقعمري، وأنا ألا شينا فرحان بالتقعمار حقِّش ذا.»

جلس مبارك في الحوش يفكّر فيما جرى له، وهو لا يزال يظن أنه في حلم، وبين فينة وأخرى يتلمَّسُ قدميه ويفركُ عينيه؛ ليتأكد أنه في حالة من الوعي، وليس نائمًا! سبحان الله، كُلُّ تلك الأحداث؛ السقوط من على السلَّم، وتلك الآلام البغيضة، والمُجبِّر، والأصحاب، ويسلم، والعم عوض، وزملائه في المزرعة، والعمة عيشة، وما عاشه سلفًا، كُلُّ ذلك كان مجرَّد كابوس مزعج؟! حمد الله على ذلك، واستعدَّ لأداء صلاة المغرب، فقد حان وقتها. عرف ذلك من حلول الظلام في المكان.

***

بعد مرور يومين، جاء المعلم ربيع مع عامليه؛ لإكمال العمل في بيت مبارك.

بعد أن فتح لهم مبارك باب بيته، خاطبه المعلم ربيع معتذرًا: «العفو منك يا مبارك، قبل يومين خالي توفِّي، ولعاد قدرنا نكمِّل الشغل.»

- «ما يقول شي يا معلم ربيع، وعظَّم الله أجرك في خالك.»

- «الحمد لله. شفنا ذاك اليوم وصِّيت صهري بو صالح يجي يقولَّك، بس قال جاء وطرَّب عليك ولاحد كلمه. رجع قال للعمال حقي بس.»

- «ألا كنت عند الغنم في الحوش، وما سمعته.»

- «كله خير، يالله يا مبارك بغينا بانكمل الشغل العصرية ذي إن شاء الله.»

ثم جال ربيع ببصره على جدار البيت الخارجي مخاطبًا مبارك: «عاد السّترة بغت نص ساعة على ما نقرشها. كيه دخل يا مبارك نزِّل المشعبة وخل نحنا نسبِّر.»

جفل مبارك وقطَّب حاجباه عندما ذكر ربيع السُّلّم، وتراجع إلى الوراء وهو يصرخ بصوت عالٍ: «لا لا لا! ما بانزل شي مشعبة لَه! خل حد من حقَّك العمال يجيبونها. شُف..شُفها مزقولة في الوضيع داخل!»

تفاجأ المعلم ربيع من ردَّة فعل مبارك: «كنّك يا مبارك؟! قُل لا إله إلا الله! طيب طيب، دخل يا خميس هت المشعبة من الوضيع، وانته يا عبود جهز النورة.»

اكتفى مبارك بمشاهدتهم يعملون طوال الوقت، ولم يتدخل في أي من شؤونهم على الإطلاق، ومع نهاية عصر ذلك اليوم أتمَّ المعلم ربيع العمل، وصار بيتُ مبارك جاهزًا لاستقبال الأفراح.

الفصل السادس عشر: اللمسات الأخيرة

كان موعد الزواج قد تحدد سلفًا، وبدأت الأسرتان تدعوان الأصدقاء والأقارب والجيران لحضور الزَّواج، كل أسرة تدعو أقاربها وأحبائها وجيرانها.

كان يوم الأربعاء هو يوم الدِّهِيْنِة، والغُسَّة والحَرَاوَة حُدد لها يوم الخميس، أمَّا يوم الجمعة فكان خاتمة المطاف هو يوم الصُّبْحَة، حيث أنَّ مراسم الزواج تستمر لثلاثة أيام حسب العادات والتقاليد المتبعة في حضرموت قديمًا.

تعاون الأصدقاء في فرش بيت مبارك وترتيبه قبل ثلاثة أيام فقط من بدء مراسيم الزواج، فقد حضر إليه يسلم وصديقه محفوظ وجاره سعيد. ناداه يسلم، وكان حينها في الشارع: «مبارك، يا مبارك. نزل الماعون من الوضيع. لمّان متاه وانته في الشارع؟! خل شغلة الشارع بعدين، ودخل هنا لوّل.»

- «طيب طيب يا يسلم، ذانا دخلت.»

كان الأصدقاء الثلاثة قد حضروا لمعاونة مبارك في ترتيب داره، وكانوا متجمّعين حينها إلى جوار المخزن، فلما حضر إليهم مبارك فتح لهم باب المخزن، بدأوا يتعاونون معه في نقل الماعون إلى الطابق الثاني.

- «ذحين كن ذا الماعون لي معي ألا ثقيل؟ آه في أبوه ذا؟!» قال ذلك محفوظ متذمِّرًا، وجسمه النحيل يتهادى من ثقل ما يحمل.

أجابه مبارك: «فيه صحاف وفناجين وبرم، شفه هوذا حق المطبخ. رح به المطبخ طوالي يا محفوظ. وذهن لا تصكصكه الستر. شفه فيه كَسِر ذهن.»

ثم التفت مبارك إلى سعيد وقال: «وانت توك يا سعيد، الماعون ذا طرحه في المرواح حقي. شفها ألا كلها أشياء حق المرواح، خليتها ألا وحدها. كنّها عاد الصناديق المنقّشة، وينها؟»

رد عليه سعيد: «مندري، بايقع تحت في الوضيع. وأنا وش قدّرنا طلعها كلها مرة وحدة؟ اندر انته هتها.»

- «طيب بس. وانته يا يسلم، لي معك الفُرُش توّك لمّان المحضرة الكبيرة، عرفتها؟»

- «أيوه كيه ما أعرفها؟ ذلا خَارَي يا مبارك! كنّك ذحّين؟ آه أنا غريب منشان تقولّي هوذا الكلام؟»

- «خلاص خلاص توّكم، أنا لا كذ أصّلت لي معي عادنا باندر باجيب الصناديق لي في الوضيع.»

كانت نسوة من عائلة سعيد قد حضرن إلى دار مبارك قبل هذا اليوم، وقمن بتنظيفه وإزالة آثار النورة التي خلفها العمال بعد رش الدار، والتخلص من كل ما في الأرض من مكانس وعلب صفيح وحبال وغيرها من الاشياء الصغيرة. أما الأشياء الكبيرة كالبراميل والسلالم، فكان مبارك قد نقلها سابقًا إلى مخزن المنزل.

كان الدار مُعدَّاً تمامًا لفرشه وترتيب أوانيه الجديدة، وبعد أن وضع الاصدقاء الماعون الذي يحملونه، كلٌ في المكان الذي خصصه لهم مبارك، فقد وضع علامات معينة في الاكياس المغلقة؛ تدل على أماكنها. بعدها دعاهم مبارك للبدء بفرش غرفته أولاً وترتيبها. كان الأثاث في مجمله بسيطًا، بساطة الحياة الريفية القديمة.

بدأ الأصدقاء بفرش أرضية غرفة مبارك بحصيرين جديدين، وفي زاوية من الغرفة وَضع مبارك أحد الصناديق التي أحضرها من المستودع، وفي زاوية أخرى وَضع الصندوق الاخر، ثم فَكَّ رباط بقية الأثاث.

أخرج يسلم فراش النوم -وهو من القطن الخالص- ووسادتين جديدتين، وطوى الفراش ووضع فوقه الوسادتين، وغطى الجميع بملاءة جميلة، وكذا فعل محفوظ الذي قام بترتيب بعض أثاث الغرفة؛ حيث وضع أدوات النظافة في مكان قريب من خلف الباب، وعلق سعيد سفرةَ الطعام في مكانها، وكذا حصيرًا صغيرًا من الخوص كان يُفرش عندما يهم الشخص بالصلاة.

رص مبارك بعدها سجَّادتين من الغزل فوق بعضهما بالقرب من الجدار المقابل لفراش النوم، ثم فتح كيسًا آخر أخرج منه ثيابًا جديدة له، ووضعها في أحد الصندوقين الموجودين في إحدى زوايا الغرفة، وفي الآخر وضع أشياء أخرى كوسائل التجميل الخاصة به؛ مثل المرآة والمشط والعطر وأمواس الحلاقة والمقصات وغيرها من هذه الأشياء الضرورية الصغيرة. أخيرًا لملم الأصدقاء الأكياس الخالية، وغادروا الغرفة.

لم يستغرق تجهيز غرفة مبارك إلا فترة بسيطة من الوقت، أعطى مبارك بعدها أوامره للأصدقاء للتفرّق إلى الأماكن المتبقّية كلها في وقت واحد؛ لأن الماعون فيها سيكون محدودًا جدًا، فقال: «توّك انته يا سعيد رح المطبخ ورتّبه، باتحصّل ماعونه كذه فيه مربّط. فك التربيط وطرح الأشياء في أماكنها.»

- «وأنا وش عرفّنا بشغلات الحريم ذي؟!»

- «ما تحتاج عرف لَه، طرح الصحون الجديدة فوق القديمة، والصفاري والكِعَد والبرم رصهن في رفوف المطبخ، والمسارف الجديدة فوق المسرفة القديمة لي باتحصلها معلّقة، والدَّن الجديد طرحه فوق الخَزْبِة، وتوّك بُصرك بالباقي، والدَّافُور طرح أبوه هونا جنب المصخن.»

ثم التفت مبارك إلى يسلم مخاطبًا: «وانته يا يسلم رح قدا غرفة المرحومة، باتحصّل مُكْلِة فيها، فرشها وطرح مراوح اليد في الأخلاف، وزّعهن لا تخلّيهن مركومات في بُقعة وحده لَه. أما القُطُف لا تفرشهن من ذحّين لَه، خلهن وهن مطويات في ركن من الأركان، وطرح التّكاي في ركن ثاني، طرح أبوهن فوق بعضهن، وإن عاد شي مانا داري بُه، توّك تصرّف فيه.»

رد يسلم: «طيب يا خير شور.»

ثم وجه مبارك خطابه إلى محفوظ: «وانته يا محفوظ توّك لمّان المحضرة الكبيرة، طربق أبوها بالمُكْلِة، والقُطُف طرح أبوهن رصَّة فوق بعضهن البعض في جنب من جوانب المحضرة، والمراوح وزعهن على الخلف. وباتحصّل سليمود، طرح أبوه في نص المحضرة ورُصْ فوقه التِّكَاي.»

- «ما شاء الله عليك يا مبارك، تعرف تطرح كل شي في مكانه، وداري فيين باينطرح. ما شاء الله، ما شاء الله!»

الجميع توجّه إلى حيث أمره مبارك ينفِّذ الأوامر بالحرف الواحد، وفي وقت قياسي واحد، أنجز العمل، وأصبح الدار جاهزًا تمامًا لاستقبال الضيوف.

***

جاء يوم الأربعاء الموعود، وكان بيت مبارك حينها في أبهى حلة، يشع بياضًا ورائحة البخور تنبعث من زواياه؛ لتنشرَ في الأجواء البهجة والسرور.

كان مبارك قد أحضر عمته الوحيدة من قريتها؛ لتكون في البيت وتقوم مقام أمه في استقبال الضُّيوف واستقبال أهل العروس في (ليلة الماعون) التي تسبق الزَّواج بيوم أو يومين، وقد قامت العمة عيشة بتعديل ما يحتاج إلى تعديل من أثاث البيت.

وفي عصر يوم الأربعاء كانت النسوة في بيت العروسة قد أعلنت بداية الأفراح عندهم بـ(القَضْبَة). وفي مساء نفس اليوم وبعد صلاة العشاء، توافد المهنِّئين من الرجال إلى فناء دار مبارك، حيث ستقام سهرة الدهينة.

كان فناء مبارك يعج بالحركة، وأضواء (التِّرِيْكَات) موزَّعةٌ على المكان بصورة مدروسة، وهناك العديد من الرِّجال تغدو وتروح في ساحة الدار.

كان العم عوض من أوائل الحاضرين، ولمَّا رأى مبارك خاطبه قائلاً: «معونة معونة يا معرِّس. تعال هنا معاد حد شافك، وينك؟»

- «يا حيَّا بالعم عوض يا حيَّابك. والله يا عم عوض كذك داري، مشدوهين في شغلة العرس، معاد قُع لي حتَّى أغمز عليكم قليل. عسى بقعا كلها ريِّضه، ماهو جاء محفوظ بديلي لَهْ؟ شفنا وصِّيته ووافق.»

- «نعم جاء وبقعا ألا ريِّضه يا ولدي لا تحمل هم لَهْ. ذلا شفنا نصفط معك، وذحين خذ الظرف ذا معونة العرس. وشفت الجحلة الصَّغيرة ذيك اللي فوق التُّكَّة؟

شفنا بغيتها لكم هديّة العرس. شفها فيها تمر مديني إيش على تمر يقضقض! دخّلها داخل لوّل وطرحها في المِيْسَمِة، شفها تستاهل لرمضان.»

- «جزاك الله خير يا عم عوض. وذحين تفضَّل قعد، شف الخلق سبَّروا يجون.»

- «أكيد بقعد! كيه عرس ولدنا، وعادنا بزفن عادنا!»

أجابه مبارك مبتسمًا: «الله يحفظك يا عم عوض. تفضل تفضل.»

توجَّه العم عوض إلى حيث يتجمَّع الرِّجال، وأدخل مبارك جحلة التَّمر إلى المخزن وأغلق بابه. وعندما خرج من المخزن قابله المعلم حسن وعمَّاله، فقد جاءوا لحضور مراسيم الدهينة.

حيَّاه المعلّم قائلاً: «ما شاء الله، ما شاء الله يا مبارك! مباركين. معونة معونة.» وناولَه ظرفًا (طَرِح) اشترك فيه المعلم حسن وجميع عمَّاله.

تناول مبارك الظرف من المعلم حسن وهو يرحِّب به وبفرقته: «يا حيَّا بالمعلّم حسن، يا حيَّابكم كلكم. الله يبارك فيكم يا أخواني، تفضَّلوا تفضَّلوا.»

وتتابع الجميعُ في تقديم التَّهاني. حضر كل رجال الأهل والأصحاب والجيران مهنئين مبارك بزواجه الميمون، ومقدِّمين معوناتهم الماليَّة، وكان مبارك يقابلهم بحفاوة بالغة. وهنا تفاجأ مبارك بمناداة يسلم له: «مبارك، مبارك تعال هنا.»

- «مرررحبا!!! يا حيَّا بالصاحب العزيز، كنَّك ألا جيت هنا؟! ما باتجي بعدين قفا أهلك لَهْ؟»

- «أنا ألا ذحين من آل المعرِّس مانا من آل العروس. يكفي أبوي بايجي مع الجماعة بعدين.»

من المعروف أن من عادة الأعراس في حضرموت في ليلة الدهينة أن يزور جماعة من أهل العروس أهل العريس لفترة بسيطة أثناء الدهينة، أمَّا يسلم فقد حضر مبكِّرًا باعتباره صديق مبارك الحميم.

- «طيب تعال ذحين بنقعد هناك في المكان حقّي. شفنا بغيتك جنبي وبازفن ألا أنا ويّاك مادامك جيت.»

- «ما بيقولون الخلق خو العروس وقاعد عند آل المعرّس لَهْ يوم بيشوفونّا نزفن معك؟»

- «خلهم يقولون اللي بايقولونه. كذهم داريين بالصحوبية اللي بيننا من زمان، من وعاد نحنا الاسقل نلعب في الشَّارع.»

- «خلاص طيب هيّا دخلنا، شف عم عوض هناك هَه يأشّر علينا بغى نحنا ندخل.»

- «يالله دخلنا على بركة الله.»

قالا هذا ودخلا إلى حيث الفرش المُخصص لجلوس العريس، وجلسا جنب بعضهما البعض.

كان مبارك حينها يحادث هذا وذاك، ويتلقّى ظروف الطروحات وتهاني المهنّئين، ويعطي أوامره إذا رأى أي خلل يحدث في الفناء؛ إذ كان يشير إلى أحد الأصدقاء ليأتي إليه، فيهمس في أذنه بالخلل؛ لمعالجته.

كان مبارك حينها يلبس ثيابًا جديدة، وقد تهيَّأ وتجمل ليبدو في أجمل صورة، كيف لا وهو العريس! وكان الحضورُ منتظمين في صفوف الواحد تلو الآخر في جميع الاتجاهات، تاركين فسحة (المَدَارَة) مربعة في الوسط للراقصين يؤدون عليها رقصاتهم الجميلة. حتّى يسلم بدوره استعد وتجمَّل بأجمل ثيابه قبل مجيئه إلى الدهينة.

وانقضت ساعة من الزَّمن قبل أن يحضر وفد آل العروس للزيارة. وحين حضروا زغردت النِّساء لحضورهم، فدخلوا إلى المكان المخصص لهم، وصافحوا العريس مهنئين، وفي مقدمتهم العم عمر والد صفية.

لما رأى العم عمر ابنه يجلس إلى جوار مبارك قال له بعد أن هنَّأ مبارك: «كنك ألا هنا يا يسلم ونحنا ندوِّر لك؟! وتَرَك الا هنا عند صاحبك؟!»

- «يابه كذك داري ما اقدر خلِّي صاحبي وحده، ذحين قعدوا قعدوا يا حيَّابكم يا حيَّابكم.»

رد العم عمر على ابنه ضاحكًا: «ذحين انته منِّنا والا منِّهم؟!»

ابتسم بعض الموجودين من كلام العم عمر، وهمس يسلم لأبيه بعد أن شعر ببعض الإحراج من حديثه: «خلاص يابه الله يهديك يكفي، قعد وانته ساكت.»

جلس العم عمر مع وفده لدقائق معدودات عزفت فيها الفرقة بعض النشائد، ورقص بعض الرِّجال من قوم العريس، وبعدها غادرت جماعة أهل العروس إلى حال سبيلهم حسب العادة، وبقي يسلم إلى جوار صديقه.

مضت ساعة أخرى قبل أن يحين موعد مبارك في الرَّقص، فقام إلى المدارة وقام معه يسلم يرقصان معًا، ثم دخل أيضًا اثنان من الأصدقاء وهما المعلم حسن وسعيد جاره العزيز.

كانت نساء الجيران قد حضرن إلى دار العريس مهنئات العمة عيشة بزواج ابن أخيها، ولكي يزغردن للراقصين من الرِّجال في الدهينة؛ إحياءً للعادات والتقاليد. ولمَّا قام مبارك يرقص رأته النسوة فانطلقت عاصفة قوية من الزغاريد من حناجرهن الجميلة، لأن الراقص هنا هو العريس وليس شخصًا عاديًا.

وهنا انخرطت العمة في بكاء كان له نشيجٌ مسموع. لاحظ ذلك بعضُ النسوة، فجئن إليها يواسينها ويُهنِّئنها في نفس الوقت؛ لأن المناسبة الآن تستدعي الفرح لا الحزن. فأخبرتهن أنها تذكرت أمه المرحومة، وتمنت لو أنها كانت على قيد الحياة لكانت فرحتها لا توصف ابدًا وهي تشاهد ابنها في أيام عرسه.

حينها جاءت إحدى النساء إليها بعد استفسرت عن اسمها من جارتها وقالت: «عمّة عيشة كنش؟! اليوم ألَّا يوم فرح، ليه تنكِّدين على نفسش؟»

- «أني ألا فرحانة يا بتِّي، بس تفطَّنت المرحومة أم مبارك، لانْها بيننا باتِكمَل فرحتنا.»

- «الحمد لله يا عمّة إللي راح راح، انتي ذحين ألا فرحي، كيه تعالي شوفي ود خوش مبارك هَه ما شاء الله عليه يعرف يزفن.»

وانطلقت حنجرتها وحناجر بقية النسوة بالزغاريد حتى يدخلن البهجة والسرور على قلب مبارك وقلوب جميع الرجال الحاضرين. ومن بهجة الحاضرين وفرحتهم بزغاريد النساء، انبرى أحد الرجال يقلّد الزغاريد بصوته؛ ليضحك الحاضرين، فيبتسمون لصوته البشع وتنتشر البهجة.

الفصل السابع عشر: ليلة العمر

في اليوم الثَّاني للزواج لم يدعُ مبارك كثيرًا من النَّاس؛ لأنَّه ليس له أقارب في هذه القرية من جهة، ومن جهة أخرى بسبب ظروفه المادية الصَّعبة، فاقتصرت دعوة غداء الغسة عنده على بعض الأصدقاءِ وأفرادٍ من الجيران. لم تكلفه تلك الوليمة إلا جديًا واحدًا، كان لحمه كافٍ تمامًا لعدد المدعوِّين، الذين كان مُعظمهم من الرِّجال.

بعد تناول الغداء وشرب الشاي حان وقت الحناء، فخرج جميع المدعوِّين من الرِّجال إلى الفناء؛ لإقامة رقصة الحناء المعتادة.

كان الفناء مفروشا ومعدَّاً بصورة جيِّدة، وفراش العريس منصوبًا ينتظر قدومه، وكان جاره سعيد قد استلم للتو وعاء الحناء من العمة عيشة ويبحث عن مبارك، إذ لم يكن موجودًا في الفناء حينها، فسأل الموجودين عنه: «وين مبارك يا جماعة؟ حد شافه؟ قولوا لي وين غاص المعرِّس ذا؟ الظاهر أنَّه يتشيرد من الحنّاء والا هواه؟»

ردَّ عليه أحد الرجال الموجودين بنبرة تهكُّمية: «شفنا شفته يدخل الدار قبل قليل، صبروا قليل بايندر ذحين، قال يتشيرد من الحناء، ليه بايقتله هو؟!»

ورد عليه آخر وقد لمح مبارك لتوِّه يخرج إلى الفناء متجهًا إليهم: «شوه اندر هَه.»

وهنا صاح الجميع بنبرة واحدة: (وُلَّك هُك وُلَّك هُك وُلَّك هُك)؛ تعبيرًا عن فرحتهم بقدوم العريس.

جرَّه صديقه محفوظ من يديه بعد أن كان يهمُّ بالذهاب لتفقُّد الفناء الخلفي، وأجلسه غصبًا عنه في المكان المعد للحناء قائلاً: «قعد يا معرِّس قعد، لمّان متاه تتشيرد مننا، هيا هيا عصر بايذّن وانته ما حنِّيت عادك.»

انتظم الجمع المنتظر هناك على شكل دائرة، جاعلين العريس في مركزها. وعلى دقَّات الطبول بدأوا بالتصفيق والغناء الخاص بهذه العادة منشدين بشكل جماعي بعد أن

انقسموا إلى فريقين؛ أولهما يبدأ الغناء بقول شطرٍ ليرد عليه الفريق الآخر بالشطر الثَّاني مترنمين:

حَنُّوا لَه غَلَب مَا يحنِّي	حَـــنُّــوا لَه
حَنُّوا لهُ صَــغَيِّر فَنِّي	حَـــنُّــوا لَه

واستمروا عدة مرات يقولون هذا البيت. كان جاره سعيد حينها قد أخذ بعضًا من الحناء ووضعها على رجلي العريس وبدأ يدعكهما؛ حتَّى تأخذُ رجلاه اللون الأحمر بسرعة، واستمرَّ الجميع في الغناء وقد غيَّروا الأبيات قائلين:

يَا وَرَق حِنَّاء يَا مَلِيح	مِن بَغى الحِنَّـاء يِسْتِرِيحْ

وكرروا البيت عدة مرات بصورة جماعية أيضًا وهُم يُصفِّقون، وتعالت أصوات زغاريد النساء من نوافذ منزل مبارك والمنازل المجاورة أيضًا، ثم عاد الرجال إلى الأبيات الأولى على نفس النمط فترة من الزمن، ثم انتقلوا إلى أبيات أخرى منها:

ألا يَا طِيْر يَا لَخْضَــــــر	وين مَمْسَـــاك اللّيْلِة
أنَا مَمْسَـــاي عِنْدَ أهْلِي	وانْتِه مَمْسَاك فِي السِّيْلِة

كرَّروها بشكل جماعي في جوٍّ مشحون بالحماسة والسعادة.

استمرَّت حفلة الحنّاء البسيطة هذه حوالي ربع ساعة، بعدها انتهى الرِّجال من الغناء، وأخذ سعيد -بعد أن سكت الجميع- منشفة ومررها على رجلي مبارك، يمسح بها الحنّاء الذي لم يجف بعد من رجلي العريس، ولكن الرجلين كانتا قد احمرَّتا قليلاً وهذا هو المطلوب.

قال سعيد وهو يمازح مبارك: «خلاص يا معرس حنِّينا لك، ما ذحين شفك باتعترف إنك المعرس من رجيلك الحمراء! عسى البلاغ عسى البلاغ.»

قام بعدها مبارك ودخل إلى منزله؛ ليتم تزيينه استعدادًا لانطلاق الحراوة إلى بيت العروسة وعقد القران هناك. في هذه الأثناء كان يسلم -سَيِّر العريس وأخو العروسة-

قد وصل للتو، فخاطبه سعيد: «وينك يا يسلم فاتك الحنّاء، خلاص غلقنا تأخرت ياخي.»

- «ما يقول شي. فيين المعرّس ذحين؟»

- «ذحيين عاده ألا طلع الفَالِق حقّه، طلع طلع عنده ناوسه.»

لم يرد يسلم على سعيد بل دخل البيت وبدأ يقرع باب الغرفة في الطابق الثَّاني. فجاءه صوت مبارك متسائلاً: «هومن هوذا؟»

- «أنا يسلم. فتح يا مبارك فتح.»

سارع مبارك لفتح الباب، وجلس الاثنان يتحادثان قليلاً.

في هذه الأثناء أذَّن العصر، فصلَّيا معًا جماعة ثم استعدَّا للحراوة، وكان يسلم خلالها يعلم صديقه كيف يتصرف في أثناء سير الحراوة وأثناء العقد، وكانا يخوضان في مواضيع شتَّى؛ لتمضية الوقت، حتَّى يحين موعد الحراوة. علمه كيف يتصرَّف عند الدخول بصفية، وما هي الخطوات التي يجب أن يتبعها مع المُزيِّنة، فكان مبارك ينصت إليه بأدب وكأنَّه معلم يعلِّمه درسًا مهمًا في الحياة.

في أثناء ذلك حضر المُزيِّن الذي بدأ يُهذِّب شعر مبارك ويُجمِّله؛ استعدادًا للخروج للحراوة، ولمّا أكمل عمله استأذن وخرج. بعدها جلس مبارك ويسلم يتحدَّثان قليلاً، حتّى طَرق باب الغرفة أحد الأولاد؛ يعلِمهما أن الفرقة المرافقة للحراوة قد جاءت.

همَّ مبارك حينها أن يفتح الباب، فمنعه يسلم قائلاً: «لا تفتح يا مبارك لَهْ، خل لهم حالهم.»

- «شفهم قالوا الفرقة جات، ما سمعت الزّقر لي وصُّوه لَهْ؟»

- «وانته آه بغيت منها تجي والا تقعد! هم يعرفون شغلهم انته الا المعرّس، قعد قعد لمّان يتلاوفون النَّاس ويجي وقت سير الحراوة باننزل.»

بدأت الفرقة بدق الطبول، وبدأ الرِّجال يتوافدون ويجلسون منتظرين موعد التحرُّك إلى بيت العم عمر بعد انضمام العريس وسيِّره إليهم. ولأنَّ بيت العروس كان قريبًا منهم آثر الرِّجال عدم التحرُّك إلا عند انتصاف العصريَّة؛ حتَّى لا تنقضي المراسيم بسرعة على غير عادة أهل البلاد، لذا طوَّلت الفرقة في الانشاد قليلاً، بينما يسلم ومبارك يجهِّزان نفسيهما للحراوة.

لبس يسلم ثيابًا جديدة كان قد أحضرها مسبقًا إلى غرفة مبارك، وكذا فعل مبارك بعد أن اغتسل. وبعد أن أكملا زينتهما وتعطَّرا سمعا طرقًا آخر على الباب، وصوت امرأة يأتي من ورائه: «مبارك، مبارك فتح يا ولدي.»

أجابها مبارك: «نعم يا عمّتي خير إن شاء الله.»

- «فتح يا ولدي، بغيت باشوفك قبل ما تروِّح عند آل عمَّك، شفهم قالوا بايتحرّكون.»

وهنا كان على يسلم أن يغادر ويسمح للعمة برؤية ابن أخيها وتفقُّده قبل خروجه للنَّاس.

بعد خروج يسلم من الغرفة دخلت العمة عيشة، فوجدت ابن أخيها العريس في أحسن هيئة ولبس، فغلبتها عبراتها ودموعها، دموع الفرح بطبيعة الحال، فخاطبت مبارك: «ما شاء الله يا ولدي ما شاء الله! الله يوفقك ويبارك فيك.»

تناول مبارك يد عمّته يُقبِّلها، وقبَّل رأسها أيضًا، ثم غادر هو الآخر إلى الشَّارع حيث ينتظره الجميع.

وما إن نزل إليهم العريس حتَّى اصطف الجميع استعدادًا لتحرك الحراوة إلى بيت أهل العروسة، تتقدَّمهم الفرقة المنشدة التي بدأت في دق الطبول. وبدأ الموكب في المسير.

كان العريس مبارك وبجانبه صديقه يسلم في منتصف الجمع المتحرِّك، العريس معروف بسيِّره يسلم والرجل الذي يحمل في يديه مروحة فاخرة على عادة النَّاس في

الحراوات يروِّح بها على وجه العريس؛ ليبعد عنه العرق الناجم عن الزحام، وللدلالة أيضًا على مكان وجود العريس في الجمع.

استمرت الطبول في المسير إلى أن وصلوا بيت العم عمر الذي لم يكن بعيدًا أبدًا، ولكنّهم أطالوا الطريق بعد أن أتوا دار العروسة من طريق آخر طويل.

بعد وصولهم دار العروسة، انطلقت حناجر نساء أهل العروسة بالزغاريد على مجيء الحراوة، ولم يتوقَّف أبدًا حتَّى جلس جميع رجال الحراوة في المكان المُخصص لهم.

وقبل مباشرة العقد عزفت الفرقة المصاحبة للحراوة عدة أناشيد أيضًا، فيما كان رجال أهل العروس -فيما عدا يسلم (السيِّر)- يقومون بواجب الضيافة لرجال الحراوة، من تقديم الماء والبخور.

ثم جاء وقت العقد، كان مبارك حينها يجلس إلى جوار القاضي، بينما قام العم عمر ليجلس مقابلاً للإثنين -القاضي ومبارك- لإتمام العقد على عادة المسلمين في عقد القران، وعن يمينه وشماله جلس شاهدا العقد. بعد أن أتم القاضي عقد القران صارت صفية من حينها زوجة لمبارك على سنة الله ورسوله.

بعد انتهاء العقد انفض جميع رجال الحراوة، إلا المدعوِّين إلى عشاء الحراوة من المقرَّبين، ومن بينهم العريس الذي ناداه العم عمر –والد زوجته- بعد ذهاب الرِّجال غير المدعوِّين لوليمة العشاء: «تعال يا مبارك تعال قعد هنا عندي يا ولدي، شف المعازيم حقنا لي ما قُع لهم يحضرون العقد يتخبّرون عليك، تعال تعال.»

ما كان من مبارك حينها إلا أن يذهب إلى عمِّه ويجلس بجانبه. وسرعان ما حضرت (السُّفَر) وجيء بالعشاء على العادة القديمة في حضرموت، وبدأ المدعوون من الرِّجال بتناول وجبة العشاء قبل أذان المغرب.

بعد تناولهم العَشاء انفض الجمع، وعاد جميع المدعوِّين من الرجال إلى بيوتهم. أمَّا النِّساء فمن العادة أن يُؤخَّر عشاؤهن إلى ما بعد صلاة العشاء؛ حتَّى يحضرن المسامرة ويقمن بزف العروسة إلى عريسها.

في المساء حضرت صفية إلى منزلها الجديد، وزُفَّت من نساء أهلها من الأقارب والجيران إلى غرفتها في أجواء بهيجة. كان مبارك حينها في غرفة مجاورة حينما دعته عمّته للدخول على عروسه.

قالت العمة بعد أن فتحت باب الغرفة المغلقة على العريس ومفتاحها بيدها اتّقاء للنِّساء الفضوليّات: «يالله قم يا مبارك دخل مِرواحَك، مرتك ماقفت لك، ولا تنسى شفك باتحصِّل المعرّبة عندها، عطها عدِّي والا شفها ما باتنزل أبدًا!»

همَّ مبارك أن يتبعها، ولكنَّه وجد الصَّالة بين الغرفتين مليئة بالنِّساء، فعاد إلى حيث كان مستفسرًا عمَّته: «يا عمّة كن ذيلا ألا حرمان على طريقي في المعبار؟! قولي لهن المعرّس بايعبر، خليهن يبعدن.»

- «يبعدن هواه؟ ما بايبعدن لَهْ ألا بعد التَّنْصُورَة!»

- «آه التّنصورة ذي؟!»

- «بغيتني آه قولك؟ صُولاق حق حريم يقِّينه بعد ما يدخل المعرِّس على العروس.»

- «وذحين كاكيه باعبر؟»

- «معاد الا غط وجهك بحقك الرادي يا ولدي، وشُط قدا القاع وغمُّض ودخل على عروسك، آه بغيت بهن ذيلا الفضوليَّات.»

فردَّ مبارك ولم يرق له فعلهن هذا: «لا حول ولا قوة إلا بالله! يالله بس توكلنا على الله.»

قال هذا ووضع غُترته على وجهه وعبر إلى غرفته. وهناك ناول المُزيِّنة المال الذي ينبغي عليه دفعه لها فغادرت الغرفة. وما إن أغلقت المُزيِّنة باب الغرفة حتَّى صاحت النِّساء بالتّنصورة قائلات وقد تفرَّقن إلى فرقتين، الفريق الأول صائحًا:

عَـرُوْسَـــنَـا مَـنْصُـــورَة

فردَّ عليه الفريق الثَّاني من النساء:

كِـلانَّـا يَـا الـمَـنْصُـــور

واستمررن على هذه الحالة من التصفيق والتغني بالأهزوجة والزغاريد لدقائق، ثم سكتن وغادرن المكان، وخلا الجو لمبارك للتعرف على صفية؛ عروسه (الغشيمة) كما يصفها أهلها.

***

في اليوم التالي كانت (الصُّبْحَة)؛ وجبة الغداء الرئيسة في دار العريس. كان مبارك قد دعا فيها كل الأقارب والجيران والأصحاب، وحتّى الأصدقاء في المدينة دعاهم مبارك لتناول وجبة غداء الصبحة، وقد دعا العم حسن وأسرته وبناته وأزواجهن كما وعده عندما كان ضيفه في المسجد، ودعا إمام مسجد المؤمنين وعائلته، ودعا العم عبد القادر أحد شركاء المصوغة المسروقة الذي أحضر معه هدية لزوجة مبارك، طقم من الذهب الخالص، قدَّمه الشركاء الثلاثة هدية لعروس مبارك؛ عرفانًا منهم بدوره في إلقاء القبض على العصابة المجرمة وعودة أموالهم إليهم.

في عصر ذلك اليوم كانت النساء يحضرن حفلة الظلّة التي ترقصُ فيها العروس، وأقيمت في الباحة الأمامية للمنزل، بينما جلس يسلم ومبارك وضيوفه من المدينة يتذكَّرون قصَّة اللصوص في الشارع الخلفي لبيت مبارك.

كان العريس حينها يحكي لضيوفه تفاصيل ما حدث له ليلة الحادثة وكأنها حدثت بالأمس القريب، وكان مما طرحه على ضيوفه استغراب لم يجد له تفسيرًا حتى هذه اللحظة: «والله يا جماعة أنا لي مستغربه إنه واحد من السَّرق رجع في نص الليل وكان بغى بايقتلنا، وهز باب المخزن هز، ومعاد دريت بعدها آه لي حصل له!»

سأله العم عبدالقادر باستغراب: «كيه معاد دريت به؟! آه هوذا الكلام يا مبارك؟»

- «والله كما ما سمعت يا عم عبدالقادر، لأن السارق يوم هز الباب أنا دري حسّي وغيَّبت، معاد دريت بشي.»

هنا انفجر العم حسن في ضحك هستيري متواصل استغرب له الجميع قبل أن يقول: «ماهو سارق يا مبارك لَه، ذلا أنا شفنا يوم جيت باذّن الأذان الأوّل طلع

صفصاف في رجلي، قايسته ألا عقرب يوم الهوام تطلع مع المطر. مانا ألا خبِّيت لا قدَّام وأنا نفِّض رجلي وكَرَسِت باب المخزن بقوّة. معاد شفت شي! بقعا غدرا، وحقي الباقزقز لي جبته من الدار انطفى من الهبوب قبل ما ادخل المسجد.»

اندهش مبارك مما يسمع من العم حسن وعلّق قائلاً: «ألا انته اللي جيت بعدين في الليلة هيذي أهواه؟! وأنا قايسته واحد من السرق وافتجعت! ليه كذه وقت أذان فجر هوذا الوقت يا عم حسن؟»

- «آه كذه وقت أذان فجر يا ولدي. بس خلاص مكتوب عليك لي حصل، والحمد لله على كل حال، بركة يومك بخير لوّل.»

وجاء دور العم عبدالقادر ليحكى لهم كيف سارت المحاكمة بالتفصيل، وكيف أن بو مطرقة وهو أحد موظفيهم واسمه الحقيقي علي بن سالم خدعهم وخدع حتى أصحابه اللصوص، وسرق منهم مبلغ أربعمائة قرش، غير الستمائة التي أظهرها لهم، وأخبرهم العم عبدالقادر أن هذا الموظف كان حاقدًا عليهم؛ لأنهم رفضوا أن يُدخلوا أخوه معهم في شراكة المحل، فهم أصلاً أقارب، ولا يُحبِّذون أن يدخل غريب معهم في الشراكة، فتآمر عليهم وسرق محلهم بمساعدة هؤلاء اللصوص.

انفضت سهرة النساء قبل أذان المغرب بقليل، واجتمعت الأسرة أخيرًا في المساء بعد صلاة العشاء في مرواح صفيّة؛ لحضور سمر (الظِّهِيْرِة) الذي يحضره في العادة محارم العروس فقط؛ وهما هنا أبو صفية وأخوها، بالإضافة إلى وجود زوجها مبارك. أما والدة صفية فكانت تتنقل بين تلك الغرفة وغرفة أخرى من المنزل تتواجد فيها النساء؛ كالعمة عيشة، ومريم زوجة يسلم، وبعض خالات صفيّة وعمَّاتها، سمروا عندهم فترة ثم غادروا حسب التقاليد.

وهكذا انتهى العرس وخلد الزوجان صفية ومبارك للرَّاحة بعد عناء وتعب الأيام الماضية.

الفصل الثامن عشر: حياة جديدة

في اليوم الخامس للزواج، حضر يسلم يزور أخته وزوجها، ويطمئن على حالهما. خاطب يسلم أخته بعد أن جلس قائلاً: «كيف حالش يا صفيّة؟ عساش بخير؟»

أجابت صفيّة وهي تبتسم: «بخير الحمد لله.»

ثم التفت يسلم إلى مبارك: «وانته يا مبارك، الله الله في أختي، سمعت.»

ردَّ مبارك عليه باستغراب: «أختك مرتي يا يسلم كنك ذحين! عادك ما انته مستامن على صاحبك وألّا هواه؟!»

- «لا لا مستامن عليك لا تزعل ابدًا، يالله سحبت كلامي بس إن كانه ألا يزعِّل. ألا باقولك، كاكيه لقّيت في العدِّي يا مبارك؟ غير معاد شي عليك ديون؟»

- «لا لا ما شاء الله الطروحات غطت التكاليف لي عادها، وبقيت عادها ما شاء الله كمَّة قروش.»

- «آه تقول يا مبارك من صدق؟! معاد ذي بركة لاشق، ذلّا شُف أختي الظاهر إنها كانت بُركَة عليك! أَلَه؟»

- «أكيد يا يسلم أكيد. كيه باتكون ألا أم المال والعيال!» قالها مبارك وهو ينظر مبتسمًا إلى زوجته الجميلة. استحت صفيَّة وأطرقت بنظرها إلى الأرض خجلاً.

أردف مبارك قائلاً: «أما الطروحات يا يسلم ما شاء الله وفَّرت لنا مبلغ وقدره، المعازيم بعضهم كانوا سخيين جم ما قصروا لاشق، بعضهم شفه طرح قرش في الخط، تصدّق؟»

- «أوه أوه أوه، ما شاء الله! هومن ذا السخي ذا؟!»

- «عمّي عوض لي اشتغل في مزرعته، ظهرت قَبْوَلَتُه وطرح لي في خَط العِزَام قرش كامل! وحتى المعلّم حسن وعمّاله اشتركوا في الطّرح، وطرحوا لي قرش كامل ما قصَّروا.»

- «جزاهم الله خير، الله يكثّر من أمثالهم.»

- «المهم يا يسلم شفها تلاوفت معي كلها مع العدِّي حق الصِّيغ حوالي عشرة قروش، وأنا ذحين نفكر نشتري بها قطعة أرض زراعية خاصة بي، ازرعها واستفيد من محصولها.»

ردَّ يسلم وهو يحكُّ رأسه: «صح إن المبلغ لا باس به، بس عشرة قروش ما بتجيب قيمة قطعة أرض زراعية كبيرة. الأراضي ذحين غالية يا مبارك، لكن انته ربّت فوقها، ولاكذ تلاوفت كذا قدر عشرين قرش والا زايد حتّى تكلم، وأنا باشوف لك حد من أصحابي، إن حد مِنُّهم معه أرض بايبيعها، اشترها ولقَّها مزرعة، بس شفك عادك بغيت يا خوي فوقها على الأقل خمسة قروش؛ منشان تكون بقعا ريّضه.»

- «الله كريم يا يسلم. إن كان تيسّرت قطعة أرض رخيصة اشتريناها، وإن كان ماشي خلاص.»

- «أنا بادور لك، خاف الا حد محتاج وبايبيع أرضه حتى لو كانت رخيصة. شفك تفكّر صح يا خوي، بعدين باتقع من الطَّبَانِة، معادك أجير.»

- «ربك بيسهل إن شاء الله، من بيصدّق أننا بقدر أتزوج وتزوجت، وجات بقعا الا ريّضه ما شاء الله.»

- «الا شف حظّك زين يا مبارك، ما ضاقت عندك الا وتفرجت، الظاهر المرحومة أمك كانت دايم تدعي لك بالبركة يومك بار بها، يالله يا صاحبي شفنا باتوكل، ألا جيت اطمّن عليكم.»

ثم التفت يسلم إلى أخته صفيّة وخاطبها: «يا صفية الله الله في الجودة، وزوجش ذا سمعي كلامه وطيعيه، ولا تنكدين عليه أبدًا، سمعتي؟ قعي جويده، شوفيه طيب وما باتحصلين رجال أحسن منه ابدًا، تسمعين؟»

- «كذني دارية، وعاده يومه صاحبك قاعد تمدحه؟!»

انفجر يسلم ومبارك حينها بالضحك، وأردف يسلم: «أيوا ظهري يا صفية ظهري، من قبيلان وانتي قاعدة ساكتة كما الهرّة! حتى أنا استغربت سكوتش، ظهري، ظهري. أيوا وبعدين؟!»

صرخت صفيَّة بامتعاض: «وبعدين هواه؟!»

قاطعهما مبارك محاولاً تهدئة الأخوين المحتدمين، وقال يُطيِّب خاطر صفية: «صفية ألا صمصومة وعاقلة يا يسلم. عيب عليك!»

ردَّ يسلم ساخرًا: «عاقلة؟ عاقلة هواه! مانا قُت لك لَه نهار العزاء حصلتها تطارد الغنم في المطاريق؟ نسيت أهواه؟» وقد تعمَّد يسلم استفزاز صفيَّة بذكر هذه الحادثة.

استشاطت صفيَّة غضبًا، وحملت قُفَّة صغيرة فارغة كانت هناك ورمتها بقوَّة على أخيها وهي تقول: «انته خو انته؟ قاعد تفضِّح بي عند زوجي، بغيته يبغضني أهواه؟»

ردَّ مبارك بهدوء: «لا حول ولا قوة إلا بالله، ذلا شوفيه يصفط معش يا صفية ما قصده يفضِّح بش له.»

أما يسلم فقد استأذن صديقه في المغادرة حتى لا يتحول المزاح مع أخته إلى شجار حقيقي: «هيا يا صهري شفنا مروّح، لَوّل الحمد لله اطمّنت عليكم، وذحين بانروح بانشوف أشغالنا.»

- «هيا حيابك يا يسلم، سلم لي على الوالد والوالدة، وقلهم صفية ومبارك يسلمون عليكم.»

***

بعد أيام كان على مبارك أن يذهب لاستلام عمله عند العم عوض في مزرعته، ويُعفِي صاحبه محفوظ -الذي طلب منه مباشرة العمل بدلا عنه- من مهمَّته. وعزَّ عليه أن يترك صفية لوحدها في الدار، فأخذها معه إلى المزرعة؛ حتَّى ينشرح خاطرها وتطيب نفسها.

كان جو الصباح منعشًا مُشبَّعًا بالرطوبة الباردة الممزوجة برائحة الأرض الزراعية، ونسمات الهواء العليلة تداعب قميص صفية فيتمايل يمنةً ويسرة مع اتجاه الرياح. شعور بالارتياح داعب الزوجان السائران في هدوء الصباح المنعش.

تفاعلت صفية مع الجو الريفي الجميل الرائع الذي أحست به عندما خرجت مع زوجها من بين جدران منزلها المنغلق إلى رحاب الطبيعة الجميلة والأفق الرحب، فهاهي المزارع تمتدُ على امتداد بصرها وقد غطت الأرض الطيبة خضرة البساتين، وتزينت الأرض بألوان الزهور الجميلة والأشجار المثمرة المتناثرة هنا وهناك.

قالت صفية لمبارك متسائلة: «يا سلام يا مبارك، آه الجو الزين ذا! ذحين كل يوم تعبر المكان الزين ذا لا كذك سيرح الشغل؟»

رد عليها مبارك بفرح: «عجبش الجو يا صفية أله؟ آه كل يوم أعبر هوذا الطريق، كذنا ألا شبعت من شوفه!»

أردفت صفية بسرور: «يا بختك! ذلا برود زين، بغى حد ألا يقعد هونا قليل!»

- «يقعد هواه؟! سيري سيري، خلي حقش الغرام الزايد! خلاص نحن ألا وصلنا، شيها ذي المزرعة لي اشتغل فيها هه.» قال مبارك هذا الكلام لأنهما حينها كانا قد وصلا إلى المزرعة.

كان الوقت لا يزال مبكرًا، فطلب مبارك من صفية أن تجلس في مكان حدده لها قائلاً: «سمعي يا صفية، شفتي المكان الزين ذاك هه لي كما التُّكّة؟ كيه روحي قعدي فيه وانتي ساكتة، وشوفينا وأنا نِسْنِي.»

ولكن أنَّى لها ذلك وقد غلب على طبعها العناد والمشاكسة؟ دخلت صفية معه (المَقُوْد)، وبدأت تُحاكي حركات مبارك صعودًا وهبوطًا، وهي إلى جواره مستمتعة بما تفعل، ولما لم تبدر من مبارك أي بادرة غضب مداراة لمشاعرها، فقد تشجعت صفية وتحولت إلى الجانب الآخر لمبارك، حيثُ يوجد الثور المصاحب له في عمله، وبدأت تتلمس ظهر الثور بفضول وحذر. لمَّا أحس الثور بيدها تلمسه ركض برجله تجاهها، فتسبب بوقوعها على أرض المقود الترابية.

هنا غضب مبارك وصرخ فيها: «آه الكَشَافِة والقَوَارَة حقِّش ذي؟!»

قامت صفية من سقطتها. كان قميصها متَّسخًا بقليل من التراب، فذهبت بعيدًا تنظفه بيدها، مستخدمة ماء الحوض الموجود هناك، وجلست تراقب مبارك وهو يسني من بعيد، وأمضت على هذه الحالة فترة من الزمن ليست بالقصيرة.

بعدها رأى مبارك أن يُشغلها بشيء بعد أن رثي لحالها، فخاطبها: «صفية كيه قومي، شفتي الحريم ذيلاك؟» وأشار إلى مجموعة من النساء يمارسنَ العمل في المزرعة على مسافة بعيدة منهما: «...كيه روحي تنسَّمي عندهن.»

تساءلت صفية للتأكّد من أنها ستكون في أمان، وأنَّ أحدًا منهن لن تنهرها أو تطردها كما نهرها وطردها هو قبل قليل بعد أن رفسها ثوره: «ذيلاك هه البعيدات؟ بايقع بايعالقيّ، وبايقلن لي آه جابش هنا؟ تعال انته معي أحسن؛ منشان ماحد يعالقني.»

- «أنا معي شغل هنا، انتي روحي ولاحد بايقّيبش شي لَه، عليش ألا قولي لهن أني مرت مبارك.»

سمعت صفية كلام زوجها، وتوجهت إلى حيث النساء العاملات، فسألتها إحداهن باندهاش، لمّا رأت أناقتها وجمال منظرها، فظنتها إحدى بنات العم عوض: «يا حرمة إيه، بغيتي من؟»

فردَّت عليها صفية بعفوية: «ألا بغيت عندكن، أني مرت مبارك لي يسني في المزرعة ذي، شيه ذاك هَه.» وأشارت إلى حيثُ يعمل زوجها.

صاحت المرأة بأسارير متهللة وبصوت عالٍ سمعته بقيَّة العاملات الموجودات في المكان: «يا حيَّا يا حيَّا بالطش والرش والبيض المقرَّش! يا حيَّا بالعروس حقَّنا، تعالي تعالي يا حيَّابش.»

فرحت صفية بالإطراء والتشجيع، ودخلت تدوس على غروس البصل المزروع دون أن تراه؛ لأنه كان لا يزال في طور النمو ولم تظهر فروعه بعد بصورة واضحة وجلية. فظنت صفية أن المكان خالٍ من الزرع، بينما الحقيقة أنه مزروع بغروس البصل.

وصلت صفية أخيرًا إلى المرأة بعد اجتيازها عدة مُطُر ودوسها على غرسها. رأتها امرأة من الفلاحات طاعنة في السن، فانتهرتها: «إي يا حرمة! لا تدحِّقين الحِبِس لي تحتش.»

ظنتها صفية تعني بالحِبِس الذهب الذي تلبسه، فردت: «لا لا يا خالة، الحبس ألا في يدِّي، ما دحّقته لَه!»

- «الحبس لي تحتش بعدي منُّه.»

- «نقوِّلش الحبس في يدِّي ما سقط لَه، حتَّى شيه هَه!» وكشفت لها صفية عن سوار كانت تلبسه.

استدركت إحدى الفلاحات القريبات اللبس في الحوار بين المرأتين، وتدخلت لتوضِّح لصفيَّة أن الحبس يعني الزرع، فردت صفية: «ماشي زرع! وينه؟!»

ردَّت عليها المرأة: «ألا إنتي ما تشوفينه يومه عاده صغيِّر، إنتي ألا عليش بعدي، وسيري على لِسْوَام، والا شي عم عوض بايعالقش.»

استفسرت صفية: «آه لسوام ذي يا خالة؟»

فأجابتها المرأة: «الطين المركوم في الجوانب ذا، هوذا سيري عليه. سمعتي؟»

هزَّت صفية رأسها موافقة، واستمرت متنقلة في المزرعة. كانت البهجة تغمرها؛ لأنها لم ترَ مزرعة من قبل قط؛ فأبوها وأخوها يسلم كانا أصحاب تجارة، يملكون دكانًا يشتغلون فيه، ويوفرون لأهل القرية متطلباتهم من البضائع.

فرحت الفلاحات بقدوم صفية العروس إليهن، فكنَّ يناديها الواحدة تلو الأخرى، فبعد أن أنهت حديثها مع بعضهنَّ نادتها أخرى من بعيد: «صفيِّة، صفيِّة تعالي هنا بانشوفش يا العروس.»

ذهبت إليها صفيَّة مسرعة، وتحاشت المرور على غراس البصل هذه المرة، وأجابتها بعد أن وصلت إليها: «آه باتشوفين فيِّه؟ عروس كما العراوس!»

- «لكنِّش انتي مرت خونا مبارك، تعالي تعالي كيه روِّيني الحناء حقِّش.»

مدَّت إليها صفية يدها تريها نقش الحناء، فأثنت عليه المرأة: «ما شاء الله! هومن حنَّالش؟»

- «صهرتي مريم، والمحنِّية عيشة محفوظة؛ ذي اليد مريم، وذي اليد المحنِّية.» قالت ذلك وهي تلوِّح بيمينها ثم بشمالها.

أكملت المزارعة: «ما شاء الله كلهن يعرفن ينقشن، يا خير حنَّاء!»

في هذه اللحظة وصلت مجموعة جديدة من فلاحات المزرعة إلى حيث كانت صفية، وبدأن هنَّ الأخريات يطرحن الأسئلة عليها، فقالت إحداهن: «كُد لقِّيتوا الخَطْرَة والا عادكم؟»

- «لقِّيناها رابعة الصُّبْحَة، ليه ما دريتي لَه؟ ألا أهلي كانوا مستعجلين.»

وسألت أخرى: «ليه مستعجلين؟ حد بايسافر أهواه؟!»

- «لَه ماحد بايسافر، ألا أهلي قالوا مازال الدار نظيف حق العرس، وكذه تعب فوق التعب.»

ردَّت ثالثة: «ريِّض ريِّض، سكنوا من لي عليهم!»

وسألت رابعة: «والخَوَتَّة ذيلا كلهن أقُّوهن أهلش؟»

- «لَه، ذيلا الاثنين أقوهن أهلي، وذا عطاني إياه يسلم، وذا عطتني إياه عمَّتي عيشة عمَّة مبارك.»

- «ما شاء الله، وافي عليها، ألا يا خير حرمة مسكينة طيِّبة. عادها عندكم والا راحت أرضها؟»

- «لَه راحت مسكينة أمس.»

تدخَّلت إحدى النساء الأخريات: «كان مسكتوها عادكم عندكم.»

أجابت صفية بسرعة: «ما بغت. بغت ألا دارها.»

وبينما كانت الفلاحات محاطات بصفية، إذ حضر العم عوض صاحب المزرعة، وساءه هذا المنظر، وصاح فيهنَّ من بعيد: «ذحين آه الغَشَّة ذي يا حريم؟! آه الخبر؟ كنِّكن؟»

وبينما هو في طريقه إليهن انتبه إلى زرعه المداس، فتوقّف فجأة متسائلاً: «آه ذحين ذا؟!»

صُدم العم عوض مما رأى، واتجه نحو زرعه وانحنى يتفقَّده عن كثب. استغلت صفية انشغال العم عوض، وانسلت بخفَّة متوارية عن الأنظار، واتخذت من سيقان ذرة في حقل قريب مخبأ لها منتظرة مغادرة العم عوض.

بعدما رأى العم عوض فساد زرعه ازداد حنقه، وصرخ غاضبًا بصوتٍ عالٍ: «ذحين هومن دحَّق حبوس البصل؟»

لم يتلق أي إجابة من الفلاحات، فنهض العم عوض واقتراب من الفلاحات أكثر وسألهن ثانية بنبرة صارمة: «من دحّق حبوس البصل؟ كنّكن ما تردّين؟»

بعد فترة من الصمت، انبرت إحداهن قائلة: «ذلا العروس مرت امبارك، شفها هي دخَّقته!»

خجلت أخرى من وشاية زميلتها، ودافعت عن صفية قائلة: «ألا ماهي دارية إنه فيه مضرة للزرع لَه، ذلا شفها غشيمة يا عم عوض غشيمة!»

استطرد العم عوض: «وآه اللي جاب الغشيمة ذي للمزرعة؟!»

ردت عليه المرأة الأولى: «ألا هو مبارك سرّحها قفاه اليوم.»

- «وينه مبارك ذخّين؟»

- «شُفه هناك عند البير يسقّي.»

***

توجَّه العم عوض إلى حيث يعمل مبارك بعد أن نهر الفلاحات وأجبرهن على العودة إلى أعمالهن.

وبعد أن بحث عن مبارك وجده عند بئر الماء، فأخبره بغضب بما فعلت زوجته: «يا مبارك ذخّين ليه جبت عروسك للمزرعة يا ولدي؟ دحقت حبوس البصل وقصَّفت السَّبول وسهيت العاملات، جيت وحصّلتهن كلهن خلّين شغلهن وتحلّقن حولها، مقَّات غشّة عليها! يا مبارك أمك كانت عاقلة، فلاحة تعرف تتصرف، تجي لا هنا تنفع نحنا ما تضر، أمَّا عروسك بت ناس تجار ما تعرف الزراعة، وعادها غشيمة الله يعينك عليها. المهم لعاد تجيبها للمزرعة لَه، سمعت يا ولدي بارك الله فيك؟ خلها في الدّار وشِغْلها بشغلة تنفعها وتنفعك، وأنا شفنا معي لك فكرة لها، إن شاء الله تنفع، ألا كننا باقولك أول، شي معكم رحى في الدَّار؟»

- «نعم معنا رحى حق الوالدة الله يرحمها.»

- «طيب الحمد لله، وصفية بت التجّار ذي تعرف تطحن عليها وألا لا؟»

- «والله يا عم عوض ما أقولك ألا كل خير، العفو منك أوَّل على اللي حصل، بس من ناحية صفية تعرف تطحن والا لا مأنا داري، بسألها.»

- «خير خير يا ولدي، مرتك لازم عليها تتعلم تطحن وترهى وتتعلم مهرة الدار. ألا حرمة على كاكية! حتَّى إن كانت ما تعرف تطحن علموها. وأنا من ناحيتي باوفّر لها عمل تعمل فيه، آه رايك؟ باعطيكم كم كياس حق بُر حبوب، وخل صفية تطحنها على الرحى، وبعطيها جُعلها خُمسيِّتين على كل كيس فيه عشرة مصاري بعد ما تطحنها، ويا بخت من نفع واستنفع. آه رأيك يا ولدي؟»

- «والله يا عم عوض ما ذلَّا يا خير كلام، عساها الا توافق بس، أنا باشاورها وبارد لك خبر.»

- «خلاص توَّك شاورها وشفها، وذحّين غلّقت السَّقي والا عادك؟»

- «عادنا ألا ذحين غلقت.»

- «خلاص رح قدا عروسك وشلها الدّار، ولعاد تسرّحها معك مرة ثانية ابدًا، سمعت يا ولدي؟»

- «مفهوم مفهوم، والعفو منك والمسامحة على اللي لقته الغشيمة ذي.»

- «مسامح يا ولدي مسامح، وراها بالعَمَد؟ ذلا حق غشامة وقلّة عُرُف، يالله يا ولدي الله معك.»

توجه مبارك بعدها إلى حيث النّساء، ونادى على صفيّة وذهبا معًا إلى المنزل. لم يقل لها شيئا مما قاله العم عوض، ولم يُبدِ غضبه عليها؛ فهو لا يريد أن يجرح مشاعرها، وما قاله لها في المَقُوْد يكفيها، ولكنه قرر بينه وبين نفسه ألا يأخذها معه إلى المزرعة مرة أخرى.

الفصل التاسع عشر: زيارة خاطفة

في اليوم التالي ظنّت صفية أنها ستذهب إلى المزرعة مرَّة أخرى، فعندما همّ مبارك بالذهاب إلى المزرعة، استعدت هي الأخرى ولبست قميصها.

استغرب مبارك وسألها: «كنِّش يا صفية ألا تتقمَّصين؟! بغيتي فيين؟»

- «بغيت قفاك. ما باتشلّني المزرعة معك لَه؟»

- «لا لا يا صفية، ذلا أمس وبس. روِّيتش المزرعة لي اشتغل فيها، بس اليوم ألا تمّي في الدار لقّي حاجة فيه، وإن حوشتي توّش روحي عند أهلش تنسّمي قليل، لا كذه حل عراب الغداء تعالي وعرّبيه. كننا شينا ما بغيت جي من الشغل وحصل الغداء عاده ماهو معرّب والا الدار جِرْسِة! لقّي شغل الدار لوّل شينا قت لش، وإن شي وقت عاده معش، توّش روحي تولّهي عندهم قليل، ما عندي مانع. سمعتي يا والا لا؟»

صُدمت صفية من اعتراض مبارك على مرافقتها له، وأجابت بخيبة أمل: «طيب طيب. خلاص يا مبارك. توّك انته سرح شغلك، وأني باتمّي هنا.»

ولكن حينها كان لصفية رأي آخر، فقد أرادت أن تذهب إلى أهلها أولاً، وتقضي معهم بعض الوقت، ثم تعود لاحقاً؛ لتقوم بالتزامات بيتها فالنهار طويل، ويمكنها أن توفِّق بين الاثنين بسهولة ويُسر.

كانت حينها لا تزال في قميصها، وقد لبسته عندما ظنت أن مبارك سيأخذها معه إلى المزرعة هذا اليوم، وكل يوم أيضًا، لكنه منعها، وطلب منها البقاء في البيت، فخاب أملها وقررت الذهاب إلى بيت أهلها، تسبقها إليهم أشواقها.

كانت مشتاقة بالفعل لأمها وأبيها، ويسلم وزوجته. كانت مشتاقة لكل شيء في بيت أهلها، حتى الغنم والحوش، وكل شيء في بيت أهلها.

كان السكون يُخيِّم على القرية، ويُلبسها ثوبًا من السكينة والوقار، وزقزقة العصافير المُغرِّدة تملأ المكان، معلنة بغنائها العذب عن بدء يوم جديد.

سارت صفية مجتازة عدّة منازل، قبل أن تصل إلى بيت أهلها القابع في المنعطف الثاني لبيت مبارك. بالمصادفة، وجدت صفية أباها على وشك مغادرة المنزل إلى دكانه، بعد أن تناول فطوره في داره. استغرب حضورها إليهم في هذا الوقت من الصباح، فسألها بشيء من القلق: «خير يا صفية، غير مابش شي والا شي؟»

ردَّت صفية وهي تتناول يده وتُقبِّلها: «لَه ماشي يابه لَه. الا أني تويوم سرح مبارك، جيت لا عندكم. فقدتكم، حتى الدار عادني ما لقيت حاجته.»

عاتبها أبوها: «ماهو ريّض هوذا يا صفية. البنيّة لا عرست لها الا دارها، فاهمة الكلام ذا ولا لا؟»

استاءت صفية من كلام أبوها، وردت عليه بحنق: «ذلا انتوا معاد تحبّوني أبدًا، خلاص سكنتوا مني يوم عرست. خلاص بغيتني ارجع لا داري بارجع.»

أجابها أبوها بلهجة حنونة هادئة؛ محاولاً محو قسوته عليها آنفا: «هومن ما يحب عياله يا صفية، حتى الحيوانات تحب عيالها معاد ألا الناس. ألا ذي نصيحة لش يا بتّي. الحرمة الصمصومة كماش، ما تخلي شي قاصر على زوجها أبدًا، وتسمع كلامه، وتنظف داره، وترتبه، وتطبخ أكل زين. معاد يجي من الشغل ألا ويحصل داره كما الجنة، ومرته قدامه كما الحورية. فهمتي يا بتّي ولا عادش؟»

- «حتى أني أقّي هوكذا يابه.»

- «كيه تقّين هوكذا وعادش الا قبل قليل قتّي إنّش حتى حاجة الدار عادش ما لقيتيها! هوذا كلام هوذا يا بتي؟»

- «آه آه، ألا قُت باشوفكم قليل، وبعدين بارجع أقي حاجة الدار. ألا اليوم بس.»

- «كل شي أبدى من شي يا بتّي. الواحد يندر من داره بشوره، ويرجع بشور غيره. قعي عاقلة يا بتّي، لا تخسرين رجالش ودارش، شيش بعدين باتندمين جم.»

- «خلاص طيب. ذحين بغيتني نرجع الدار لوّل؛ نقي الحاجة؟ والا ندخل نشوف أمي؟»

- «لا لا توّش دخلي شوفي أمش، يا حيابش. ألا مرة ثانية لا تندرين من الدار الا بعد ما غلقتي حاجتش كلها. خلي حقش الزيارات ألا من زايد، لا معش وقت وانتي فاضية فيه، زوري لي بغيتي تزورينهم. وذحين خلاص، مانا باروّح وبافتح الدكان، يسلم ألا ما حد هو لَه.»

- «ليه فيين خويه يسلم؟»

- «راح المدينة، بايجيب حاجة حق الدكان، غلقت وبايجيب بدلها. دخلي دخلي، باتحصلين الحريم داخل. أمش ومريم، دخلي تولهي قليل معهن، وبعدين رجعي قدا دارش، وحاجة دارش. كنش رجعي سمح لدارش، سمعتي يا بتّي الصمصومة؟»

لم ينتظر العم عمر رد ابنته أو تعقيبها على ما قال أخيرًا؛ حتى لا يطول الجدال معها، بل توجَّه إلى دكانه يطلب رزقه فيه. كان باب المنزل لا يزال مفتوحًا، فقد تركه أبوها كذلك لما رآها قادمة إليه.

دخلت صفية وبدأت تنادي من الدرج على أهلها: «إيه يآل الدار، يآل الدار.»

- «هومن هيذي؟ طلعي طلعي يا حيابش، شي نحنا في المحضرة القِبْلِيّة. تعالي هومن هيذي؟» وقبل أن تكمل أمها كلمتها كانت صفية قد أطلت عليها من باب الغرفة.

فرحت الأم كثيرًا برؤية ابنتها: «يا حيّا بصفية، يا حيّا ببتّي. تعالي تعالي عندي هنا، شيني عادني ألا باتصبح، تعالي تصبحي معي. هيا يا بتّي جبري أمّش.»

- «ماني ألا كُذ تصبّحت يمّه.»

- «ويومه، حتى لقمة وحدة بس. طعمي صبوح أمش. ذلا حق جبر.»

مدّت صفية يدها، وتناولت لقمة من الفتة المصبوغة بالروبة، ووضعتها في فمها، ثم سارعت إلى غسل يدها في إناء كان هناك به ماء، فعاتبتها أمها: «ذحين هوذا الجبر حقش؟! شلّيتي لقمة صغيرة بَأطراف صابيعش، وياخنّش جبرتيني؟»

ردت صفية بسرعة: «والله يمّه شبعانة، معاد لُه نفس لاشق. بغيتيني نقذف؟!»

- «لا لا ياحافظ عليش. خلاص بس...آنستي نحنا، كنّش ألا اليوم جيتي سمح؟ حتّى يوم كنتي تطرّبين من الرقاد، الصوت عرفته كنّي قُت آه بايجيب صفية في ذا الوقت! كنّش غير ماحد به شي؟»

- «لا لا الحمد لله، ألا حسيت أنها ماشي لي طربة نقعد في الدار وانتوا ما شاء الله ألا قريب. قُت باجي عندكم باشوفكم، فقدتكم يمّه فقدتكم.»

- «ما شاء الله عليش يا بتّي، حِرْشِة كما أمش! ذحين كُذ غلقتي حاجة الدار كلها؟ ليه متاه قمتي اليوم، الفجر أهواه؟»

- «لَه يمّه عادني ما لقيت شيء من حاجة الدار أبدًا.»

- «آه تقولين! وليه عادش جيتي قبل ما تقّين حاجتش؟ أكيد فيه شي بغيتي باتقولينه لنا. آه فيه يا بتّي؟ شغبتيني شيش.»

- «والله يمّه ماشي أبدًا، ألا فقدتكم بس.»

- «بس شي ذا ماهو ريض يا بتّي. كل شي...»

لم تدعها صفية تكمل: «أوهوي يمّه! باتقولين لي كما أبوي ذحين، كل شي أبدى من شي، ومندري هواه، مندري هواه!»

- «كاكيه مندري هواه مندري هواه؟! انتي ما بغيتي حد ينصحش لَه؟ كذهم يقولون...»

قاطعت صفية أمها مرّة أخرى، وأكملت باستهتار: «ما ينصحك ألا لي يحبك. فهمت يمّه فهمت. خلاص معاد بقّي هوكذا أبدًا مرة ثانية، ما بندر من داري ألا لمان أقّي حاجتي لوّل.»

- «خلاص الحمد لله انش عرفتي غلطتش.»

- «ألا يمّه قولي لي، وينها مريم؟»

- «في مرواحها تيحشه. ذحين باتجي بعد ما تغلّق حاجتها. ألا ماهي دارية بش إنش هنا لَه، والا كانها باتفك لي في يدها، وباتجي باتشوفش.»

- «ليه ما سمعتني وأني طرّب عليكم من الرقاد لَه؟»

- «بايقع لَه، لاكذ الباب حق المرواح حقهم مقفل، ما يسمعون حد أبدًا.»

استمرت صفية تحادث أمها لفترة طويلة، انضمت بعدها مريم إليهما، واستمر الحديث إلى ضحى ذلك اليوم. حينها فقط همّت صفية بالانصراف؛ لأنها أحست أن من واجبها الآن الذهاب إلى بيتها، وتعهده بالنظافة والترتيب، قبل أن تذهب إلى المطبخ لإعداد الغداء.

ودّعت والدتها واجتازت الدرج إلى الباب الخارجي، عندما سمعت طرقًا عليه. كانت هي من فتحت للطارق، فإذا هي وجهًا لوجه مع صديقتها العزيزة نور أخت مريم، وهي في مثل سنِّها تقريبًا ولم تتزوج بعد.

فرحت صفية برؤية نور كثيرًا، وفاجأتها زيارتها عندما فتحت باب المنزل: «يا حيَّا بنور، يا حيّا ويا سهلا» وعانقتها عناقًا حارًا وهي ترحّب بها: «آنستي عندنا، ماحد يشوفش أبدًا يالمغيِّصة!»

- «انتي المغيِّصة، ألا بعد ما عرّستي خلاص استكفيتي، معاد حد شافش أبدًا.»

- «والله يا نور الوحدة مننا لا عرّست شيها معاد تحصّل لها فضوة تزور حد أبدًا، غير في حاجة الدار، من ذا لا ذا، طووول اليوم! حتى كان بغينا بانزور لي نعزِّهم، ما شي وقت أبدًا.»

- «أيوا ماهم يقولون لَه من لقي أحبابه نسي أصحابه؟»

- «لا والله يا نور ما قصدي كذا، ذلا العرس شيه خلاني معاد نَخْلَى أبدًا من صدق، يحيش وتغسيل وغنم واستقاء وطبخ وترتيب، ولعاد يجي العصر ألا ولعاد في عيوني قطرة.»

كانت صفية في الأيام التالية للزواج تساعد العمة في تدبير شؤون المنزل، ولكنها لم تتحمل تدبير شؤونه بالكامل بعد؛ لأن العمة كانت عندهم وتعاونها في بعض الأمور، ومع ذلك كانت تستشعر بعظم المسؤولية المُلقاة على عاتقها بعد زواجها.

استدركت نور قائلة: «طيب وذحين كنّش ألا نيزلة؟ بغيتي فيين؟»

- «بغيت داري، ذلا شيني جيت نزور أهلي، وكُتب لي شوف فيش.»

أمسكت نور بيدها، وجرتها إلى الأعلى مرة أخرى وهي تقول: «ماشي داري لَه! طلعي طلعي لوّل بانشوفش سوا، وبانتكلم في المحضرة حق مريم. ماهو ريّض في الضِيْقَة لَه.»

استجابت صفية لطلب صديقتها، وصعدت معها إلى غرفة أختها مريم، وجلست الاثنتان تتحدثان عمّا جرى لهما خلال الفترة الماضية، كما سألتها صفية عن باقي الصديقات التي لم تراهن منذ فترة طويلة.

علمت أم صفية من مريم أن صفية لا زالت في البيت تتحدث مع أختها نور في غرفتها، فتضايقت؛ كونها تعرف أن ابنتها في هذا اليوم بالذات لم تقم بعد بواجباتها المنزلية، ولكن لا تستطيع قطع حديثها مع صديقتها؛ حتى لا تجرح مشاعرها ومشاعر مريم وأختها نور أيضًا.

صبرت الأم على ما يجري في بيتها على مضض، ومرت ساعات أخرى وصفية ونور لا زالتا تتحدثان في غرفة مريم. أذن الظهر وحان وقت الصلاة ولم ينتهِ حديثهما بعد.

***

حضر مبارك من عمله مجهدًا. طرق الباب فوجده مغلقًا، ولكنه يعلم أين سيجد المفتاح. تحسسه بيده، فوجده وفتح باب منزله ودلف إلى الداخل.

لوهلة مضت ظن مبارك أن صفية نائمة، وأنها تعمّدت وضع المفتاح في مكانه؛ ليجده هو، ولكن بعد البحث عنها لم يجدها مبارك في المنزل، ووجد المنزل على حال رثة، فلا هو نظيف ولا مرتب، والثياب ملقاة هنا وهناك، وأواني طعام الفطور لم تُغسل بعد. ذهب إلى التنّور؛ عله يجده فيه الغداء، لكن لا أثر لشيء على الإطلاق!

أصابه الخوف؛ ظانًا أن صفية قد أصابها مكروه وذهبت إلى بيت أهلها، فخرج مسرعًا إلى بيتهم يسأل عنها. طرق مبارك الباب.

- «هومن المقرقع؟ هومن؟ يسلم هاه؟» كان هذا هو صوت خالته زينة، يأتيه من الداخل، ثم فُتح الباب.

أجاب مبارك: «لا أنا يا خالة زينة مبارك. حد صفية عندكم؟»

- «نعم يا مبارك سكت، لا تتكلم لا شق! شفها من قبيلان هي وصاحبتها نور أخت مريم في قَنّة معاد بعدها!»

- «ولا بها شي لَه؟ أنا قايستها بها شي والا شي؟»

- «لا ما بها شي لَه، ذلا فضيلة يوم كذها نيزله من عندنا وبغت دارها عارضتها نور، وطلعت معها لمان غرفة يسلم، وهت يا كلام بنات. لمّان ذحين.»

- «كيه كيه يا خالة طرّبي عليها، وقولي لها مبارك يدوّرلش.»

- «طيب، باطرّب عليها.»

صعدت الأم إلى غرفة مريم، وأخبرت صفية بأن زوجها قد عاد من عمله، وهو يبحث عنها، وعاتبتها على تأخرها في الذهاب إلى بيتها: «صفية، صفية. شي مبارك هابط جاء يدوّرلش. يا ويلش منّه!»

- «يوه يمّه! كذ رجع مبارك من الشغل؟!»

- «آه كذ رجع، ذحين داريات انتين إنهم حتى الرجال كذ صلوا الظهر في المساجد؟ داريات بهوذا الشي والا لا؟»

ذُهلت نور من مرور الوقت بسرعة، وتساءلت: «يووه! ياخاه صدق هوذا؟!»

ردت الأم باستغراب وتهكُّم: «آه صدق، عاده فيه كذب هوذا الكلام أهواه؟! يالله قومي يا صفية لحقي زوجي يالمسهوية. خليها يا نور تروّح تلحق زوجها يا بتّي، لعاد يالله تقع مشاكل بينهم.»

أجابت نور: «توّها يا خالة زينة، وراني مسكتها أني؟!» ثم أردفت تخاطب صفية: «قومي يا صفية قدا امبارك قدّام ما يطلع ذحين يرعف نحنا!»

امتثلت صفية لكلام أمها، وانسلت في الدرج إلى حيث ينتظرها مبارك، ولما قابلته بدأ يلومها بغضب واضح: «ذحّين كنش يا صفية؟ آه جرى لش؟ آه خلّاش تجين عند أهلش وتخلين دارش مبهذل؟! يالله قدامي للدار هيّا، خلي نحنا نكمل العلاق هناك في دارنا.»

سارت صفية أمام مبارك كالحمل الوديع، حتى وصلا إلى منزلهما، وعندما دخلاه بادر مبارك بمعاتبة صفية بحرية تامة، فهما الآن في منزلهما، ولا يخشى هنا شيئًا أو أحدًا: «ذحين قولي لي لوّل يا صفية، ليه رحتي دار أهلش؟»

- «يومني فقدتهم. من وينك معاد بدا شفتهم.»

- «من وينك هواه؟! عادش ألا لش أسبوع من عرَّستي!»

- «ويومه، كنني ألا فقدتهم.» ردت صفية بعناد.

- «طيب وليه ما أقيتي حاجتش لوّل، وبعدين رحتي؟ آه قُت لش أنا؟»

- «ألا قُت بقعد قليل وتو باجي، ولا كذ رجعت بالقّي كل شي.»

- «وليه معاد رجعتي سَمِح؟»

- «ألا صاحبتي نور يوم كذني نِيْزِله باجي الدار، ألا وهي جات ومسكتني وطلعتني لمّان غرفة يسلم، وهت يا كلام أني وياها ولعاد حسينا بالوقت أبدًا.»

- «ليه ويسلم ماحد هو لَه؟ وينه يسلم؟»

- «لَه ماحد هو لَه. راح السوق يجيب بضاعة للدكان.»

- «طيب كان قعدتي قليل مع نور حقش ذي، وبعدين قمتي قدا حاجتش في الدار.»

- «قُت لك معاد دريت بالوقت أبدًا، من كلمة لا كلمة.»

- «وكله خرطان حريم! لا يودّي ولا يجيب. طيب وتشوفينه هوذا ريِّض يا صفية؟ تخلين دارش وتروحين تتخرّطين مع الحريم على حساب مسؤوليتش؟»

- «لا ما هو ريِّض. كذ عالقوني أهلي؛ أبوي عالقني وأمي عالقتني، وعاد انته ذحين تغلِّق الحسبة!»

- «يومه تصرُّفش غلط، ذحين صح ما بغيتي نحنا ننصحش لَه؟»

- «خلاص يا مبارك الله يهديك، شبعت نصايح اليوم، يكفي!»

- «وذحين شي نتيجة حقش المرواح هَه. الدار مبهذل، والغداء ماشي، والحَوَش طلع للنخر!»

- «خلاص بادخل المطبخ ذحين لوّل وبَقِّي الغداء أهم شي، وبعدين باكمّل حاجة الدار»

لم يتركها مبارك تُكمل حديثها، بل توجَّه إلى الحمَّام ليغتسل.

***

بعد لحظات سمعت صفية طرقًا خفيفًا على الباب. ذهبت لترى من يا ترى يطرق بابهم في مثل هذه الساعة؟ سألت الطارق: «هومن؟»

فجاءها صوت أخيها من الخارج هامسًا: «يسلم يسلم، فتحي يا صفية.»

فتحت صفية الباب فوجدت أخاها يحملُ في يديه صينية طعام، فقد وضعت الأم احتياطها عندما علمت أن ابنتها قد انشغلت بالحديث مع صديقتها نور، فأضافت غداء اثنين لغداء العائلة، وهاهو أخوها يسلم يتبعهما به.

فرحت صفية كثيرًا بالغداء، وقالت وهي تستلم الصينية من يسلم: «يوه الله يسلِّمها أمي، جزاها الله خير، جاء في وقته الغداء ذا. اشتقول ألا عطيتوا نحنا إياه هدية!»

- «هدية؟ هدية هواه؟! انتي قعي عاقلة، ومرة ثانية لعاد تكررين لي لقيتيه اليوم لَه، لوّل لقي شغلش وبعدين زوري الناس.»

- «ذحين حتى انته كذ دريت بالقصة أهواه؟ هومن ذا لي فتن عندك؟ بايقع مريم.»

- «صفية، ذحين أنا ما يهمنا هومن عطانا الخبر، لي يهمنا يا أختي انش تمشين في الطريق الصح، ولا تقصّرين في حقوق زوجش، شيه حرام هوذا.»

- «خلاص توبة يا يسلم، تووبة خلاص. هت الغداء ذا، والله معك.»

سلّم يسلم الغداء لصفية، واستدار عائدًا إلى بيتهم. بينما أغلقت صفية باب الدار، ودخلت تنادي على مبارك: «مبارك، مبارك. تعال بانتغدّى، تعال وينك؟»

حضر مبارك مسرعًا بعد أن أكمل غسله، وقال مستغربًا: «منتي قُتّي عادش ما لقيتي الغداء لَه؟»

- «ألا أمي الله يسلمها زيّدت غدانا عندهم، وذحين جابه يسلم. ما سمعته يدك قبل قليل لَه؟»

- «لا والله ما سمعته. كنته في الطهارة.» وأردف باستغراب: «كننا ما سمعته يوم يطرّب؟ هو ألا صوته كبير!»

أجابت صفية وهي تفرش السفرة: «ألا دكدك ببشيش، بايقع ما بغى الجيران يسمعون. يالله ذحين قعدنا نتغدّى. بسم الله.»

جلس الزوجان يتناولان الغداء الذي أحضره يسلم وأعدته مريم والخالة زينة.

***

في عصر ذلك اليوم وفي ساعة صفاء، سأل مبارك صفيّة: «صفيّة ألا باقولش حاجة، تعرفين تطحنين على الرحى؟»

ردت صفيّة على الفور: «لَهْ ما أعرف لَهْ ألا أمي تعرف، هي اللي كانت تطحن الطحين حقنا على الرَّحى.»

- «طيب آه رايش أنا نعلِّمش الطّحن؟ أنا نعرف شينا، المرحومة علمتنا.»

قال هذا وذهب إلى المخزن وأحضر منه حفنة من القمح. وبعد تنظيف الرحى بدأ مبارك بطحن الحبوب، وصفيّة تراقبه وتضحك؛ لأنَّها لم ترَ في بيتها رجل يطحن على الرحى!

دارت الرحى ودارت، وبدأ الدقيق يخرج من الجوانب. وبعد مرور فترة من الوقت، طلب مبارك من صفيّة الجلوس على الرحى؛ لتجرّب عملية الطحن بنفسها، فرفضت بشدَّة: «ماني ما اعرف لَهْ، مرَّه قعدت على الرحى حقنا باساعد أمي في الطحين وسحبت الرحى قَدايه كُذها ألّا باترعبلني!»

- «يومش سحبتيها قداش! ماحد يسحبها لَهْ، يدوُّرونها بس وهي في مكانها، وهي باتطحن. ألا باسألش يا صفيّة، آه تعرفين تقّين عادش؟ كذنا داري إنش تعرفين تطبخين الرز، وآه عاده تعرفين لُه؟ تعرفين ترهين الذّرة والدجر؟ شي عمَّتي عيشة خلاص راحت دارها، هومن ذخّين بايطبخ لنا وبايرهى لنا؟»

أجابت صفية: «نعم نعرف، ونعرف نغسِّل ونستقي، ماشي ألا الرحى ذي مَعرف لبوها أبدًا.»

- «يومش فزعتي منها ولعاد تعلمتيها، شوفيها الا سهلة، بس ما بغت حد يسحبها قداه أبدًا، انتي مُدِّي يدِّش سوا وتابعي الدَّرية حقَّها. ذخّين كيه قعدي وجربي وأنا عندش هنا، إذا غُلُطّي تو باوقفش، لازم إنّش تتعلمين الطحين على الرحى، ألا هومن بايقي لنا الطحين؟ والا معاد شي خبز بُر بيقع، بتقين لنا ألا خبز الذرة بالمِرْهَى وبس والا هواه؟ وبعدين عادنا باقولش شغلة ثانية، شوفي عم عوض صاحب المزرعة قال لي أنُّه بغى حرمة طحَّانة بايعطيها طعام تطحنه، وفي كل كيس عشرة مصاري، ولكذ خلصتها بايعطيها خُمسيَّتين شقاها على كل كيس. معناها باتحصل لها عدي. آه رأيش؟»

- «طيب باتعلم الطحن، لول كيه قم ذحين واني باجرّب.»

قام مبارك عن الرحى، وقعدت صفيّة تتعلم الطحن ومبارك يراقبها. استصعبت الأمر في البداية واشتكت، لكن مع تشجيعه لها ومساندتها وبعد محاولات عِدَّة بدأت تدير الرحى بصورة صحيحة وأسرع من ذي قبل.

فرحت صفيّة كثيرًا عندما رأت الطحين يخرج من جوانب الرّحى مثل مبارك وأمها تمامًا، فذهب مبارك إلى مخزن المنزل وأحضر المزيد من القمح، وجلسا طوال فترة العصر والأمسيات التي بعدها يتناوبان الطحن على الرحى، صفيّة بصعوبة، وأمَّا مبارك فبصورة سريعة جدًا؛ لأن الوالدة قد درّبته على فعل ذلك فهو يتقنه تمامًا، ويفعله أصلاً إذا كانت الوالدة مريضة.

الفصل العشرون: رمضان

في الأيام التالية بقيت صفيّة في الدار. كانت تكنس البيت وتستقي وتغسل الثياب عند البئر، وحين يحينُ وقت الغداء تطبخه وتنتظر عودة زوجها مبارك من المزرعة وهي في أحسن حال.

بعد بضعة أيام، وبينما كانت صفية تنظف المخزن وترتبه، تنبَّهت إلى جحلة صغيرة قابعة في زاوية بعيدة من زوايا المخزن. وقد أعاقت تلك الجحلة تنظيف صفية لتلك الزاوية.

عندما همت صفية بتحريكها ورفعها وجدتها ثقيلة عليها بعض الشيء، فغمغمت: «أوبببب! ذلا طلعت عِلّة الجحلة ذي! أحسن باخلّيها مكانها، لعاد يالله نكسرها وتقع فوق كوري بعدين.»

بعدها تركت ذلك الركن دون تنظيف وأكملت باقي مهامها اليومية.

في اليوم التالي، وقبل أن يذهب مبارك إلى عمله، حملت صفية مكنسة وملف القمامة ونادت على مبارك الذي كان متجها إلى خارج المنزل: «مبارك. مبارك. كيه آقف قليل.»

- «كنِّش يا صفية؟ شينا بغيت الشغل، لا تقطعين بي الله يصلحش.»

دخلت صفية المخزن، ونادت على مبارك ثانية: «ألا قليل بس، كيه دخل الوضيع.»

دخل مبارك المخزن فرأى صفية تقف عند أحد أركانه.

أشارت صفية إلى الجحلة الصغيرة وخاطبت زوجها: «الحجلة ذي المركوزة هنا ما خلتني ايحش الضبرة ذي أمس. كيه تعال رفعها قليل، مدة ما ايحش تحتها.»

اتجه مبارك نحو الجحلة وهو يدمدم متذمرًا: «لا حول ولا قوة إلا بالله! شكلش بغيتي باتقطعين بي.» ثم رفع الجحلة عن الأرض وهو يكمل: «يالله تخاربي، يحشي تحتها.»

انحنت صفية تكنس ذلك الركن بسرعة، وسألت مبارك: «وليه هيذي الجحلة ألا هنا ماهي عند خواتها هناك؟»

- «يومها حق رمضان يا صفية. وذحين يالله تحيمش...»

قاطعته صفية قبل أن يكمل: «خلاص خلَّصت. توّك طرحها.»

وضع مبارك الحجلة بحرص على الأرض ثانية، وخاطب صفية بحزم: «كنِّش انتبهي تفكِّينها يا صفية، ذلا شيها حق رمضان. ذهني تغرِّيش نفسش عليها، سمعتي والا لا؟»

هزت صفية رأسها موافقة: «طيب طيب. ما بقرب قداها أبدًا.»

اتجه مبارك نحو باب المخزن وهو يقول: «يالله، شينا روَّحت.»

ردت عليه صفية وهي تكنس التراب إلى الملف في يدها الأخرى الذي كانت تحمله: «توَّك الله معك.»

نهضت صفية عن الأرض، ودمدمت وهي ترمقُ الجحلة: «ورمضان ذا ما حصل ألا الوضيع حقنا يطرح جحلته فيه؟!» ثم تنهَّدت بعمق وأردفت: «معاد لها شي بس، لكذني بيحش المكان ذا باطرّب على مبارك يشل الجحلة، لمان يجي رمضان ويشل جحلته ونوهد منها.» ثم خرجت صفية من المخزن، وتابعت روتينها اليومي.

في الأيام التالية شغلت صفية وقت فراغها بشطف الخوص، الذي تعلَّمته من أمها، فكانت أحيانًا تجلس في مدخل الدار تشطف الخوص، وتصنع منه السلال والسُّفر الجميلة، وغيرها من أدوات الشطف؛ على أمل بيعها في دكان الوالد. وأحيانًا تعمد إلى رحاها تطحن القمح، فقد أجادت فعل ذلك بمرور الأيام. شيء واحد فقط كان يضايقها، ألا وهو متى يحضر هذا الرمضان ليأخذ جحلته من عندهم ويخلصهم منها!

مرَّت الأسابيع والشهور وصفيَّة كُلّما رأت شخصًا لا تعرفه يتلكَّأ عند باب دارهم تسأله: «أنت رمضان؟» فيجيبها لا.

لكن في يوم من الأيام، حدث بالصدفة أَنْ مرَّ رجل غريب كبير في السن أمام دارهم، وجلس يستريح من حر الهاجرة فقد كان يلهث من التّعب، وكان في هيئته كأنَّما يبحث عن مكان ما، وبدأ ينظر إلى صفيّة المنهمكة في عمل خوصها، مستغربًا سرعتها في إنجاز العمل مع صغر سنِّها.

انتبهت له صفيَّة وحدَّثت نفسها: «ذحين هومن الشيبة ذا؟ وليه يشَوَّف لي كذا؟ بايقع عاده هوذا رمضان، كيه بسأله» وسألته ببراءة: «ذحين هومن انته يا عمِّي؟ وراك رمضان؟»

أحسَّ الرجل الغريب أنَّ من وراء سؤال هذه المرأة أمرًا ما، فأراد معرفته وردَّ عليها كاذبًا: «نعم يا بتِّي، أنا رمضان.»

فأردفت صفية بعدها وكأنها تتأكد منه: «صاحب الجحلة لي عندنا ألَه؟»

هنا عرف الرجل الغريب أن ظنه في محله، فوافقها قائلاً بشيء من الخوف: «آه أنا صاحب الجحلة يا بتِّي.»

ابتسمت صفيّة فرحة، أخيرًا جاء رمضان ليأخذ جحلته! فتابعت: «وذحين مساهن مبارك لمان يجي من الشغل أهواه؟ شفه ألا عاده سَمِح ما بايطيع يجي لَه.»

فرح الرجل الغريب من كلامها، فإذن الرجل الذي يمكن أن يكشف هويته غير موجود، فتمادى في الحديث مع صفية: «ما يقول شي يا بتِّي، باقف له قليل إن جاء والا روَّحت.»

خافت صفية أن تضيِّع فرصة التخلُّص من الجحلة البغيضة من يدها! فقامت واتجهت إلى المخزن وفتحت بابه، ثم نادت على الشخص الغريب: «يا عم رمضان تعال شل جحلتك، لعاد تاقف لمبارك لمان يجي ولا حاجة، أني بعدين باكلّمه وباقوله إنَّك شلّيتها، شفه ألا طيب.»

فرح الرجل الغريب باقتراح صفية، وأراد استغلال هذه الفرصة السانحة لسرقة الجحلة، فتقدم بحذر ثم دخل الدار، فأرشدته صفية إلى الجحلة: «شفها ذيك جحلتك يا رمضان، شلها وتوكَّل.»

استجاب الرجل الغريب لكلام صفية، ورفع الجحلة الصغيرة التي أشارت إليها صفية على عجل، ثم حمَّلها على كتفه وغادر المكان بسرعة.

***

عاد مبارك من المزرعة بعد الظهر متعبًا، فقد عمل هذا اليوم بجد واجتهاد مضاعف؛ لينهي عمل نهاية الأسبوع ويقبض جعله من العم عوض، وعاد إلى بيته يلتمس الرَّاحة والهدوء.

قابلته الغالية صفية بابتسامة صافية، وبدأت في تجهيز الغداء الذي أعدته مسبقًا. كان مبارك قد أسرع إلى مخزن المؤونة، وأخذ من إحدى زواياه صندوق مدَّخراته ووضع فيه ما استلمه من العم عوض من مال هو جعله الأسبوعي؛ ليدَّخره مع العشرة قروش التي كانت قد بقيت معه سابقًا، فقد كان المسكين يجتهد ويضع القرش فوق القرش، عله يستطيع شراء مساحة من الأرض الزراعية يفلحها بنفسه فتعود غلتها له وحده، ويتخلص من كونه أجيرًا فقيرًا معدمًا.

عند دخوله المخزن لم يلحظ أبدًا اختفاء جحلة التَّمر الصَّغيرة من مكانها، بل توجَّه رأسًا إلى صندوق المدخرات وفتحه. لم يرق له أن يرى فيه الثياب الجديدة للمرحومة، فقد كانت تحتفظ بالجديد من الثياب في هذا الصندوق، ورؤيته لثياب المرحومة يبعث في نفسه ذكراها وهو ينشد السلوان، فقرر أن ينقل الثوبين إلى مكان آخر. وحين رفعهما من الصندوق سقط من أحدهما حزام أمه الذي لم يكن قد باعه بعد؛ لأنَّه كان محبَّبًا في ثنايا أحد الثوبين وليس في علبة المصاغ.

فرح مبارك كثيرًا لهذا المال الجديد الذي عثر عليه، وتمتم بينه وبين نفسه: «يوه يمَّه! الله يرحمش ويغفر لش. كل مساعة عطيتينا هديَّة وفرَّحتينا بها، حتَّى بعد ما متِّي تفرِّحينا وانتي في قبرش. عسى ربنا يدخِّلش الجنة يا رب.»

أخذ الثوبين وقربهما من فمه وأنفه يلثمهما ويشم فيهما عبيرها وعطرها ونشج بالبكاء، فما طاقت نفسه تحمَّل الموقف. وجاءه صوت صفيّة تناديه من بعيد، فتدارك أمره وأخذ الثوبين يداريهما في مكان أمين آخر، وترك الحزام في الصندوق ثم ذهب إلى الغداء حيث طال انتظار صفية له.

بعد الغداء سرح خياله في أحلام اليقظة، فقد عثر على حزام ثقيل من الفضة، في نهايتيه إبزيمٌ من الذَّهب الخالص! ومن المؤكد أن هذا الحزام سيكون مصدرًا من مصادر الثروة التي ينشدها، ووسيلة تحقق له حلم امتلاك مزرعته الخاصَّة.

استغرب مبارك كيف أنَّه لم يتذكَّره من قبل عندما لم يجده في علبة المصاغ، ربما ظن أن والدته قد باعته وتصرفت في ثمنه. أحس مبارك براحة غامرة، وراح يغطُّ في نوم عميق ولم يستيقظ إلا على صوت صفية توقظه لصلاة العصر: «مبارك، مبارك، هيَّا قُم صل العصر شفه أذن يكفي من نوم هيا.»

هبَّ مبارك من فراشه متثاقلاً يفرك عينيه وسأل صفيّة: «صفيّة عساش جبتي ماء من البير، شوفيه معاد شي في الخَزْبِة حق الطّهارة، شينا نسيت ما نبَّهتش الصبح، ولا أنا داري عرفتي من عمرش واستقيتي والا لا؟»

- «استقيته يا مبارك استقيته ومليت خزبة الطهارة وخزبة المطبخ. قم ذحين وقت صلاة العصر، شفه من قبيلان أذن، واني كمين مرّة نثوّرك، وانته نيم معاد جاء منك منبِّي في النوم أبدًا، شفهم ذحين بيقيمون الصَّلاة، هيَّا قم.»

قام مبارك من النوم متثاقلاً، وتوجَّه إلى الحمَّام يتوضَّأ.

بعد عودة مبارك من صلاة العصر، بادرت صفيّة زوجها تُبشِّره بشرى ظنَّتها ستكون سارَّة له فقالت: «الا باقولك يا مبارك، داري اليوم آه قُع؟»

- «لَهْ آه قع؟ خير اللهم اجعله خير.»

- «خير خير، ألا صاحبك رمضان، جاء وشل جحلته من عندنا وسكنَّا منَّها!»

- «رمضان من؟ وآه من جحلة شلَّها؟»

- «رمضان صاحب الجحلة لي في الوضيع، جاء وقعد فوق التكَّة حق الجيران ماقف لك لمَّان تجي من الشغل وتعطيه جحلته، يوم سألته عن اسمه وراه رمضان قال نعم، قمت أني فتحت له باب الوضيع وقت له تعال يا رمضان خذ جحلتك، لعاد تاقف لمبارك لمان يرجع ولا حاجة. ماهو الا دخل وحمَّلها وسرح. سكنَّا منَّها! شالت مكان في الوضيع ولا هي حقَّنا ولا حاجة.»

قال مبارك وقد بدا غاضبًا ومندهشًا من تصرف زوجته الأحمق: «ومن قالش إن الجحلة لي في الوضيع حق واحد اسمه رمضان؟!»

أجابت صفية بوجه حائر: «انته قُت لي.»

- «لا حول ولا قوة إلا بالله! يا بت الحلال حق رمضان الشهر، شهر رمضان. معناها بانوكل تمرها في شهر رمضان يوم تمرها زين يا المصمَّخة، آه من حرمة انتي! يا قهراه على تمر رمضان، كيه قومي يا حرمة ذحيبين من قدامي وروحي دار أهلش، لعاد تحرِّرين بي، قومي شلِّي نفسش.»

تفاجأت صفيّة من ردَّة فعل زوجها، فبدلاً من أن تُفرحه أغضبته! ولأول مرة بعد الزواج يطردها إلى بيت أهلها، فما كان منها إلا أن تنشج بالبكاء، ولبست حجابها، وأخذت بعض أغراضها، ثم غادرت إلى بيت أهلها.

***

مرَّت حوالي نصف ساعة على مغادرة صفية لبيتها قبل أن يهزَّ باب الدار طرق قوي، ثم يأتي صوت صديقه يسلم مناديًا له من الشَّارع: «مبارك... مبارك، فتح يا الصهر فتح.»

قام مبارك إلى الباب وفتحه، ورحب بصاحبه وطلب منه الدخول، فدخل وبادر بالسؤال: «آه لي حصل يا مبارك بينك وبين صفيّة، آه لقَّت بك؟»

- «بغيتنا نقولك آه بس، أختك ذي غشيمة جم يا خوي. معنا جحلة حق تمر مديني زين، عطانا إيَّاها عم عوض صاحب المزرعة هدية العرس، ويوم تمرها زين قُتْ بانخليها

لشهر رمضان بانوكلها فيه، قامت أختك البلهاء شافت رجال قاعد فوق تكة الجيران واسمه رمضان حملته إياها. يا قهري يا صاحبي يا قهري! ايش على تمر فيها، يقضقض!»

- «وهو الا حمَّلها وسرح؟ ما استحى على نفسه له؟»

- «حمَّلها وسرح! وذلا هواه؟ حصَّل له فرصة للسَّرقة، غدفها وسرح بها. يا قهراه يا قهراه!»

- «لا تتقهّر يا الصُّهر ولا حاجة، على هواه! رجال سرحت ما ضوت، يا سهلاه يا سهلاه. تمر رمضان حقكم شفه ذي السنة علينا، كذها ذي السنة ما شاء الله ما قصر الوالد في التَّمر أبدا، معنا زير ملان مديني يوم الشيبة يحبه، بانعطيكم منه لمّان تقولون بس، لا تحمل هم أبدًا.»

- «مانا من التَّمر وبس يا الصهر، بس لي تقِّية صفية ذا ماهو ريض أبدًا، تصدق يا يسلم قبل فترة شليتها معي للمزرعة بغيتها تفرح وتتنسَّم، قامت دحَّقت المُطُر حق البصل، وسهيت العاملات من عملهن، وعم عوض شاف بقعا ماهي ريِّضه، حنق وسأل العاملات من اللي دحِّق المُطُر قالين له صفيّة مَرَت مبارك. ماهو ألا جاء لا عندي وكلمنا على جنب، وقال لي لعاد تجيبها للمزرعة أبدًا شفها ألا غشيمة.»

- «أنا كذ حذّرتك منها من قبل يا مبارك، بس انته الله يهديك ركبت رأسك وطلبتها الا هي وقُتْ باتعقل، ذحين شف لي يحصل لك.»

- «الله يهديها ويطرح فيها الخير والبركة، ذحين تقي هواه عندكم؟»

- «آه تقي، من ساعة ما جات من عندك وهي تبعّق! عيونها كذها الا حمراء من البكاء.»

- «خلَّها تتدقَّس قليل منشان تعقل. الا على فكرة عادك شفت حد من أصحابك لي يبيعون الأراضي؟»

- «والله حصلت وحدة ودريت فيها بس حصلتها كبيرة عودة جم، وما باتقدر على عدِّيها غالية، صاحبها بغى فيها عشرين قرش، منين لك يا خوي؟ آه جاب عشرة عند عشرين! عادك بعيد جم.»

- «تصدق يا يسلم، أختك ذي برغم غشامتها لكن ربِّي الظاهر أنه راضي عنّها، ما شاء الله الرزق الا يتحذّف علي ببركتها! شفنا عادنا اليوم حصلت حزام حق الوالدة مطوي بين الثياب وعادنا ما بعته لأننا ما شفته أصلاً، ما كان في قصعة الفضة، حصلته الا بين ثياب الوالدة، يوم شليتهن باطرحهن في مكان ثاني ألا وذا سقط، ذلا ما شاء الله حزام ثقيل وفيه ثنتين قِرَص حق ذهب ثقال، بايقع الا بايجيب مبلغ وقدره، أنا بابيعه وإن تكملت العشرين باشتري الأرض لي تقول عليها ذي، إن كانها زينة وطينها زين باتزين الزراعة فيها.»

- «الأرض شفها زينة وطينها زراعي، وكبيرة باتقع مزرعة عليها عَمَد! أنا دريت فيها معاد تحتاج أبدًا، انت الا هت الفلوس ولعاد سيبك.»

- «الله يسهل لنا. ذحين شفنا باوصِّيك، لاكذك باتروح المدينة تجيب حاجة الدِّكان باعطيك الحزام، وباوصفك على المصاوغ اللي تعطي قيمة زينة في الذهب والفضة، وانته ما بتقصر معي، باتبيعه لي يا الصهر صح وألا لا؟»

- «نعم نعم، بعده شفنا باروح باجيب بضاعة، انت ألا هت الحزام ولعاد سيبك، باجيب لك ألا عدي فيه.»

- «خلاص آقف، ذحين باجيبه وبالفُّه لك في منديل صغيِّر وبعطيك إيَّاه، والله يسهل.»

غادر مبارك المكان ليعود بالحزام، وناوله يسلم ملفوفًا في خرقة صغيرة، ووصف له المصاوغ التي كانت قد اشترت منه في المرة السابقة، فعرفها يسلم وودع مبارك، وقبل أن ينصرف قال لمبارك: «وذحين صفيّة بغيتنا نقولها هواه؟»

- «لا تقولها شي أبدًا، خلوها عندكم كم أيام، بغينا العقل حقها يجي، وتقلع الغشامة ذي.»

- «طيب خلاص خل أبوها تتدقَّس قليل.»

أغلق مبارك باب داره على نفسه بعد مغادرة يسلم، وعاد إلى الوحدة والوحشة من جديد.

الفصل الحادي والعشرون: فرصة ذهبية

بقيت صفيَّة في بيت أهلها لثلاثة أيام، عاش فيها مبارك أسوأ أيامه بعدها، فلا أحد يؤانسه ولا أحد يطبخ طعامه أو يعلف مواشيه، أو حتَّى يكنس بيته ويغسل ملابسه، ولكنه صبر على ألم الفراق؛ من أجل أن تتعلم صفيّة الدرس وتحسن تدبير الأمور.

في اليوم الرابع حضر يسلم لدار مبارك؛ ليُعطيه قيمة ذهبه وفضته، فناداه من الشارع بصوته المرتفع كعادته: «مبارك... مبارك. يا الصّهر حد انته في الدار والا لا؟»

بادره مبارك بفتح باب الدار، ودخلاه معًا. سأله يسلم: «كيف حالك يا مبارك؟ كنك الا مغيِّص علينا، لا ظهرت ولا شي غير ما انته مريض؟»

- «المرض مانا مريض، بس حوشان وعادنا ما قُع لي أغمز قداكم. نضوي هلكان من الشغل ولا معي غير النوم.»

- «ولا يهمك يا الصهر، شفنا جبت لك أخبار زينة.»

- «هت يا يسلم هت، فرِّحنا شفنا من يوم راحت صفيّة وانا ضبحان ضبح معاد بعده ضبح!»

- «الذهب والفضة حق المرحومة شفنا بعتها، الفضة جابت قرشين، والذهب جاب ثلاثة قروش.»

- «آه تقول يا يسلم، يعني كله صفي على خمسة قروش؟! معناها قريب ألا قيمة الأرض.»

- «نعم ما شاء الله، انته معك عشرة وذي خمسة والباقي باتتدبَّر إن شاء الله.»

- «عادنا شفنا وفِّرت قرش فوقها من هنا وهنا، معناها معي ستَّعشر قرش.»

شرد مبارك بفكره قليلاً، ثم استدرك: «عادنا ألا بعيد يا يسلم، عاد أربعة قروش من ثمن الأرض، منين باجيبها؟ خلها على الله بس، الظاهر إن الأرض ذي ماهي مكتوبة لي لَهْ. خلاص يا يسلم شُف لي أرض ثانية تكون أصغر وأرخص.»

- «ماهو دايم تتوفر الأراضي لَه، ذلا بيضة من ديك شفها، فرصة وذهن تفوّتها يا الصّهر.»

- «وبغيتنا نجيب باقي الثَّمن منين؟ نسرق وألا هواه؟!»

- «لا باتسرق ولا حاجة، أنا باسلِّفك الأربعة لي عادها وانته ردَّها على مهلك.»

تهلَّلت أسارير وجه مبارك، وقال ليسلم بصوت عالٍ: «من صدقك يا يسلم؟ من صدقك؟!»

- «أيوا من صدقي، الكلام ذا ما فيه صفاط ولا ضحك، وانته يا الصهر إن كان ما اشترت الأرض الزينة ذي ما أظن إنك باتحصل كماها أبدًا، بقعا مقضَّبة شفها، ذلا ذي جات كما جات ولعاد بانفكَّها من آدانا، وعدِّي ما كلت عدِّي، غير كذها مطروحة معي. خلاص شفنا باكلّم صاحبها اليوم وباتفق معه، وانته بعد صلاة العشاء لازم تجي منشان تبصُّم على عقد البيع.»

- «تو اليوم يا يسلم؟ حار بحار!»

- «حار بحار آه، ألا بغيت حد يجي يلهفها قبلنا أهواه وبعدين نقول ياريت؟! معاد ألا خير البر عاجله يا صاحبي.»

- «خلاص اتفقنا، جزاك الله خير. أنا بعد صلاة العشاء باجيب لي معي وانته كذك باتجيب السُّلفة، و بانشتري الأرض.»

- «إن شاء الله. ألا شفنا نسيت يا مبارك ما أقولك، الوالد عازمك الليلة عندنا عالعشاء، بعد ما نوقِّع العقد حق الشراء طوَّالي لا عندنا سمعت؟»

- «إن شاء الله يا يسلم، غير كذ نحنا بانتلاقى في المسجد وبانروّح عند الوكيل مرَّة، وانته باتكون واحد من الشهود يا يسلم، كنك نسيت وألا هواه؟»

- «لا ما نسيت لَه، ألا بغيتك تحسب حسابك لعاد تتعذَّر بعدين ولعاد تحضر العشاء عندنا، بايحنق الشيبة.»

رد مبارك في عجل: «لا لا، إلا الشيبة يا يسلم! ما نقدر على حنقه أبدًا.»

- «يالله يا الصهر استودعتك الله ذحين.» بعدها غادر يسلم صديقه مودِّعًا.

***

في عصر ذلك اليوم، كانت صفية قد ذهبت لزيارة صديقتها المريضة ليلى، وعندما عادت قبل المغرب بقليل، نادت على أمها فوجدتها في المطبخ تغسِّل صحون الغداء التي تأجل غسلها؛ لانشغال النساء في أشياء أخرى كترتيب المنزل استعدادًا للوليمة.

جاءت إليها صفية تخبرها أنها قد عادت إلى المنزل، فأخبرتها أمها لما رأتها تُعلِّق قميصها في المطبخ بعد أن خلعته: «أيه أيه أيه! سمعي يا صفية، شلِّي قميصش هناك؛ منشان ما يتوسَّخ في المطبخ.»

فردَّت صفية باستعجال: «طيِّب يمّة، بارجع بعد قليل باشلُّه. ذحين ألا باروح باطهِّر لوّل لصلاة المغرب. خلي أبوه لوّل.» وسألتها: «وراها اليوم عندنا عزومة عشاء يمّة؟»

- «أيوه، أبوش وخوش عزموا مبارك اليوم للعشاء، وشيني كذ طرحت الصِّبغ في التنَّار؛ منشان ينجح.»

غادرت صفية والأم المطبخ، وعادتا بعد أداء صلاة المغرب لإعداد وليمة العشاء المدعو لها مبارك. حاولت النساء الثلاث بذل جهود جبَّارة لإعداد وليمة تليق بالمناسبة (مناسبة سداد صفية ومبارك) وبمناسبة شراء مبارك لمزرعته الخاصة بعد أن أخبرهم يسلم بذلك.

حاولت الأم إبعاد ابنتها عن المطبخ؛ حتى لا تُتعبها من جهة، وتريد منها أن تتزين بما فيه الكفاية حتى يراها زوجها مبارك في أحسن صورة عندما يأتي مع أبيها ويسلم بعد صلاة العشاء، فقالت: «صفية يا بتِّي، كيه انتي ألا قومي تعرَّبي ولبسي ثوب زين، خلِّي مبارك يوم يجي يشوفش ألا كما العروس. كيه يوم سدادش اليوم، وانتي قاعدة

كاكيه هَه مهتَّلِة! قومي قومي، شُطِّي في نفسش قليل، شيه ماهو ريِّض تقابلينه وانتي كما شِرْهِة لَه!»

استجابت صفية لكلام أمها، ودخلت الحمام تغتسل، وبعده لبست ثيابًا لائقة، وتزيَّنت بالكحل والمساحيق، ولبست مصاغها. بعد أن أنهت الأم ومريم وليمة العشاء، ذهبن إلى غرفة جلوسهن، منتظرات حضور الرجال.

***

بعد صلاة العشاء توجه مبارك ويسلم إلى الوكيل المُختص ببيع الأراضي والعقارات، فوجدا صاحب الأرض ينتظرهما عنده، فقد اتفق معه يسلم على كل شيء، وقد أحضر المالك معه وثيقة الأرض ليسلمها لمبارك ويستلم ثمنها.

بادرهما يسلم: «السلام عليكم يا جماعة.»

ردَّ الوكيل والبائع التحية معًا: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.»

وجَّه مالك الأرض كلامه للصديقين قائلاً: «هاه، آه قالوا؟ جاهزين بالعدِّي والا لا؟»

ردَّ يسلم عليه مؤكدًا: «أفا عليك يا بدر، ليه نحنا نصفط والا هواه؟! أكيد جاهزين. ذا شفه صهري مبارك المشتري.»

قال البائع موجهًا كلامه لمبارك ومادًا له يده يصافحه: «يا حيا بمبارك، كيف حالك عساك طيب؟»

- «الحمد لله يا خوي، أنا شفنا جاهز بالعدي.»

- «وأنا جاهز بالوثيقة يا الطيب، والله ما باتحصل أرض كماها أبدًا، كبيرة وشِرْحِة ما شاء الله، حلال عليك. والله إننا فرحان إنَّها باتكون من نصيبك؛ يومك إنسان طيب، وصهورك ناس طيبين ومعروفين.»

- «يالله على بركة الله. عدِّيك شفها ذي، عدَّها.»

قال مبارك هذا وأخرج من جيبه النقود التي أحضرها معه، إضافة إلى القروش الأربعة التي سلّفها له صهرة يسلم.

تناول بدر القروش وعدَّها، ثم أخرج وثيقة الأرض وناولها لمبارك، وهنا بدأ تدخل الوكيل: «يالله ما ذحين ما دام الأمور تمّت، شوفوا ذا عقد البيع، وقّعوا عليه اثنينتكم وهاتوا لي اثنين شهود بانبصّمهم على العقد.»

قال مبارك وهو يشير إلى يسلم: «واحد كُذُه عندنا، صهري يسلم. والثّاني بانطرّب عليه من لي يعبرون هنا، ذلا شفها شكليات.»

وهنا أطلَّ مبارك من المكتب، وعلى ضوء مصباحه رأى سعيد جاره مارًا من أمامه في طريقه إلى بيته، فناداه قائلاً: «سعيد، يا سعيد. تعال تعال ياخي، بغيناك هنا تعال.»

التفت سعيد نحو المكتب، فرأى مبارك يُشير له بيده ليأتي، فتقدَّم نحوه وسأله مستفسرًا: «وراكم كنكم؟ فيه شي والا شي؟ عسى ماشي شر؟»

طمأن مبارك سعيد: «ماشي شر لَهْ، الله لايجيب الشرور. ذلا بغيناك تشهد وتطرح بصمتك بس.»

- «نشهد؟! نشهد على هواه؟»

تدخل يسلم مخاطبًا سعيد من داخل المكتب: «ذلا مبارك بايشتري قطعة أرض من بدر، بارك له يا سعيد. أنا شفنا واحد من الشهود، وانته الثاني.»

اندهش سعيد مما سمع، وتقدّم خطوات نحو باب المكتب، ثم التفت نحو مبارك يسأله مستغربًا: «ليه يا مبارك باتقي لك دار ثاني والا هواه؟ آه به دارك يا خير دار! عادك ألا عرَّبته للعرس.»

- «آه من دار باقّيه يا سعيد الله يهديك آه من دار؟! ذلا باشتري أرض بغيتها مزرعة.»

- «ما شاء الله! الله يبارك، الله يبارك! ذحين باتقّي لك مزرعة؟» ثم التفت نحو يسلم وأكمل وهو يبتسم: «الله يخلي الصهور، الله يخليهم! والله إنّهم عليهم عمد يا مبارك!»

لم يرد مبارك أن يدخلَ في جدال مع جاره العزيز ليشرح له أمر مصاغ الوالدة، فوافقه الرأي قائلاً: «نعم نعم، الله يخليهم ويكثّر من أمثالهم. هيا هيا، عليك ألا دخل انته وبس.»

دخل سعيد المكتب وجلس كشاهدٍ ثانٍ. أكمل الوكيل إعداد الوثيقة، ثم طلب من مبارك وبدر وضع بصمتيهما عليها، وشهد سعيد ويسلم على ذلك. وبعد أن استلم الوكيل عمولته من كِلا الطرفين، انفضَّ المجلس.

دسّ مبارك وثيقته بحرص في حقيبة كان قد أحضرها معه، بينما أخذ بدر قروشه وغادر مودعًا. خرج يسلم ومبارك من مكتب الوكيل، وتوجّها معًا إلى دار العم عمر حيث الوليمة المنتظرة.

***

جلس مبارك في غرفة الضيوف مع عمه وصهره يسلم، وجيء بالعشاء، فأكل الجميع، وجاء موعد تقديم الشاي كعادة البلاد بعد الوجبات.

جاءت صفية تحمل صينية الشاي، ووقفت خارج الغرفة تقرع الباب؛ ليأتي يسلم ويستلمها منها، لكن أبوها لمحها فانفجر ضاحكًا وقال مداعبًا لها: «صفية دخلي دخلي، ماحد غريب هنا لَه! ذلَّا أبوش وخوش وزوجش! دخلي يا بتِّي دخلي.»

دخلت صفية ووضعت الصينية على الأرض، وهمّت بالانصراف، فاستوقفها يسلم قائلاً: «كنّش يا صفية كذا كما الشاة الشاردة! قعدي وشربي شاهيش ألا عندنا.»

استفزَّها يسلم بذكر الشاة، كما قد استفزَّها من قبل في دار زوجها، فلجأت إلى أبيها مشتكية من يسلم: «سمعت يابه يسلم يسب علي؟ سمعته وألا لا؟ شفه دايم يقولّي شاة شاة! اشتقول ألا أني بهيمة!»

نظر الأب إلى يسلم نظرة عتاب وقال: «عيب عليك يا ولدي، كيه قُم واستسمح من أختك.»

استجاب يسلم لأمر أبيه وقام إلى اخته يقبِّلُ رأسها.

ترددت صفية في الجلوس قليلاً وهي تسترق النظر باتجاه مبارك، ثم أخذت مكانًا قرب والدها؛ وكأنَّها تحتمي به من أي عتاب أو لوم أو تقريع تتوقعه من زوجها.

ضحك أبوها مرَّة أخرى، وأمرها أن تجلس إلى جوار مبارك، فأطاعته وجلست بجوار زوجها على استحياء وتوجُّس.

مبارك بدوره لم يرد إحراجها، فتجاهل وجودها إلى جواره ولم ينبس ببنت شفة، ولم يقل لها شيئًا. واستمر السَّمر في الغرفة، كان الرِّجال فيه يتناقشون حول مواضيع شتى في الحياة.

هنَّأ العم عمر مبارك على شرائه الأرض الزراعية: «أول حاجة مبروك يا ولدي مبارك على الأرض، شفنا دريت فيها وشفتها، روَّانا إياها يسلم، يا خير أرض ما شاء الله كبيرة، باتقع إيش على مزرعة لكذ اعتمرت!»

- «عسى العافية، ذحين بانبدأ نربِّت لها، عادها بغت ذيك الطّرايق!»

- «على قليل قليل، صنعاء ما ابتنت في يوم كما يقولون يا ولدي. أهم شي إنك نتفتها أوَّل، وبعدين كل شيء يهون، وألا آه رايك يا يسلم؟»

- «أكيد يابه أكيد، ربَّنا بايسهّل إن شاء الله.»

ومضى الوقت، كل ذلك وصفية جالسة بينهم تنقّل طرفها بين هذا وذاك ولا تقول شيئًا! فالرجال يتحدَّثون في أمور لا تعنيها.

وأخيرًا أدرك الوالد مرور الوقت، فاستأذن لينام، ولكنَّه وقبل مغادرة الغرفة التفت إلى مبارك وقال: «سمع يا مبارك، الله الله في البنيّة معاد باوصِّيك عليها» وأشار إلى ابنته صفيّة.

لم يقل مبارك حينها شيئًا لعمِّه، ولكنَّه هزَّ رأسه بالموافقة على كلامه. وماهي إلا دقائق معدودة واستأذن يسلم بدوره وغادر الغرفة.

التفت مبارك إلى زوجته، إذ لم يبقَ في الغرفة غيرها وقال: «ذحين آه رايش يا صفية باتضوين الليلة الدار معي والا عادش بغيتي باتمّين عند أهلش؟»

- «توّك انته بُصرك، إن بغيتني نضوي قفاك باضوي.»

أحس مبارك حينها بالرثاء لهذه المسكينة، فوضع يده على رأسها وأخبرها أنَّه سامحها على فعلتها: «خلاص يا صفية، المسامح كريم يا بت الأجاويد. كنِّش انتي قعي عاقلة، وشاورينا في أي شي باتقِّينه؛ منشان إنَّه غلط نقولِّش، تمام؟»

هزَّت صفية رأسها بالموافقة، ثم قالت بصوت خافتٍ: «خلاص توبة يا مبارك، توبة توبة. معاد بقِّي هوكذا أبدًا.»

- «يالله ذحِّين قومي لبسي قميصش وسرينا دارنا.»

فرحت صفية كثيرًا لحظة سماعها كلام زوجها وانطلقت إلى داخل المنزل كالسهم لتلبس حجابها. بحثت عن قميصها في غرف المنزل غرفة غرفة، لكنها لم تجده، فاستغربت الأمر، وقبل أن تهم بسؤال والدتها عنه تذكّرت أنها علقته في المطبخ عندما عادت من زيارة صديقتها.

ذهبت إلى هناك لتتأكد، فوجدته بالفعل. تناولته ولبسته وتوجَّهت إلى مدخل المنزل حيثُ ينتظرها مبارك.

الفصل الثاني والعشرون: زوجة مجنونة

عاد الزوجان السعيدان إلى منزلهما القريب في هدوء الليل. كان الناسُ حينها في القرية قد آوى معظمهم إلى الفراش فقد كان الوقت متأخرًا، والقرويون عادة لا يُحبذون السهر على الإطلاق.

في خلال سيرهما من بيت الأهل إلى منزلهما لم يكن يُسمع لأحد أي صوت، سوى وقع أقدامهما تحثُّ السير إلى منزلهما تحت جنح الظلام.

وصلا إلى منزلهما، وأشعل مبارك (البَاقُزْقُز) الموجود في مدخل المنزل؛ ليتسنّى لهما إيجاد طريقهما إلى الأعلى. صعدا بهدوء تام حتى وصلا إلى غرفة نومهما.

خلعت صفية قميصها، وعلقته على وتد خشبي في جدار الغرفة، ثم أوت إلى فراشها إلى جانب زوجها، عندما أحست بشيء ما يتحرك في جيبها ويلامس جلد صدرها. تحسسته فإذا هو صرصارٌ كبير بدأ يتحركُ في جسدها من الداخل بلا رحمة!

- «يااااي، يااااي، صفصاااف!» صرخت صفية بأعلى صوتها من الخوف والرعب!

حاول مبارك اسكاتها: «أصه أصه! سكتي، سكتي! ذحين بحسّش انتي والا بلا حس؟!»

باءت محاولات مبارك في تهدئة صفية بالفشل، فالصرصار في جيبها مرعوبٌ من اليد التي تتحسسه بين الفينة والأخرى، وهي أيضا مرعوبة من وجوده وحركته في جيبها، واستمرَّت تصرخ بأعلى صوتها من الرعب والفزع!

استيقظ الجيران من صراخ صفية المرتفع، وهم لا يدرون ماذا يجري. نادى سعيد جار مبارك عليه: «مبارك، مبارك. ذحين انته في الدار والا لا؟ آه الصولاق ذا؟! غير ماحد بُه شي؟»

شعر مبارك بالحرج، ولكنه لملم شتات نفسه وأطل من النافذة؛ ليطمئن سعيد: «ماشي يا سعيد لَه، ذلا الحرمة فزَّاعة يا خوي. فزعت من صفصاف في المرواح. العفو منكم يا أخواني، سامحوا نحنا ثوَّرناكم.»

ثم عاد إلى زوجته المزعجة وهي لا زالت تتقافز هنا وهناك عندما يتحرك الصرصار داخل ثوبها.

- «نفّضي ثوبش يا المغفِّلة بسرعة! ثوّرتي الجيران، نفّضي ثوبش!» قالها مبارك في ثورة من الغضب. كان حينها قد أنار مصباح الكيروسين، وعلى ضوئه استطاع رؤية الصرصار يجري ويحاول الاختباء بعد أن نفضت صفية ثوبها الذي كان عالقًا فيه.

تبعه مبارك بحذائه وقضى عليه، ثم عاد إلى فراشه لينام وهو يلوم زوجته على صياحها وإزعاج الجيران: «ماهو ريِّض منِّش يا صفية أبدًا، ثوّرتي الخلق!»

- «معاده منِّي يا مبارك، فجّع بي، يدبدب لي ويسرسر في. غرّم بي يا مبارك! ما قدرت اصبر.»

- «طيِّب خلاص، ذحين طفِّي الفانوص وخلي نحنا ننام. ألا بسألش، منين جاء الصفصاف ذا؟!»

- «ماني دارية، إن كانه من المطبخ حق أهلي؟ يومني علّقت قميصي فيه بعد ما وصلت المُغرب من برَّع الدار.»

ردَّ مبارك معاتبًا: «وانتي ما حصَّلتي ألا المطبخ تعلقين قميصش فيه؟! حد يقِّي هوكذا هو يا الهوجاء؟!»

- «واني وش عرّفني أنه بيدخل صفصاف فيه!»

- «أصلاً المكان لي طرحتيه فيه غلط. حد هو يطرح ثيابه حق مخرجه في المطبخ؟ لاهو حتّى من ريحه، بايروح ألا مطبخ! ذحين انتي ما تعرفين لَه؟ متاه باتتعلَّمين؟»

- «خلاص بس توبة. معاد بقِّي هوكذا لَه.»

- «دايم وانتي تقولين هوكذا، توبة توبة ولا تتوبين ولا حاجة! خلاص طيب خلِّي نحنا ننام ذحين.»

ما إن وضع مبارك رأسه على المخدة، إذا بصرصار آخر يسير في يده هو الآخر! فنفضه عنه بشدة، وبدون أن يقصد باتجاه زوجته صفية، فوقع على وجهها، فنفضته عنها بشدَّة وهي تصيح في الظلام: «مبااااارك. لحقني! واحد ثانييي، ثانييي!» وقامت بعدها تتقافز في الغرفة بصورة هستيريَّة!

- «أصه سكتي! ذحين جبتي لنا بهشة صفاصيف في قميصش ذا أهواه؟!»

- «مندرري، مندرري! عاد واحد ثاني جاء ذحين في وجهي.»

كانت صفية تصرخُ بقوة. سمعها الجيران أيضًا، ولكنهم هذا المرة -وقد عرفوا الأمر- لم ينادوا على مبارك ويسألوه عمّا يجري، بل سمع مبارك ضحكاتهم العالية؛ ساخرين من تصرفات زوجته المجنونة!

نهض مبارك وهو يسبُّ ويشتم، وأشعل المصباح من جديد، وبحث عن الصرصار اللعين، فوجده مختبئًا تحت وسادة صفية هذه المرة. أخذ مبارك نعله وهوى به عليه، فأرداه قتيلاً.

سمع الجيران مبارك يهدِّئُ من روع زوجته المضطربة، ويُطمأنها بأن لا وجود لأي صرصار في الغرفة الآن، كما قام مبارك بإخراج قميص صفية إلى خارج الغرفة، وتخلّص منه تمامًا.

جلب بعدها ملف القمامة وكنس الصرصارين فيه، ثم ألقى بهما من نافذة المنزل.

***

مرَّت الشهور على الزوجان وهما في أحسن حال وأنعم بال. كانت صفية الفتاة الصغيرة التي زوجها أهلها في وقت مبكر جدًا من حياتها، مثلُها مثل كل فتيات القرى والمدن في الأزمان القديمة، كانت في الرابع عشر من عمرها.

لقد تحملت صفية المسؤولية برغم صغر سنها بجداره، رُغم كل الصعاب التي واجهتها في بداية حياتها، وهي في الغالب صعاب تتعلق بقلة خبرتها للحياة، فتراها تقع أحيان نتيجة لذلك في مآزق، وتتسبب لزوجها في الكثير من المواقف المحرجة.

في أحد الأيام وبعد أن ذهب مبارك إلى العمل، انشغلت صفية كعادتها وغرقت في العمل؛ كنس البيت والاعتناء بالأغنام، وتنظيف المطبخ والحمام، ثم جاء دور الاستقاء وغسل الملابس.

كانت صفية قد جهزت كومة من الملابس لأخذها إلى البير وغسلها هناك، مثلها في ذلك مثل غيرها من نساء القرية. حملت ثيابها المتسخة ووعاء الغسيل والمسحوق الطيني المستخدم في غسل الملابس، وتوجهت إلى البئر.

كان الوقت ضحى، وكانت معظم النسوة قد فرغن من الاستقاء، ولم يبقَ عند البئر إلا واحدة فقط، جاءت بثيابها المتسخة تغسلها في مياه البئر، حيث الماء الوفير. كانت على وشك الانتهاء من عملها عندما وصلت صفية بثيابها أيضًا.

سلمت صفية عليها: «سلام عليش ياختي. تغسلين؟»

- «آه نغسل، كنني ألا مغالقه خلاص، عاد ألا الثوبين ذيلا وضويت.»

- «يا بختش، ماني عادني ألا باسبّر.»

- «ليه كذا يختي، تأخرتي. كان جيتي سمح منشان تضوين سمح.»

- «لول أقيت حاجة الدار.»

- «ليه ماحد معش مِكفِّي في الدار لَه؟»

- «لَه ماحد معي مكفِّي.»

- «الله يعينش يختي، باتغلقين ألا مع أذان الظهر.» ثم أضافت المرأة وهي تنهض: «يالله، ودّعتش الله، شيني ألا غلّقت.»

- «الله معش.»

ذهبت المرأة التي كانت تؤانس صفية في البئر، وبقيت لوحدها تدعك ثيابها المتسخة، وبين فترة وأخرى تقف على البئر؛ تنزح منه الماء اللازم لغسل المزيد من الثياب. كانت بعض النساء المستقيات تروح وتغدو إلى البئر، ينزحن ما يحتجن إليه من الماء ويغادرن.

انتصف العمل لدى صفية، فقد انتهت من غسل جميع قطع الملابس التي أتت بها بالمسحوق المنظف، ولم يبق إلا تصفيتها بالماء فقط.

نزحت صفية المزيد من الماء، وملأت به وعائها لتصفية غسيلها، بينما ألقت بالثياب كلها في مكان نظيف في محيط البئر، كما تفعل المغسلات عادة، ثم أخذت بعضها وضعتها في الماء النقي، ودعكتها جيدًا حتى صارت نظيفة تمامًا من المسحوق المنظِّف، فقامت بعزلها في مكان من البئر أعد لهذا الغرض، وهكذا واصلت عملها بصورة سريعة، حتى تبقى من الثياب ثلاثة ثياب فقط.

وبينما كانت تنزح المزيد من الماء لتصفية الثياب المتبقية، سمعت صفية امرأتين تصيحان ورائها. التفتت حينها لترى ما الأمر، وإذا بها تحس بشيء ما يتحرك صاعدًا في إحدى رجليها!

صاحت صفية هي الأخرى، ونفضت رجلها فإذا بفأر صغير يخرج من بين ثيابها ليجري هنا وهناك.

أخذت صفية تقفز في الزانة قفزات جنونية وهي تصرخ من الرعب، بينما غرقت المرأتان الموجودتان هناك في الضحك من خوف صفية الهستيري وصيحاتها المتوالية.

كان الجرذ حينها قد توارى عن الأنظار، ولكن أدركت صفية أنها قد أفلتت حبل الغَرِب، فعاد الماء إلى قعر البئر ثانية، وارتفع الحبل ليعلق خطافه في عجلة البئر العالية، وتعذر عليها وعلى غيرها مواصلة الاستقاء.

شعرت صفية بالأسف على ما اقترفت يداها، وحاولت استرجاع الحبل من الأعلى، وتهوَّرت عندما قفزت تحاول الوصول إليه قفزات متتالية، كادت في إحداها أن تسقط في قعر البئر!

صاحت المرأتان بأصواتٍ عالية؛ ليدركهن الرجال، وهرعت إحداهن لتمسك بثياب صفية، واستطاعت جرَّها بثيابها إليها وإنقاذها ودفعها في الاتجاه المعاكس للبئر.

حضنتها المرأة وهي ترتجف، وتحمد الله على سلامتها باكية. حينها خافت صفية، وحملت ثيابها المغسولة والمتبقية وعادت الى المنزل متخطية مجموعة من الرجال المتجهين نحو البئر.

***

على أصوات صياح النسوة هرع العم عاشور إلى المكان وهو يتكئُ على عصاه الغليظة، وصاح فيهن بصوته الأجش معاتبًا: «ذحين كنّكن تتصالقن يا حريم؟! آه حصل ليه هوكذا؟ ذحين حق شبع هوذا أهواه؟»

ردت إحداهن وكانت سليطة لسان مثله: «كيه حرمة عروس كذها ألا باتسقط قبل قليل في البير قال هواه!» قالت كلامها بصوت عالٍ، ونبرة غاضبة في الوقت الذي وفد فيه بضعة رجال إلى البئر؛ يستطلعون الأمر، ويستفسرون عمّا جرى، وسبب صياح النسوة.

نهرتها امرأة مسنة كانت بجانبها بصوت منخفض: «أص سكتي! تكلمي بشويش يا عيشة، عيب عليش!»

- «ليه ما سمعتي شيبة عِتَي ذا يسب نحنا لَه؟! ما سمعتيه قال علينا بنا شبع؟! ليه نسكت لُه؟»

حكت المُسنّة للعم عاشور ما جرى، فصرف الرجال الذين تجمعوا لمعرفة سبب الفوضى في الزانة، وأخبرهم أن الأمر قد انتهى، وحُلّت المشكلة. عاد الرجال إلى حال سبيلهم، بينما تفقّد هو المشكلة، ورأى أن حلها بسيط.

ذهب إلى بيته، وأخرج عصًا طويلة، مثبتٌ في أحد طرفيها خُطَّافٌ صُنع لحلّ هذه المشكلة حال حدوثها. ثبت الخطاف العالق في عجلة البئر بخطاف العصا التي أحضرها، وسحبه إلى الاسفل، فعاد الحبل إلى مكانه من البئر، وعادت النسوة للاستقاء من جديد.

بعد إصلاح المشكلة سأل العم عاشور عن هوية المرأة التي كادت أن تسقط في البئر بتهورها، فأخبرته النساء وقد عرفتها إحداهن بأنها عروس مبارك، الذي تزوج بها قبل ثلاثة أشهر.

تمتم العم عاشور متذمرًا: «آه ايوا ايوا مَرَت مبارك، كذ جوزها لقّى لنا مشكلة قبل فترة. ذحين هم ذيلا ما من وراهم ألا المشاكل؟! إنّه هو وإنّها مرته!»

ردت عليه المرأة المُسنّة: «ألا غشيمة مسكينة، غشيمة جم. قعدت تنطنط بغت باتجيب الخطاف اللاشع في المعجل، كذها ألا باتسقط في البير يا عم عاشور، والله كذها ألا نَوَّشَت، ألا عيشة مسكتها بقوَّة وجابتها قداها ماني ألا خلاص، كذني ألا اتنافض من الفزع، وحتى هي فزعت ورجعت ألا شلت ثيابها وروحت وعادها حتى ما خلصت تغسيلها.»

رد العجوز بارتياح: «أحسن يوم روّحت القُوْرِة ذي! سكنّا منها، بتقّي لبونا طَحْيِة ما كماها. معاد بغيناها تجي تستقي في البير ذي أبدًا، معاد حاجة، ذي المرّة لحقناها، والمرّة الثانية نحصلها ميتة في عين البير؟»

اعترضت إحدى النساء تعاتب العم عاشور: «يا حافظ عليها! تفل القاع يا عم عاشور! استغفر الله، كنك على الحرمة؟! عادها ألا عروس شفها.»

- «تُف يا حافظ، تُف يا حافظ! خلاص تفلنا القاع هَه. هيا انتين غلقن سقيكن وروّحن دياركن أقين الغداء حق الرجال حقّكن، وخلين اللّحي الزايد!»

قال العم عاشور جملته، ودخل إلى منزله وأغلق بابه.

***

أما ما كان من أمر صفية، فإنها لمّا وصلت بيتها غسلت الثياب المتبقية من الماء المخزّن في أواني الحمام، وقامت بنشرها في سطح المنزل، ثم توجهت الى المطبخ تعدُّ طعام الغداء.

عاد مبارك من العمل، فوجد الأمور جيدة، الغداء جاهز، والبيتُ نظيف، وكل شيء على ما يرام. سأل زوجته عن الثياب: «صفية، عادش غسلتي الثياب حقّي؟»

ردت صفية بصوت خافت؛ مخافة أن يكون قد علم أمرًا ما: «آه غسلتهن، طالع مبرحات في الريم.»

- «طيب، خلاص كيه قومي غرفي الغداء حقنا، وبانتغدى.»

لم تقل صفية شيئًا، وتوجهت إلى المطبخ تحضر الغداء. ما أن انتهى الزوجان من تناول الغداء، حتى سمعوا طرقًا قويًا على الباب.

نظر مبارك من النافذة، فإذا بالعم عاشور واقف هناك، ينتظر أن يكلمه أحد، فاستحثه مبارك على الكلام: «عم عاشور؟ يا حيابك، بغيت شي ولا شي؟»

نظر العجوز إلى الأعلى، وقال وهو يومئ لمبارك: «اندر اندر، باكلمك اندر.»

خرج مبارك إليه متثاقلاً، ومستغربًا هذه الزيارة المفاجئة. فتح باب داره، فأخذه العم عاشور إلى شارع آخر بعيدًا عن المنزل، وكأنه يريد أن يخبره سرًا لا يريد أن يسمعه أحد!

وبعد أن بعدا عن المنزل ما فيه الكفاية. سأله مبارك: «كنّك يا عم عاشور؟ ليه سحّبتنا لا هنا؟!»

- «يومنا ما بغيت مرتك تسمع كلامنا لَه.»

- «ومن قال لك إنها بتسمع كلامنا؟ هي ألا طالع.»

- «ويومها، خاف ألا تسمع.»

- «طيب وذحين قُل، آه فيه؟ شُفك شغبتنا!»

- «ألا جيت باشتكي بمرتك عندك.»

- «مرتي أنا؟ ليه من وين تعرفك؟ ذحين انته تخرّف والا هواه؟!»

- «خل الغلط حقك وسمعنا. اليوم مرتك جات البير، وقعدت تغسل ثيابها فيها، ما قلنا شي، كما الحريم. كنّها لما نط جرذ فيها صلقت بصوتها كله حق فزع، ولمَّت الرجال عند الزانة، ذا اللي ما هو ريض. خلاص يومها ألا فزّاعة ليه عادها تجي للزانة؟ اليوم نط فيها جرذ، وساعات الحريم يحصلن حناش في الزانة ذي، ولا يقين لي لقّته. يجين لا عندنا ويقلن لنحنا، ونحنا نندر ونقتل الحنش والا الجرذ، ماحد يصولق منّهن لَه.»

- «خلاص يا عم عاشور، أنا باعالقها، وباخليها يوم تروح الزانة وتستقي تروح ألا وهي ساكتة.»

- «مرتك ذي معاد بغيناها تجي الزانة أبدًا يا مبارك، خلوا حرمة تستقي لها بالعدي. خسروا عليها، ذلا انته عادك منته داري آه لقّت عادها.»

- «آه لقت الغشيمة ذي؟ آه لقت يا عم عاشور تكلّم.»

- «يوم فزعت من الجرذ كان الحبل حق البير في يدَّها، فكته وخلت الماء يطّير ويرجع في البير، والحبل شرد عليها وحنب خُطافه في المعجل.»

- «طيب يا سهلاه، حد منكم بايجيبه بعصا طويلة وباتغلّق المشكلة.»

- «يا ريتها بعد ما حصل هوذا بعدت، ذلا رجعت تنطِّب وتطاول للخطاف لي مغروق في المعجل؛ بغت باتجيبه وباترده حيته كما يوم حصلته وفي مرّة من المرات لي نطت فيها ألا نوّشت، وكذها ألا باتجي في عين البير! ألا ربك، حرمة قفاها مسكتها بثوبها وسحبتها لا قداها، وربك ستر وسلمت. اليوم ذا لحقتها الحرمة ذي، يوم ثاني ماحد عندها باتسقط في عين البير، وبانطلعها ألا ميتة. يرضيك الكلام ذا يا ولدي؟ يرضيك؟»

- «وعاده بغى كلام؟! لا ما يرضينا ابدًا كيه مرتي وتهمّنا مصلحتها. ذحين انته بحسك انته والا بلا حس؟!»

- «خلاص يا مبارك، حرمتك ما لها ألا مستقية، خلوها تستقي لها، وتوصّل لها الماء لمَّان دارها أحسن، مانا شفنا قُت لي عندي، إن باتسمع كلامي كُذُه، وإن ما باتسمع بُصرك. أنا لي علي لقيته، وقُت لك بلي حصل.»

- «خلاص جزاك الله خير يا عم عاشور، وأنا باتفاهم مع الحرمة ذي، وبانشوف حل إن شاء الله.»

- «خلاص، ودعتك الله. والعفو منك إن شقّيت عليك، ذلا لمصلحتك ومصلحتها.»

ذهب العم عاشور وبقي مبارك مذهولاً مما سمع، دارت به الأرض، فجلس على مصطبة الجيران القريبة، وفكر ماذا يفعل؟ وكيف يتعامل مع هذه المرأة المتهورة؟ وللحظة أحس مبارك بالندم من زواجه منها. ماذا لو حصل المحذور لا قدَّر الله وسقطت في البئر، لكان الآن يستعد لدفنها في مقبرة القرية!

- «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، أستغفر الله العظيم. عرّست باستريح، رجعت غفّل وصيح! خلاص ما ذحين، قدّر الله، بانوكّد حرمة تستقي لنحنا، اشتقول تجار! وبعدين أقي هواه؟ مقدر ومكتوب علي.»

قطع عليه جاره سعيد حبل أفكاره عندما سلم عليه عائدًا من صلاة العصر: «كنك يا مبارك مهموم؟! غير ماشي شر؟»

- «لا لا الحمد لله يا خوي، ذلا قاعد اتنسَّم فوق التُّكّة حقكم، وذحين باقوم.»

- «لا لا توّك قعد قعد على راحتك، وتنسّم لمان تقول بس. ألا شفتك تُصْرِي قُت بادرى بك.»

لم يرغب مبارك حينها في الحوار مع أحد. صعد داره وصلى العصر، ثم نام مهمومًا. حتى صفية لم يناقشها في شيء مما دار بينه وبين العم عاشور أبدًا، وهي أيضا لم تسأله حتى لماذا يريده هذا الرجل، وهي لا تدري أنه جار البئر، بل ظنته أحد زملائه في المزرعة فكان بالها مطمئنًا تمامًا.

قرر مبارك بينه وبين نفسه أن يعمل عملاً إضافيًا؛ لتوفير أجرة المستقية، ويُعفي صفية من الذهاب إلى البئر بشكل نهائي، وحين ناقشها في الأمر في اليوم التالي اعترضت: «لا لا يا مبارك، أني ألا ريّضة نستقي.»

صاح مبارك فيها: «نقولّش قعدي في الدار، والماء بايجي لش لمّان عندش. سمعتي والا لا؟»

- «ذحين كنّك كذا؟! حد قالّك شي أهواه؟»

- «آه حد قالّي شي، أكيد. آهـ يختفي يا رسول الله، قال لي ما يكون!»

- «آه ذحين ذا؟ هومن هوذا الفتَّان لي قالّك؟»

- «وانتي ياخنّش بغيتيهم يسكتون؟ منشان يوم نجي نحصّلش مِطِفِّفِة فوق الماء حق البير ميتة ولا هواه؟!»

أجابت صفية بلا مبالاة: «ألا هن الحريم فزّاعات!»

- «وانتي اللي ما شاء الله عليش، ما انتي فزَّاعة لَه؟ ألا متاه باتفزعين؟ لما كذش ميِّتة أهواه؟ ذحين سمعي هَه، سكتي خلينا نام لي قليل، يمكن الضارب ذا لي بايشرخ راسي يتباخر.»

تساءلت صفية بجرأة: «زاد الضارب حقَّك اليومين ذي!»

- «أيوا ما شاء الله، يومنا معي حرمة جويِّدة وصمصومة وتسمع الكلام وعاقلة!»

- «يخاه هواه هوذا؟!»

- «يخاه خلينا نام يا صفية من فضلش.»

تركته صفية ينام، وجلست بجواره تشطف بهدوء حتى أذن المغرب.

الفصل الثالث والعشرون: عمل مسائي

بعد صلاة المغرب، ذهب مبارك إلى يسلم في دكانه للحديث معه وطلب نصيحته في أمره. حيّاه قائلاً: «السلام عليك يا يسلم.»

- «يا حيّا بمبارك، يا حيّا بالصهر. آنست.»

جال مبارك بنظره يبحث عن عمّه فلم يجده، فسأل يسلم: «وين عمّي عمر؟ كنّه ماحد هو؟»

- «عمّك عمر عند العجوز، عاده ما اندر لَه. خير، بغيت باتقوله شي والا شي؟»

تشجَّع مبارك في مصارحه يسلم بالأمر بعد أن علم أن عمَّه غير موجود، وقال: «والله إن بغيت الصدق يا يسلم، بغيت باقولك انته، وأحسن يوم عمّي ماحد هو.»

- «ليه خير، شي حصل والا شي؟»

حكى مبارك ليسلم حادثة البئر التي حدثت لصفية بالتفصيل، فردَّ يسلم وقد تملّكه خوف كبير على أخته الوحيدة: «لا حول ولا قوة إلا بالله. الحمد لله على سلامتها. وذحين آه باتقّي يا مبارك، شف مسراحها للبير ألا فيه خطر عليها كما يوم قال عم عاشور.»

رد مبارك باستعجال: «أنا داري يا يسلم، داري بالكلام ذا، ومنعتها إنها تروح البير مرّة ثانية.»

فسأله يسلم بدهشة: «ألا هومن بايجيب لكم الماء يا مبارك؟ هومن؟»

- «بانوكِّد مستقية تستقي لنا يا يسلم، وبَعِد!»

- «قل معاد باتطلع من الحفرة أبدًا!»

- «وبغيتنا نقّي آه يا صاحبي؟ شي معك شغل لي في العصريات؛ منشان قليل نوفِّر لنا خمسيِّتين؟»

أطرق يسلم قليلاً يفكر في أمر كان قد نسيه ثم تذكّر فجأة: «والله شف حظك زين يا مبارك.»

- «هت، بشّر يا خوي.»

- «تعرف عبدالكريم زين، ذاك ود المشايخ؟»

- «وراه يا يسلم؟»

- «قال بايفتح له دكان حق أوعية حق دار وبغى حد شغال فيها من الصبح لمّان الظهر، وبعدين من صلاة العصر لمّان المغرب. وما شاء الله شفه قال بايعطيه مبلغ وقدره.»

- « كم بايعطيه يا يسلم؟»

- «قال بايعطيه ثلاثة قروش في الشهر.»

- «مانا الصبح مانا حوله، أنا ألا في المزرعة حقي، كن العصر نعم، موافق نشتغل.»

رد يسلم مؤكدًا: «ألا هو بغى شغّال صبح وعصر.»

- «طيب آه رايك يا يسلم يوم نتناوب اثنين على الشغل ذا؟ ونتقاسم العدِّي، بايقع بايرضى الشيخ؟»

- «بايقع ألا بايرضى، هو ألا له محل مفتوح صبح وعصر وبس.»

- «خلاص، أنا باشاور صاحبي محفوظ إن بيمسك الشغل الصبح، وأنا العصرية. وانته شف الطبين وقلُّه هوكذا، اثنين بايتناوبون على الشغل، إن كانك موافق سبرنا، وحتّى قلّه ذلّا صهري وصاحبه. كننا شفنا باستامن عليك يا يسلم.»

- «ولا يهمك يا مبارك أبدًا، اليوم بعد صلاة العشاء باروح لَه لا داره عَانِي، إن كان ما حصّلته في المسجد. وإن كان ماحد هو جاء عندي هنا في الدكان. استامن يا مبارك، باكلمه وباشوفه يقول هواه.»

- «ألا قلّي يا يسلم، كاكيه أقّي في البيع ذا؟ أنا ألا شفنا حق سناوة وبس!»

- «ماشي تحته البيع لَه، باتحفظ أسعار البضاعة بس، وباتبيع باللي يقولّك عليه. وباتوفّر لك قليل عدّي تنفعك.»

- «والله ما نحنا داريين منشان الحريم ذيلا نقّي آه.»

- «حدد يا مبارك حدد. قل منشان الحريم الغشام المغاريم ذيلا. الله يكون في عونك يا صاحبي.»

- «تصدِّق يا يسلم يا خوي إننا ذحين بس وأنا كلمك قاعد ولانا قاعد! لأننا فزعان على صفية من نفسها حتى يوم تكون وحدها في الدار، لعاد تقي شي يضرها، فزعان عليها جم.»

- «طيب وآه باتقّي؟ باتجيب لها عمَّتك عيشة عندها تناوسها؟»

- «تخلي غنمها وشغلها ودارها وتجي على يال صفيّة يومنا فزعان عليها؟! مانا ما بستانس قولها هوكذا لَه.»

- «معاد ألا خلاص، عليك بالصبر يا صاحبي ربك يلطف. انته عليك ألا دع لها بالعقل يرسخ، وتبطّل حقها الغرام ذا، وهي إن شاء الله مع الأيام باتعقل.»

- «إن شاء الله يا يسلم، إن شاء الله. يالله ودَّعتك الله، باروّح بالحق العوق لي في الدار ذي! سلّم على عمّي عمر وعلى خالة زينة.»

- «يصل إن شاء الله.»

عاد مبارك إلى داره؛ يطمئن على صفية، فوجدها في حال جيّدة تشتغل بشطفها بهدوء وسكينة. سألته بفضول بعدما دخل المنزل: «ذحين وين رحت يا مبارك؟ قبل قليل طرّبت عليك ما ترد علي؟»

- «ألا رحت قعدت عند يسلم قليل نتنسَّم.»

- «حد أبوي عنده؟»

- «أبوش ألا طالع قاعد عند الوالدة.»

- «ألا شفه مسكين معاد لُه طَرْبَة في الدكان سوا لَه. أحسن له يرتاح له، مادامه يسلم في الدكان خلاص.»

في هذه الأثناء، سمع الزوجان أذان المغرب يأتيهما من بعيد، فأخبر مبارك صفية أنه ذاهبٌ إلى المسجد، وكان في نيَّته أن يُقابل محفوظ، ويطرح عليه مقترح العمل في دكان الطبين عبدالكريم زين.

***

في طريقه إلى المسجد حدَّث مبارك نفسه: «إن شاء الله يوافق محفوظ على الشغل ذا، وأنا قدّر الله بافتح الدكان العصر على ضروسي، ويومنا باجي تعبان من المزرعة، ويالله بعدين قوموا روّحوا الدكان عادكم. ألا حد قال لبوك تعرّس على المطفوشة ذي؟ ذحين استلم لي يقع لك!»

في هذه الأثناء كان مبارك قد وصل المسجد في وقت إقامة الصلاة، فصلّى المغرب. وبعد السلام، بدأ يبحث عن محفوظ حتى وجد يسلم قد سبقه إليه يُحدّثه في الأمر، فانضم إليهما: «سلام عليكم يا جماعة. هاه قُت له يا يسلم بالخبر؟»

- «نعم قُت له يا مبارك، سمع منّه هَه.»

قال محفوظ مترددًا: «والله يا مبارك الشغل ذا أنا محتاج له، ألا يومه رَبْطَة! ماهو أيام باتقّيه وأيام باتخلّيه. لَه خلاص، باتقع لك ربطة.»

ردَّ عليه مبارك باستغراب: «وانته ليه ما بغيت الربطة ذي؟!»

- «يومنا ساعات نحصِّل لي فَقْعَات هنا وهنا! بعدين خلاص، معاد شي فقعات باتقع!»

- «كيه باتستلم قرشين قال هواه؟! وإن كان معك فقعات لقّها العصريات، عادها لك.»

حكَّ محفوظ جانب رقبته لبعض الوقت مفكّرًا وهو ينظر للأسفل. بعدها نظر إلى مبارك قائلاً: «طيب خلاص موافق. عادنا أوّل باشاور الوالدة.»

عندما ذكر محفوظ والدته تذكر مبارك إنَّها تعمل مستقية للبيوت، فأوقف محفوظ الذي همَّ بالإنصراف، وخاطبه بعد أن تلفَّت يميناً وشمالاً؛ ليتأكد من خلو المكان من المصلين: «ألا على ذكر الوالدة يا محفوظ، باقولك شاورها إن كان معها نفس لنا.»

- «يخاه هواه نفس لكم يا مبارك؟!»

- «بغيناها تستقي لنا مرّتين في الأسبوع بس، معناها في الشهر ثمان مرّات وأنا من ناحيتي باعطيها ربع قرش. انته باتخصمه من عدّي الطبين لي بايعطي نحنا إياها.»

لمعت عينا محفوظ فرحًا وقال: «معناها أنا لي من الشغل قرشين وربع؟»

- «أيوا هوكذا، بايقع باترضى الوالدة؟»

- «ليه وصفية مرتك آه بها؟ خلها تستقي؟»

تدخّل يسلم هذه المرة: «عادها صغيرة يا محفوظ، ماهي حق سقي له، وغشيمة. انته شاور الوالدة، وإن وافقت، ربع القرش لكم ولا للغير.»

- «طيّب باقولّها وباشاورها.»

قال يسلم وهو يهمُّ بالانصراف: «طيب خير إن شاء الله. مانا روحت يا جماعة، عادنا بالحق الطبين قبل ما يشغَّل حد ثاني.»

***

غادر يسلم وذهب إلى بيت الطبين عبدالكريم؛ ليخبره بأنه قد وجد له من يعمل عنده في دكان الأواني. لم يجده في المنزل بعد أن نادى عليه، ولكن إحدى النساء أخبرته أن قد ذهب إلى متجره يُرتِّب بضاعته. فتوجّه يسلم إلى هناك، بعد أن اطمأن أن أباه قد فتح الدكان بدلاً عنه.

- «سلام عليك يالشيخ، آه الأخبار، خلّصت والا عادك من الصَّفَّة؟»

- «خلصنا يا يسلم، حوّش بنحنا الدكان ذا، من الصبح وأنا غارق فيه. يا حيّابك. آه شفته، زين؟»

- «معاد بعده، شفك تعرف تصف يالشيخ. كل شي في مكانه، ريض ريض. ألا بسألك، عادك حصّلت لك عامل يشتغل فيه والا لا؟»

- «لَه عادنا، حصلت واحد بس طمّاع، بغى أربعة قروش.»

- «أربعة قروش على هواه؟! حتى الثلاثة عادها ألا جم. طيب شفنا حصلت لك لي بايشتغل، بس شفهم اثنين بايتناوبون، واحد بايجي الصبح، والثاني العصر.»

- «توّهم ما عندي مانع، أهم شي الأمانة بس.»

- «من الناحية ذي اطمّن، ذلا واحد صهري مبارك، كذك تعرفه. والثاني صاحبه محفوظ وحتى ذا تعرفه.»

- «هَه هَه ما شاء الله. خلاص خلاص موافق يا يسلم. جزاك الله خير يومك جبتهم لي. خلاص حتى من غدوة خلّهم يستلمون الشغل. شفنا ألا غلقت من صفَّة الدكان، باعطيهم قفوله، ومن غدوة بغيته ينفتح.»

رد يسلم مداعبًا: «أيوا ولا باتقّي لنا عزومة حق الافتتاح لَه؟»

- «ولا يهمّكم، الجمعة اللي باتجي باتقع ألا عزومة رز ولحم في داري.»

- «والنعم يا الشيخ، ما باتقصّر أبدًا. خلاص شفنا باقولهم بالخبر ذا.»

- «توك، والقفول حق المحل لا كذنا بضوي باعبر بهن للدكان حقكم، تمام؟»

- «طيب تمام، وأنا لا كذ انته سلمتهن لي باسلمهن لهم. وذحين هيّا، شفنا روّحت، بالحق الشيبة في الدكان، وحده بايعالقنا.»

توجه يسلم بعدها إلى بيت مبارك وأخبره بالموافقة، وطلب منه إخبار محفوظ بالأمر، والمرور عليه بعد صلاة العشاء في الدكان لأخذ المفتاحين. هكذا وجد مبارك لنفسه عملا ليزيد فيه دخله، ويُعفي زوجته من استقاء الماء، وتعريض نفسها للخطر.

***

في الأسبوع التالي، وبعد الغداء بدت على وجه الوالدة زينة مظاهر القلق الشديد، لم تتناول غداءها كعادتها، ولاحظ ذلك كل أفراد العائلة. سألها زوجها: «كنّش يا زينة ما تغدّيتي؟ غير ما بش شي؟»

وافق يسلم أباه: «صدق يمّه، كنّش؟ غير ما بش شي.»

ردت الأم بتردد وحزن: «آه نقولك بس يا يسلم، بغيت باروح بازور بتّي، فقدتها.»

- «ليه آه بها يمّه؟ عادنا ألا أمس عندهم، ما بها شي أبدًا.»

حينها لم تعد الأم تطيق صبرًا على ما يعتمل في صدرها، فخاطبت زوجها بتوسّل وتلعثم واضح: «سمع يا عمر... شفني... شفني بغيت باقولك حاجة، بس ماني دارية كاكيه جيبها لك.»

رد عمر متضايقًا: «هاتيها وبس، زقلي بها يالله...شغبتي نحنا!»

- «ذلا صفية يا بو يسلم، شفها ألا صغيرة على السناوة مسكينة.»

ردَّ الأب بثقة تامَّة: «خلاص ما ذحين معادها صغيرة، عرّسنا لها يا زينة، باتتعلم باتتعلم.»

انفجرت زينة بعصبيَّة مفاجئة استغربها زوجها: «باتتعلم هواه؟ والله باتغتز في عين البير، وبايجون بايحصّلونها ميّتة فيها!»

- «ذحين آه الوساوس ذي يا حرمة؟! كلّه ذا يومش بطيّة منّها؟ خلاص روحي العصر وشوفيها.» هكذا أجاب العم عمر. أما يسلم فقد علم أن خبر أخته عند البئر قد وصل إلى أمه من إحدى النساء، لكنه انتظر ما يُسفر عنه النقاش بين أبويه، قبل أن يقول رأيه.

واصلت أم يسلم باستعطاف بالغ: «بس يا بو يسلم، لو ساعدنا مبارك قليل، وعطيناه أجرة مستقية تستقي لهم في الشهر بانساعد بتّنا، وكل شي بفضله.»

ردّ العم عمر غاضبًا: «آه آه آه ؟! أجرة مستقية ليه؟! زوجها مسؤول عنّها، وأنا آه سيبي؟ بتّش اندرت من رقبتي لا رقبة زوجها. خلّي الخراط حقّش يا حرمة!»

صاحت زينة بغضب ويأس في وجه زوجها: «خلاص آقف لمّان يقولون لك تعال دفن بتّك.» واسترسلت تحكي حكاية صفية والبئر وكيف أن إحدى النساء أنقذتها، ولولاها لكانت الآن في قبرها. كان صوتها يتقطّع، وعبراتها تخنقها وهي تحكي لهم ما سمعته قبل قليل من إحدى النساء الزائرات لها.

هنا صاح العم عمر بلا شعور: «بتّي؟! يا حافظ على بتّي! ماشي شر عليها» ثم التفت إلى يسلم قائلاً: «ذحين هوذا الكلام صدق؟ قل لي يا يسلم، يومك كنت عندهم، قلّي ولا تخبّي علي.»

- «آه صدق يابه، مبارك جاء وقال لي في نفس اليوم، ولا بغى منكم شي ولا حاجة. خلاص هو حل المشكلة.»

صاحت الأم بفرح: «كاكيه يا ولدي، هو مبارك بايستقي بدلها أله؟»

- «لَه، بغيتيه يستقي في زوين الحريم يمّه؟!»

- «ألا كاكيه حلّها يا ولدي؟ تكلم يا الغويط!»

- «وكّد لها مستقية، أم محفوظ. هي باتستقي لها، وهي معاد باتروح البير أبدًا باتمّي ألا في الدار كما بنات الدُّوْلِة، منعها مبارك تو يوم سمع القصة.»

- «يووووه الحمد لله! والله إنه مسكين مبارك ذا، وذحين منين بايجيب عدّي المستقية؟ منين؟»

- «اشتغل العصر منشان يجيب عدّي المستقية لبتِّش يمّه.»

- «الحمد لله. وفيين اشتغل المسكين ذا؟»

- «في دكان حق مواعين، عاده ألا فتح قريب حق عبدالكريم زين.»

- «خلاص خلاص، وافي عليه. ما بتّي ألا غشيمة، عادها ماهي حق استقاء لَه. وافي عليه، وافي عليه.»

***

كان مبارك قلقًا من ترك صفية لوحدها بعد حادثة البئر هذه، فقال محدِّثًا نفسه: «الصبح باتكون هي وحاجة الدار، اليحش، وغسل الصحون والثياب، وباتولّي قدا الغنم، وباتقّي الغداء. بس العصر ما بتحصّل شي تستهي به.»

ذهب مبارك يناقش يسلم في الأمر، لأنه خاف عليها أثناء انشغاله بالعمل في دكان الشيخ: «يسلم، خلاص شفنا باستلم الشغل حق الدكان ذا، بس شفنا فزعان على صفية يوم خلّيها وحدها العصر. ذحين كيه قلّي شُر علي، آه لقّي؟ بغيت باطمَّن عليها وأنا في الدكان.»

- «آه رايك تخليها ترجع كما يوم كانت عندنا، تضلّي تسرسر تزور صاحباتها؛ من ذا الدار لا ذا الدار. وأحيانًا هن يجين لا عندها. خلها ترجع لشلّتها باتنتهي المشكلة.»

- «خلاص يا يسلم، ما عندي مانع أبدًا، تشاور انته والأهل والحريم، وخلهن يخلين صاحباتها يرجعن يتواصلن معها. اتفقنا يا يسلم.»

بعد تشاور نساء آل بو يسلم، بدأت صديقات صفية يزرنها في منزلها بالفعل، وتفاجأت هي بهذه الزيارات، ولكنها فرحت بها كثيرًا.

حضرت إليها نور أخت مريم في أول يوم. رحبت بها صفية: «يا حيّا بنور، آنستي.»

ردَّت نور بتوجُّس وهي تُطيل عنقها هنا وهناك خوفًا من مبارك! سألتها صفية مستغربة: «كنّش ألا تتطيولين كذا يا نور؟! كنّش؟»

- «ألا قايست مبارك عندش. حد هو هاه؟»

- «لَه ماحد هو لَه. هو ألا في الشغل.»

- «يوه الحمد لله. ألا باقول لش، غير ماهو عالقش ذاك اليوم، يوم سهيتش في مرواح مريم أختي.»

- «عالق قليل بس، بعدين سكت. يا حيّابش، دخلي دخلي.»

بعدها توالت الزيارات من الصديقات، فرادى وجماعات، حتّى تضايقت صفيَّة نفسها منهنَّ.

كانت الزيارات ممتعة لها في الأسبوع الأول، ولكن ما إن استمرت بلا انقطاع تقريبًا بصورة يومية حتى ضاقت صفية ذرعًا بها، خصوصًا وأن بعضهن كُنَّ فضوليات؛ يسألن أسئلة كثيرة، وبعضهن ينتقلن من غرفة لأخرى وكأنهن في بيوتهن، خصوصًا بعد أن عرفن أن مبارك لديه عمل مسائي لا يعود منه إلا بعد المغرب.

أشياء كثيرة صغيرة فقدتها أيضًا، وفقدها مبارك، فكانت تشعر بالحرج عندما يسأل زوجها عن شيء فلا يجده. فيومًا لم يجد مبارك مشطهُ، وآخر لم يجد المقص الذي يُهذِّب به لحيته، فكانت صفية تتضايق من هذه الأمور كثيرًا.

قررت صفية بينها وبين نفسها أن تتخلص من زيارتهن هذه، ولكن كيف؟

فكّرت كثيرًا، فاهتدت أخيرًا إلى فكرة طرحها مبارك عليها في أيامٍ خلت، ولم تعجبها في بادئ الأمر، ولم تُلقِ لها بالاً. لكن يبدو أنها ستكون المخرج الذي يُخلِّصها من صديقاتها المزعجات!

حضر مبارك في المساء، فناقشته في الأمر: «سمع يا مبارك، عادك فاطن يوم قُت العم عوض قال بغاني نطحن له كياس بُر، وأني ما وافقت؟ ذحين شفني موافقة.»

- «وليه ما وافقتي من قبل؟ وانتي خلاص تعلّمتي الطحن.»

- «ألا أني يا خنّي ما بغيت نربط نفسي بالشغل، بعدين يمكن ما إقدر لقّيه وهو مستعجل عليه والا حاجة.»

- «طيب باتتكلّمين، وأنا باحل لش المشكلة.»

ثم سكت مبارك ينتظر ردَّها، فقالت بعد برهة من التفكير: «كاكيه باتحلّها؟ قلّي هيّا.»

- «انتي باتطحنين بُر حقّي أنا، ماهو حق عم عوض. أنا باشتري جونيّة، وباقسّمها في أكياس، وكل كيس باطرح فيه عشرة مصاري، وانتي طحني ألا على طربتش، لا كذش خليّة طحني ولا كذش ضبحانة لا تطحنين، وكل ما خلصتي كيس فيه عشرة مصاري طرحناه عند أبوش يبيعه. آه رايش؟»

- «والله يا خير شور لي جبته ذا يا مبارك! خلاص موافقة. هت كيس البر، اشتره ولعاد سيبك.»

في الأمسيات التالية، كانت الصديقات لازلن يحضرن إلى صفية، ولكنها كانت منشغلة عنهن تمامًا. لم تقابلهن بعدها إلا عند الرحى حيثُ تطحن، ولا يكدن يسمعن صوتها حتى عندما تتحدّث معهن. ضقن ذرعًا بهذه الحال، وتركن زيارتها الواحدة بعد الأخرى.

اعتادت صفية على الطحن، ولما أتمت طحن خمسة أكياس كاملة حملها مبارك ليلاً إلى دكان أبوها ليبيعها على دفعتين؛ لأنها كانت ثقيلة.

تفاجأ يسلم بالأمر وتساءل: «ذحين هومن طحن الطحين ذا يا مبارك؟!»

- «أختك صفية. بعد ما علّمتها الطحن وحوّشن بها صاحباتها، كل يوم وهن عندها، قات لي: (هت لي كيس بُر، وأني باطحنه، وكل ما جات وحده منهن باتحصّلني ألا نطحن وباتدبّر!) وتصّدق يا يسلم، قالت بعد أسبوعين معاد حد قبّلت قداها أبدًا!»

- «ذحين صفية كذها لها أفكار زينة هوكذا؟! ما ذا ألا يا خير شي.»

- «وعادها باتستفيد من ثمن الطحين، باتربّت لها قليل عدّي تنفعها.»

- «الله يهنّيكم يا مبارك، الظاهر إنك ألا حصلت لك حرمة باتقع ألا عليها عمد يا خوي.»

- «نعم يا يسلم كما خوها، وكما أهلها. ما جابته من بعيد لَه.»

- «طيب خلاص، هت الكياس. شفت المكان ذاك الفاضي؟ طرحهن فيه، ولعاد سيبكم أبدًا، لكم ألا عدّي فيه. حتّى بغيتنا حاسبك من ذحّين مستعد.»

- «لا لا خلّه لمّان يبتاع. يالله شفنا روّحت.»

وهكذا أوجدت صفية لنفسها مصدر دخل أكثر مما اقترحه العم عوض على مبارك من جهة، ومن جهة أخرى تخلّصت من فضول صديقاتها، وشغلت وقت فراغها. وإذا أحست بالملل، تركت الطحن وفعلت أي شيء آخر، أو قامت بزيارة أحد، أو عمدت إلى خوصها تشطف أعمالها الجميلة.

الفصل الرابع والعشرون: فرح وألم

مرَّت ستَّة أشهر على شراء مبارك للأرض وعودة صفية إلى المنزل، وفي يوم عاد مبارك من المزرعة التي يعمل فيها متعبًا كعادته، وعندما قرع باب الدار، أخبره جيرانه آل عم عبدالله أنَّ صفية غير موجودة.

خاطبته أم سعيد: «ماحد صفية في الدار لَه يا مبارك، شفها ألا راحت دار أهلها.»

- «ليه غير ماحد به شي؟»

- «مندري، ما نحنا ما درينا بشي، طرحت الأقليد عندنا وقالت لاكذ ضوى مبارك عطوه إياه، وقولوا له صفيِّة عند أهلها. ذحين شف الزَّقر بايعطيك إياه هَه، تناوله منِّه.»

تناول مبارك إقليد الدار من يد الطفل الذي ناوله إياه، وفتح ودخل داره يتمددُّ قليلاً ويرتاح من عناء وتعب العمل، على أن يذهب إلى بيت أهل صفية لاحقًا؛ ليستطلع الأمر، ويعرف سرَّ هذا الهروب المفاجئ.

كان البيت على حاله عندما غادره في الصباح، كُلَّ شيء كان فوضويًّاً. تفقَّد مبارك التنور، لكنه لم يجد فيه أيَّ طعام، بل وجد قرصًا من الخبزِ في السلة، يبدو أنه قد بقي من فطور الصباح. أكله ثم ذهب إلى بيت أنسبائه.

بعد أن طرق بابهم قابلته حماته الخالة زينة. رحّبت به وأدخلته إلى غرفة الضيوف.

استفسر مبارك عن زوجته قائلاً: «خالة زينة، صفية عندكم؟»

- «نعم عندنا، جات الصبح، ألا شفها مريضة، ومن ساعة ما جات وهي في حُوْشِه غارقه في الطَّهارة، والله رثيت لها. ألا قلِّي يا مبارك آه تصبَّحتوا اليوم؟»

- «تصبحنا ذرة مصبوغة بروبة كما كل يوم.»

- «ألا آه صابها الحرمة ذي ماني دارية؟»

- «ذحين وينها باشوفها.»

- «ماني يا مبارك شفني ما باثوِّرها ولا شي، ما صدَّقت إنها نامت قبل قليل، خاف الا النوم يعافيها، ماحد داري.»

- «خلاص يا خالة مانا شينا باروِّح الدار، ألا اشتغبت وجيت باطمَّن عليها يوم حصلتها ماحد هي في الدار.»

- «الله يطمِّن بالك، شدِّة وباتزول يا ولدي إن شاء الله. انته خلها عندنا كم أيَّام لمان تتباخر، آه رايك؟»

- «على راحتها، خير إن شاء الله.»

بعدها استأذن مبارك وعاد إلى داره مهمومًا.

في عصر اليوم التالي ذهب مبارك إلى بيت النسايب يطمئن على صفيَّة، فقابله العم عمر ورحَّب به: «يا حيَّا بمبارك، يا حيَّابك يا ولدي، كيف حالك؟»

- «بخير يا عمي، ألا جيت باتخبَّر على صفية، وباطمَّن عليها.»

- «صفية بخير، الا الظاهر إنها حامل. شلتها أمها الصبح عند الشَّوَّافَة وقالت لها ما بها شي لَه ألا علامات حمل.»

فرح مبارك بالخبر وسأل عمه: «ذحين هي نيمة والا ذاهنة؟»

- «لا لا ذاهنة.» وبدأ ينادي عليها بصوت مرتفع: «صفية، صفية، تعالي شي زوجش هنا، تعالي.»

أقبلت صفية إليهما، وفرحت بوجود مبارك عندهم. بادر مبارك يطمئن عليها: «كيف صحتش ذحين يا صفية؟ عساش بخير؟»

- «الحمد لله ذحين أحسن، راحت الحوشة. ألا الصبح عادها جات قليل، كنها ذحين خلاص أوهدت.»

في هذه الأثناء غادر العم عمر إلى الدَّاخل، فسألها مبارك: «ذحين آه القصَّة؟ عمي عمر قال انّش حامل، ذحين صدق هوذا الكلام؟!»

- «آه صدق، ألا أني ما قُت لك لَه، يومني ماني متأكدة، بس الشَّوَّافة اليوم قات شيش شلِّيتي يا صفية.»

- «الحمد لله الحمد لله. طيب وذحين عادش باتمّين عند أهلش والا كاكية؟»

- «لا لا باجي معك، ذحين باروح بالبس قميصي.»

وهكذا عادت صفية إلى بيتها. ومع مرور الوقت والأيام، اتضح الحمل واستعد مبارك لاستقبال مولوده الأول.

***

تعبت صفيَّة كثيرًا في حملها الأول، فبعد أسبوع من حضورها من بيت أهلها حدثت لها انتكاسة أخرى من اضطرابات الحمل، فقد عزفت عن الطعام ولم تعد قادرة على القيام بأعمالها المنزلية.

حضر مبارك ذلك اليوم متعبًا من إرهاق العمل، فوجدها نائمة. حاول إيقاظها: «صفيِّة، صفيِّة لقِّيتي الغداء لَه؟ بغيتنا أنا نُعرفه؟ وكن الثِّياب معكونات تحت الطهارة؟»

استيقظت صفية وهي تئنُّ بصوت خافت وردت على مبارك: «ما لقِّيت شي غداء.....أووووع!»

وضعت صفية يداها على فمها في محاولة لتهدئة غثيانها قبل أن تُكمل بوهن: «ما لقيت شي يا مبارك لَه، كُل...كل لك تمر من الزِّير!»

ثم أكملت صفية بعد أن هدأت قليلاً: «والثياب ما قدرت غسِّلهن ولا يحشت الدار، ولا طحنت، ولا شي. من ساعة ما سرحت الصبح ألا واني في حُوشِة عوذ بالله!»

- «رجعت الحالة أهواه؟»

- «رجعت يا مبارك رجعت، كيه بعد من قدَّامي شفني ألا اشتقول الا كبدي تحوش. ذحين بعد من قدَّامي قبل ما إقذف فيك! بِعـــد!».

قالت صفية كلمتها الأخيرة بصوتٍ مرتفع، فتراجع مبارك بضع خطوات إلى الوراء، واضعًا يده على رأسه في حالة من الذهول: «لا حول ولا قوة إلا بالله!»

تركها مبارك في المنزل وذهب إلى أمها الخالة زينة؛ ليحضرها عندها، فحضرت في الحال ورأت الحالة السيئة التي كانت ابنتها فيها، وتساءلت: «كنِّش يا بتِّي؟ آه بش؟»

- «الحوشة والهَملِة رجعت يمَّه.» وانهمرت دموعها وهي تُمسك بيدها حول فمها.

- «طيِّب باتجين ذحين قفاي لا عندنا والا كاكيه؟»

- «وباظلِّي ألا كل يوم هوكذا عندكم وخلِّي مبارك وحده؟»

- «خلاص يا بتِّي أني باتمِّي عندش هنا كم أيام لمَّان تتباخرين.»

- «ياريت يمّه، جزاش الله خير. كن أبويه ما بيعالق لَه؟»

- «لَه ما بايعالق لا كذش مريضة ما بايقول شي لَه. خلاص ذحين انتي أوهدي واني ذحين بقِّي حاجة الدار كلها، أوهدي ونامي. كَلْتِي لش شي اليوم والا لا؟»

- «الصبح كليت قليل خبز مع روبة واندرته، وذحين حس عمري هاملة ما اقدر أقِّي حاجة الدار، وحتَّى ريح الطبخ يطلّع نفسي! تعبانة يمَّه تعبانة»

- «ما يقول شي يا بتِّي الصبر، ألا الحريم كلّهن تقع لهن هيذي الحالات، عليش بالصبر بس. أني ذحين باقوم بقّي كل شي معاد سيبش، انتي ألا نامي وباتثورين باتحصِّلين بقعا ألا ريضة. نامي يا عيون أمش نامي.»

استسلمت صفية للنوم فعلاً، بينما شرعت الخالة زينة في ترتيب المنزل وإعداد الطعام. وبعد تناول الغداء طلبت زينة من مبارك أن يذهب إلى زوجها في بيتهم، ويخبره ببقائها عندهم لبعض الوقت.

توجَّه مبارك قبل ذهابه إلى عمله المسائي إلى بيت العم عمر؛ ليُخبره بما قالت زوجته، فأجابه العم عمر: «صفية بتِّي تسوى الدنيا يا ولدي، توَّها زينة تتمي عندكم تعطيكم كم أيام، ونحنا كذ نحنا عندنا مريم مرت يسلم الله يحفظها باتقوم بالواجب، ماشي مانع عندي أبدًا، كيه بتَّها!»

- «خلاص يا عمِّي جزاك الله خير، باروِّح بالحق شغلي ذحين.»

- «توَّك يا ولدي الله معك، وأنا بعد مضواك بعد صلاة المغرب باجي قداكم.»

ولقد صدق العم عمر وعده لمبارك؛ إذ حضر يزورهم بعد صلاة المغرب حاملاً معه الهدايا لابنته المدللة.

كان مبارك حينها قد عاد للتو من المسجد، فوجد عمَّه يهمُّ بطرق الباب، فبادرهُ: «يا حيَّا يا عم عمر، آنست.»

- «وبك الانس يا مبارك، وين الجماعة؟»

- «طالع في المحضرة، يالله طلعنا.»

وأثناء صعودهما الدرج، صاح العم عمر ليُعلم الجميع أنه قد حضر: «أي يآل الدار، وينكم؟ أي يا خلق تكلَّموا وينكم؟!»

كان مبارك إلى جواره يبتسم مما يقوله عمَّه، فصاحب الدار بجواره، يصعدان معًا، وهو ينادي عليه! أخيرًا جاءه صوت الخالة زينة: «طلع طلع يا عمر يا حيَّابك، شف نحنا هنا في مرواح صفية.»

ولمَّا ظهر لهما بمصاحبة مبارك تفاجأت زينة وتساءلت: «هَه! وانته ألا معه يا مبارك؟ وهو يصولق يآل الدار يآل الدار؟»

رد مبارك: «كذش تعرفين عمِّي متهقِّل يا خالة زينة.»

ابتهجت صفية بقدوم أبيها لزيارتها، ورآها مبارك تبتسم لأول مرة في هذا اليوم. اطمأن العم عمر على ابنته بعد أن جلس بجوارها: «آه شفتي نفسش يا بتِّي؟ عساش بخير ذحِّين؟»

- «أيوا الحمد لله، بعد ما جات أمي عندي شفت عمري بخير.»

- «آه هوذا الكلام يا بتِّي؟ بغيتي زوجش يزعل عليش؟ ليه يومه عندش مبارك ما فادش والا هواه؟! شيه بيحنق منِّش!»

ابتسم مبارك وهو يرد على عمّه بهزّ رأسه موافقاً، فردّت الأم: «ما هو قصدها يا بو يسلم لَه، ذلا شفها فرحت منّي يومني غسّلت لها، ويحشت لها، وإن بغت شي قرّبته، رجعت هي قليل تِبَشْبَشَت.»

- «آآآآه قولي كذا، وذحين كلت شي والا عادها نفسها ما بغت شي؟»

فردّت الأم بحزن: «في ذا يا بو يسلم شفني ما قدرت لقّي لها حاجة أبدًا، قبيلان سقيتها قليل لبن، ذلا قليل لا له ولا عليه، رجّعته، كبدها ما قبلته، الظاهر إنه فقاعها قوي.»

- «طيب وحق أبوش الهدية ما بغيتيها يا بتّي لَه؟ شيها من دكانه، جبت لش حِبِيْبِة لي تحبّينها، وبسكت من الزيّن ذاك حق آل تريم، وجبت حلوى طحينية، بغيتي شي منّها هيذي الحاجات؟»

أجابته صفية بفرح: «نعم، كيه هت لي حبّتين بسكت من حق آل تريم.»

فناولها إياه الأب، بعد أن ساعدتها أمها في الجلوس. أكلت صفية البسكويت، وشربت قليلا من الماء، ثم عاودت الاضطجاع ثانية. وبعد أخذ ورد بين العم عمر والحاضرين استأذن العم عمر في الذهاب: «خلاص يا عيالي مبيات عافية، مانا باقوم بالحق صلاة العشاء.»

- «خذنا معك يا عمّي.» قالها مبارك وخرج الاثنان إلى المسجد، وبعدها توجّه العم عمر إلى منزله.

استمرَّ هذا الحال أسبوعًا كاملاً، كان على مبارك أن يتحمَّل فيه أعباءً إضافية من مصاريف البيت، والانفاق على زوجته المريضة، اضطر معها إلى بيع جَدي مرَّت على ولادته بضعة أشهر؛ لتغطية تكاليف المرض، إضافة إلى تحمّله بعض أعباء المسؤولية المنزلية، فكان مثلاً يأخذ ثيابه المتّسخة معه إلى المزرعة؛ ليغسلها في حوض البئر حيث الماء الوفير، ويهتم بالأغنام بين فترة وأخرى.

***

بعد مرور أسبوع كانت الخالة زينة قد ضاقت ذرعًا هي الأخرى بمكوثها الطويل في بيت مبارك واشتاقت لعائلتها، فخاطبت مبارك قائلة: «سمع يا مبارك، آه رايك تجون انته وصفية عندنا ذا الأسبوع؟ بانفضّي لكم محضرة تقعدون فيها، ويا حيَّابكم. الدار ألا كبير.»

استحى مبارك من طلب الخالة، ورفضه بشدَّة: «لا يا خالة زينة، توَّها صفيِّة إن كانها باتوخذ لها كم أيام عندكم ما عندي مانع أبدًا.»

تدخَّلت صفية عندما سمعت ما يدور بين زوجها وأمها من حديث: «ماني ألا باتمِّي عندك يا مبارك، توِّش يمَّه روحي قدا أبوي، فيش عليش. وأني إن شاء الله باحاول إنني إرجع لقِّي حاجة الدار بنفسي، لمَّان متاه باتمِّي هوكذا؟! ذحين لوّل يوم جيتي عندي الكم أيام ذي شيني ألا شوف عمري بخير ما شاء الله.»

بعد أن اطمأنت الخالة زينة على بنتها غادرت إلى بيتها. كانت حالة صفية في الأيام الأولى جيِّدة، ولكن ما إن مرَّ أسبوعٌ حتى انتكست مرَّة أخرى!

أحسَّ مبارك بالرثاء لزوجته المريضة التي ترفض مفارقته بالرغم من مرضها، وأحس بأنَّ عليه أن يفعل شيئًا؛ إذ أنَّه من المستحيل أن يُتعب الخالة زينة ويُجبرها على البقاء عندهم إلى أن يحين موعد الولادة، فدارها يطلبها. فكّر مبارك كثيرًا في حلٍّ لمأزقه، لكنّه لم يهتدِ سوى إلى صداعٍ شديد في صدغيه!

عندما ذهب مبارك لأداء صلاة مغرب ذلك اليوم، شاءت الأقدار أن يُصلّي العم بخيت إلى يمينه. جعله ذلك يتذكّر الكابوس المُزعج الذي رآه عشيَّة ولادة شاته، وكيف أنَّه لم يُنقذه من ورطته ويقف إلى جواره في ذلك الكابوس إلا عمَّته العزيزة.

بعد تفكير طويل قرر مبارك أن يأتي بالعمَّة عيشة للعيش عنده طوال فترة حمل صفية. هو متأكد من أنها لن تمانع أبدًا في تقديم هذه الخدمة، فهي تعيش وحيدة في قريتها، وسوف تسعد بانضمامها إليهم، لذا قرر مبارك الذهاب إلى (نخلة)؛ قريتهم القديمة.

في اليوم التالي توجَّه مبارك إلى العم عوض، بعد أن أتمَّ عمله في المزرعة، وخاطبه بعد أن حيَّاه واطمأن على صحته: «يا عم عوض، ألا باستسمحك إنك بكرة تجيب حد يسني عندك بديلي. أنا باروح القرية حق الشيابة باجيب عمَّتي عيشة؛ منشان تتمِّي عندنا مدِّة ما صفية مريضة.»

- «ليه عسى ماشي شر؟»

- «ألا الحرمة حقِّي طالت الأذيِّة حقها، ذحين بغيت عمّتي تجي عندنا؛ منشان تساعدها. فقاعها حوّش بنا يا عم عوض.»

- «ذحين عادها مرتك مريضة؟ معاد ذا فقاع لاشق! الله يكون في عونك يا ولدي، توَّك الله معك ما شغلي ألا بايتمِّي سابر، ما عندي مانع أبدًا. الله يشفيها.»

- «آمين يا رب.»

في اليوم التالي لم يذهب مبارك إلى العمَّة صباحًا، بل قضى أوَّل النهار في قضاء حوائج المنزل، ثم ذهب إلى خالته زينة يطلبُ منها الحضور إلى ابنتها لتكون إلى جوارها، وأخبرها بأنه ذاهبٌ إلى قريتهم القديمة ليحاول إقناع عمّته أن تأتي إلى بيته وتبقى عندهم إلى وقت ولادة صفية، وأخبرها أنه ربما تأخر عندها يومين أول أكثر ريثما تُرتِّبُ عمّته أمورها، ويُحضرها معه إذا وافقت على الحضور.

فرحت الخالة زينة باقتراح مبارك، وأيَّدته فيه، وأبدت استعدادها لتعود إلى بيته لمؤانسة ابنتها حتّى يعود مع عمَّته إليهما، وهذا ما صار بالفعل.

***

في مساء ذلك اليوم بعد صلاة العصر توجَّه مبارك إلى نخلة ينشدُ بيت العمة، وعندما وصل إلى القرية كانت الشمس قد شارفت على المغيب، وبدأت العصافير تعود إلى أعشاشها، وتملأ المكان بزقزقتها الجميلة.

طرق مبارك بيت العمة وجاءه صوتها من خلف الباب: «هومن يقرقع؟»

- «أنا مبارك يا عمَّتي، فتحي.»

- «مبارك من؟!» لم تتوقع العمة عيشة أن يزورها ابن أخيها في مثل هذا الوقت!

- «مبارك ود خوش صالح.»

قالت العمة وهي تفتح الباب: «يا حيَّا بمبارك، يا حيَّابك آنست.» وأدخلته إلى غرفة الضيوف.

- «الله يانس بش يا عمَّتي.» قالها مبارك وهو يُلقي بغُترته جانبًا من الحر والتعب، ثم جلس مستندًا إلى الجدار.

تساءلت العمة مستغربة هذه الزيارة المفاجئة: «خير إن شاء الله يا ولدي، غير ماشي شر؟»

- «لا لا يا عمّة، ذلّا صفية قليل تعبانة وبغيناش تجين تناوسين نحنا، إن كان ما عندش مانع.»

- «آه بها مرتك يا ولدي؟ شفك شغبتني!» قالت جملتها تلك بفزعٍ واضح.

- «لا تشتغبين لَه ذلّا حامل، والفقاع محوِّش بها جم.»

- «هَهْ هَهْ هَهْ، يا سهلاه يا ولدي يا سهلاه. طيب باجي عندكم من عيوني، ذحين انته ارتاح لوَّل، وغدوة إن شاء الله بانسرح أني ويَّاك. ما ذحِّين ألا ليل والطريق بعيدة، وأني عادني لوَّل باشوف لي حد يذهن لغنمي من الجيران.»

- «صح كلامش يا عمّة، غُدوة بانسرح بإذن الله.»

بات مبارك في بيت عمّته، الذي هو في الأصل بيت جده الذي مات ولم يخلِّف إلا أبيه المرحوم وعمَّته. وفي الصَّباح توجَّه الاثنان إلى سبولة حيث توجد دار مبارك وصفية بعد أن عهدت العمة بأغنامها للجيران لرعايتهن.

***

بقيت العمة عيشة عند ابن أخيها طوال فترة حمل صفية، وسارت الأمور بعد حضورها على خير ما يُرام حتَّى ولدت صفية، وقد أنجبت ولدًا جميلاً أطلق عليه مبارك اسم حسن؛ تيمُّنًا باسم العم حسن مؤذن مسجد المؤمنين الذي يكنُّ له مبارك الاحترام والتقدير، وأصبح بعد ذلك معروفًا لدى أهالي القرية ببوحسن.

تعرفت العمة خلال تلك المدة الطويلة على الكثير من النِّساء، وكوّنت صداقات جيِّدة في قرية ابن أخيها مبارك.

كانت في بعض الأحيان تذهب إلى المزرعة التي يعمل بها مبارك؛ لتجلب الحطب، وتساعد الفلاحات في جني المحاصيل في أوانها، فقد كانت هي الأخرى في الأصل فلاحة مثل أمه، وطابت عيشتها في حياتها الجديدة، وتمنَّت بينها وبين نفسها أن تعيش عند مبارك إلى نهاية عمرها، ولكنَّها كانت مشفقة عليه من أن تثقِّل عليه بوجودها عنده.

وبعد عودة صفية ومولودها إلى المنزل بعدَّة أسابيع، خاطبت العمة مبارك قائلة: «خلاص يا مبارك حُرمتك ما شاء الله جات الدار، ولعاد لي حاجة أقعد عندك وثقِّل عليك.»

- «والله يا عمتي ما قصرتي أبدًا جزاش الله خير، شي نحنا ألا دهلنا عليش، لكن إن كانش بغيتي ألا بترجعين دارش؟ توّش ما باغصب عليش تتمّين عندنا.»

ردَّت عليه وهي تحاول إخفاء حزنها: «أني لوّل باروح باتفقِّد الدار والجيران والغنم. إن كان شفت عمري بغيت ألا بارجع عندكم بارجع، ريِّض؟»

- «خلاص غدوه الصبح بانروح أنا ويَّاش، باوصِّلش لا نخلة وبرجع.»

وبالفعل، في صباح اليوم التالي توجَّه مبارك مع العمة إلى قريتها لتوصيلها، وعاد إلى داره في نفس اليوم؛ إذ لا يمكن أن يترك صفية وطفلها لوحدهما في الدار.

الفصل الخامس والعشرون: تجديد

بعد أيام من رحيل العمة، رأت صفية أن جدران مطبخها قد بدأت في الاسوداد من تكرار الطبخ فيه، وما ينتج عنه من دخان يلتصق بجدران المطبخ مسببًا منظرًا كئيبًا، فاستغلّت نوم طفلها ذات يوم وأرادت أن تُثبت لزوجها مبارك أنها امرأة مثالية حريصة على النظافة والجمال.

كانت صفية قد لاحظت أنَّ في المستودع قليلٌ من النورة في علبة كبيرة من الصفيح مغطاة بلوح خشبي، وكان مبارك يتعهدها بين فترة وأخرى بوضع الماء فيها؛ حتى لا تيبس مكوناتها، وليستطيع الاستفادة منها وقتما شاء.

رأت صفية في وقت فراغها أن الفرصة قد حانت لتنظيف المطبخ وإعادة الرونق والبهاء إلى جدرانه. أخذت قليلاً من النورة، وخلطتها بالماء كما كانت ترى أباها يفعل ذلك أحيانًا، ووضعت لها القليل من السكر؛ ليُعطيها التَّماسك المطلوب بعد رشها في الجدار، وهاهو المزيج الآن وقد صار جاهزًا للرش.

أحضرت من غرفتها إحدى المَقِيْش الجديدة التي أحضرها لها أهلها في ماعون العرس، وقامت بغمسها في النورة المذوبة، ورشت بها الجدران السوداء؛ حتى تبدو أكثر بياضًا ورونقًا.

كانت تقول بينها وبين نفسها: «ذحين بارش النورة ألا بمقاشة جديدة. يع من ذيلاك المقيش لي في المستودع، كلهن كذهن ألا دوال ويتقصَّفن! ماذي حقِّي جديدة، باتطلع النورة بها ألا ايش على رشوشة! وعاد مبارك بايشكر على مطبخه بعد ما ترشُّه صفية.»

استمرت صفية تغمس مكنستها وترش بها الجدران المتسخة بطريقة حاذقة جدًا، وعملها هذا سيُبهر مبارك ويجعله يُثني عليها وعلى مهارتها في الرش.

بالطبع كانت صفية قد أخلت المطبخ تمامًا من كل ما فيه؛ من أوانٍ وأدوات، وأنفقت في ذلك الوقت الكثير، والجهد المُضني. ولكن لا يهم، طالما أنها بعده تستطيع إدخال البهجة والسرور إلى قلب زوجها المسكين.

استمرت صفية في محاكاة واضحة لفعل الرجال في الرش تضربُ الجدران حتى أنهت عملها، وسارت الأمور على أحسن ما يُرام وكما تريد تمامًا، وانتظرت ظهور النتيجة بعد جفاف الجدران. غير أنها بعد الانتهاء من الرّش خرجت من المطبخ منتصرة، فقد عملت اليوم إنجازًا رائعًا في حياتها، وسوف يُثني عليها زوجها بعد عودته من العمل.

انشغلت صفية بعدها بأعمال أخرى، ولم ترَ نتيجة عملها على الإطلاق، حتى الغداء طبخته ذلك اليوم على الدافور الذي أحضره مبارك مع ماعون العرس في الطابق العلوي في الصالة المؤدية إلى سطوح المنزل.

عاد مبارك من عمله، وقدمت له صفية الغداء فتغدَّيا معًا، وأرادت بعدها أن تُقدِّم له مفاجأتها الجميلة. أمسكت بيده وقادته إلى المطبخ، فوجد في خارجه الأواني الملقاة بصورة عشوائية غريبة.

سألها مبارك: «آه ذحين ذا يا صفية؟! ذحين ليه الصّحان ذيلا والصفاري والصّحاف وبقعا كلها مزقّلة هنا؟ كنش ذحين غرمتي والا هواه؟!»

فردَّت عليه بفخر: «تعال باروِّيك آه لقت مرتك في المطبخ، فاطن الستر السوداء لي فيه؟»

- «نعم ألا حق الدخان حق المصاخن والتنار. خلاص ما عليش يا صفية، بانجيب عامل عصرية يرشها، وبايخليها لش ألا بيضاء كما ضروسش الزيان ذيلا!»

- «خلاص يا مبارك مرتك تصرفت، وهي قعت العامل. ذحين الجُعُل لي باتعطيه إياه عطني إياه أني، بعد ما تفرح بعملي داخل. يالله دخل هيَّا.» وشدته من يده بقوة وأدخلته المطبخ، لتتفاجأ هي وهو بالجدران الملطخة بنورة صفراء قذرة بدت في حالة مزرية أكثر مما كانت عليه في حالة السواد!

صُدمت صفية، ما هذا الذي يحدث؟ لماذا تلوَّنت الجدران بهذا اللون البشع وهي التي كانت قد رشته بنورة بيضاء كالثلج؟! ما الذي حدث للجدران واصفرّت هكذا؟ أسودَّ وجهها من الخجل.

انفجر مبارك في ضحك هستيري لا إرادي، لمّا وجد فعل زوجته قد تحول إلى هذا اللون البشع، وقال لها هازئًا: «ذحين هوذا الشي اللي بغيتي باتروِّينا إياه وبايعجبنا يا صفية؟ هوذا؟»

انهارت صفية، لم تتحمل حدوث هذا الشيء الصادم الذي جاء عكس ما توقعته تمامًا. سالت دموعها على خديها، وجلست على أرضية المطبخ تنظر بأسى إلى العمل المؤذي الذي قامت به. غطت وجهها بكفيها بعد أن علا نشيجها، وكأنها لا تريد أن ترى مثل هذه المناظر الكئيبة بجدران مطبخها.

جلس مبارك بجانبها يواسيها: «خلاص يا صفية، ذلا شيه أمر سهل ما يحتاج تبكين من شانه لَه، معاد سيبش أبدًا، غدوه أنا باجيب عم فرج يرشَّها، وبايخلِّيها ألا إيش على ستر. بايردها كما يوم كانت وأحسن. على هواه تبكين؟»

- «ذلا يومني تعبت فيها يا مبارك تعب جم. بغيت بافرّحك يوم تجي، وتشوف الستر حق المطبخ زينة، باتفرح وأني بفرح من فرحك.»

- «أنا داري يا صفية إن نيِّتش زينة، بس خلاص معاد جات بقعا سوا. ألا باقولّش يا صفية، بآه رشِّيتي الستر ذيلا؟!»

- «بمقاشة جديدة من اللي جابوهن أهلي في ماعون العرس.»

- «آه، خلاص هوذا شيه السبب لي خلا الستر صفراء هوكذا. يا صفية النورة ما يرشُّونها ألا بمقيش حقها بس، ماهو بمقيش يحيش الدار لَه.»

- «ألا المقيش لي في المستودع كذهن ألا دوال ومقصَّفات.»

- «ويومهن. بهن هنذيلا باتطلع النورة بيضاء.»

- «يووووه! ماني دارية لَه!»

- «خلاص كيه انتي ألا أوهدي، وقمنا من المطبخ المعصود ذا، وطلعنا المحضرة عند حسُّوني، بايقع شيه ثار.»

- «ما بغيتني رجِّع الماعون حق المطبخ فيه لَه؟»

- «لالا، ما صدَّقنا إنه يندر، فرصة قت لش غدوة العصرية بايجي عم فرج وبايرشَّها هيذي الستر، وبايخلِّيها ألا إيش على ستر. وبعدين توِّش دخّلي الماعون هوذا. تمام؟»

ناولها مبارك قدحًا من الماء من قربة المطبخ؛ لتهدئتها، ثم مد لها يده، فأمسكتها ورفعها من حالة الجلوس تلك، وصعدا معًا إلى غرفة المعيشة، ونسيا تمامًا موضوع جدران المطبخ المتسخة.

في عصر اليوم التالي، وعندما ذهب مبارك لأداء صلاة العصر في المسجد، أحضر معه بالفعل العم فرج لرش جدران المطبخ.

خاطبه بعد أن فتح له باب المطبخ القابع في الطابق الأرضي: «دخل دخل يا عم فرج. دخل شف الشغل.»

دخل العم فرج، ورأى الجدران الصفراء المشوَّهة، وتساءل حينها: «أوهووووي! ذحين آه ذا؟! هومن لي رش الستر ذي يا مبارك؟»

لم يُعلمه مبارك حقيقة الأمر، لقد خجل من ذلك، وبدلاً عنه أجاب: «ألا أنا يا عم فرج، بغيت باتعلِّم ياخننا، طلع شغلي هوكذا، وذحين بغيتك انته تصلحه، وباعطيك شقاك.»

- «ليه آه من مقيش شليت بها النورة يا مبارك؟ ذحين انته مغفَّل والا هواه؟!»

- «خلاص بس يا عم فرج، لعاد تضحك بي بس، ذا لي حصل.»

- «والله شغلة ذي، لاحد نصحكم حنقتوا! هيا رح هت النورة حقك.»

قالها العم فرج وهو يفك أزرار قميصه استعدادًا للعمل. ثم أكمل وهو يهزَّ رأسه مستنكرًا: «النورة لها مقيشها، آه اليَعِث لي لقِّيته ذا؟!»

شعر مبارك بالحرج من كلمات العم فرج القاسية، واستدار خارجًا ليحضر مؤنة العمل.

أخذ مبارك تنكة النورة التي كانت في المخزن، واثنتان من المكانس التي كانت هناك؛ ليختار العم فرج إحداهما، وعاد بهذه الأشياء إلى حيث ينتظر العم فرج في المطبخ.

أضاف العم فرج الماء والسكر إلى النورة، وقام بتحريكها جيِّدًا، فتساءل مبارك: «ذحين بايقع باتغلّق الستر ذي اليوم؟ والا بغت يومين عادها؟»

- «لا لا يا ولدي، ماشي تحتها لَه، ذلا مطبخكم صغير وسِتَرُه واطية، وذحين ما شاء الله عادها ألا أول العصرية. ذحين باسبر فيها وباغلّق بإذن الله مع المغرب.»

- «خلاص ريِّض يا عم فرج، توّك سبر، وأنا روحت، شفنا معي شغلة قليل فوق.»

- «توّك توّك، خلاص ما ذحين الحاجات اللي محتاجها ألا عندي. الله معك.»

- «وإن كان عادك احتجت شي طرّب علي، أنا ألا في الدار هنا.»

- «خلاص طيِّب، ولا يهمَّك أبدًا.»

لم يذهب مبارك إلى العمل في دكان الشيخ هذا المساء، بل طلب من محفوظ مباشرة العمل فيه لظروف طارئة، فوافق وحضر بدلاً عنه.

صعد مبارك إلى حيث كانت صفية تشطف سفرة جميلة أرادت أن تستبدل بها السفرة القديمة، التي كانت قد بليت، وأصبح منظرها كئيبًا، سألته صفية: «ذحين كنك خليت الرجال وحده يا مبارك؟»

- «وليه بغيتينا نتمِّي عنده؟ تعبت من الوقفة. بغيت بامد ظهري قليل، إن كان طرَّب وأنا خذتنا عيني ثوِّرينا.»

- «خلاص توّك توّك، إن كان طرّب باقولّك.»

مدد مبارك جسمه على الفراش المفروش في الغرفة، ووضع غترته على عينيه؛ لينعم بالنوم، أو على الأقل بلحظات من الهدوء والسكينة.

لم يتم العم فرج عمله إلا قرب صلاة المغرب في ذلك اليوم بالفعل، وبعد إتمامه العمل نادى على مبارك: «مبارك، مبارك. وينكم يآل الدار؟»

أيقظت صفية زوجها الذي كان قد راح في سبات عميق، وأخبرته أن العامل ينادي عليه.

خرج إليه يستطلع الأمر، وحمل معه خُمسيِّتان ناولهما العم فرج بعدما لاحظ جودة عمله، وقال وهو يمتدحه: «جزاك الله خير يا عم فرج، شف بقعا ألا قعت شِرْحِة! وذحين شف ذي هَه حقّك حق الشاهي؛ شقاك يومك رشِّيت لنا.»

كان العم فرج حينها قد لبس قميصه، واستعد للخروج، فتناول خماسي مبارك ودسَّها في كيس قميصه، وغادر بيت مبارك فرحًا.

في الصباح قامت صفية بإعادة ترتيب مطبخها، وأدخلت أوانيها المكوّمة في الخارج ورصَّتها بصورة جميلة بعد أن قامت بتنظيفها جيِّدًا، وتنظيف أرضية المطبخ أيضًا، فعاد يشرق بالجمال والبهاء من جديد.

الفصل السادس والعشرون: حنين

استوحشت عائلة مبارك من غياب العمة، ولكن ما باليد حيلة، فهي إذا أرادت المجيء والعيش عندهم ستأتي من تلقاء نفسها، هكذا قال مبارك في الحوار الذي دار بينه وبين صفية في إحدى الأيام، عندما بادرته صفية بالقول: «معاد درينا بعمتي يا مبارك، والله إن نحنا فقدانينها، أَلَهْ؟»

- «صح كلامش يا صفية، الدار غبَّر يوم راحت! صدق لي قال من غاب كبيره خربت بِيْرُه.»

- «مسكينة كانت تساعدني في كل شي، وتونِّس نحنا، تحطب وتستقي لنا، وتقعد على يال حسُّوني وإني أطبخ. ليه ما خلِّيتها تقعد عندنا على طول؟ آه لها في قريتها ذيك؟ لا ولدها ولا تلدها! قاعدة في دارها كما النقرورة! عادها ألا ارتعشت يوم جات عندنا. والا آه رايك؟»

- «وبغيتينا أقِّي آه؟ خلاص طلعت في راسها ترجع دارها، آه لقِّي أنا؟ على حسب كلامها هي قالت باتشوف عمرها، إن استوحدت باترجع عندنا من نفسها ولعاد رجعت، بغيتينا روح وجيبها لا عندنا بالغصب والا هواه؟!»

- «لا لا، يقدِّر ما فيه الصالح. ألا أني بغيتك تروح قداها وتدرى بها بس، ذحين شفها لها نص شهر من راحت من عندنا.»

- «خلاص طيِّب، يوم الجمعة باروِّح قداها وبازورها.»

ردَّت صفية في اعتراض واضح: «يوم الجمعة لا، النَّاس ألا يكونون في ديارهم هوذا اليوم، كاكيه عيدنا الجمعة وباتخلِّيني وحدي؟ والا بغيتني روّح عند أهلي أني وحسُّوني؟ أعزم نفسي عندهم؟ ماهو ريِّض شُفه لَه!»

- «خلاص يا صفية، أنا باكلّم عمي عوض أننا يوم السبت ما بسرح المزرعة، وباخلّيه يشوف لُه حد بديلي يقوم بشغلي، وأنا باروح بازورها. بقول له ذلا يوم واحد بس.»

- «هوكذا ريّض. حتّى هي باتقول استكفوا منّي ومعاد نَشدوني!»

- «انتين يا الحريم خراط زايد فيكن! عمّتي وانا داري بها ما باتقول هوكذا أبدًا، ما باتقول ألاود خوي مسكين من داره لا الشغل لا المسجد، وسبولة بعيده ما قع له يزورني.»

في ضحى يوم السبت كان مبارك يطرق باب عمته، وجدها في قميص الصَّلاة تركع الضحى. فرحت عندما سمعت صوته وفتحت الباب بسرعة.

أخذ مبارك يد عمّته يُقبّلها، وقال بعد أن سأل عن صحتها وحيّاها: «دارنا غبَّر يا عمّة يوم رحتي، فقدناش جم جم أنا وصفية، حتَّى حسوني زاد بكاه اليومين ذي، الظاهر يوم معاد شافش ماهو داري فيين رحتي. الله يهديش بس، كنتي باتمّين عندنا ترعشين بنا وترتعشين معنا. ليه يا عمّة آه يازيش على عيشة الوحدة ذي؟ لكن خلاص أه بانقول؟ ذحين حتَّى مرضتي ماحد داري بش، ليه هوكذا بس؟»

- «لعاد تتكلم لاشق! شفني ألا صدق شفت وهرة بعد ما جيت من عندكم، غُبُرِت يمكن خمسة أيّام ألا وأني معكونة في الدار ولاحد داري بي أبدًا، عادني ألا ذحين ياخنَّني شفت عمري بخير.»

- «شفتي لَه، مانا شينا إن بغيتي كلامي شينا بغيتش ألا تجين عندنا على طول، تجهزين نفسش الأسبوع لي بايجي ذا، وانا باجي وباشلش. لاوفي الحاجات اللي بغيتيها، وانا باخلّي عربيّة تجي لا تحت الدار تشل الماعون حقش لمَّان عندنا، والغنم حقِّش توِّش تصرفي فيهن، وإن باتجيبينهن عندنا يا حيَّابش إنتي وغنمش، وانا من ناحيتي باعطيش غرفة الوالدة، خلاص باتقع حقش تقعدين فيها. آه رايش؟»

أطرقت العمة تنظر للأرض قليلاً، وبعد صمت قصير رفعت رأسها وقالت بتردد: «خاف أني ثقّل عليكم يا ولدي؟»

- «تثقلين علينا هواه يا عمة؟ آه الكلام لي تقولينه ذا؟! نقولّش الدار غبّر يوم رحتي والعيشة كذا يا عمّة معاد لها طعم أبدًا، تقولين نثقّل عليكم؟! حتّى الحريم صاحباتش دايم وهن يقرقعن علينا، حد عِيشة حد عِيشة!»

فرحت العمة لهذا الاهتمام، وأجابت بسرعة: «خلاص يا ولدي، أني باجهّز عمري، ويوم الخميس لي بايجي ذا تعال وشلّني.»

أحست العمة أنها لم تُقدِّم واجب الضيافة لابن أخيها بعد، فقامت تحضر كوبًا من الماء، وأردفت وهي تناوله إياه: «حتى أني شفني ألا فقدتكم وفقدت حسُّوني.»

- «هوذا الكلام لي بايفرّحنا! خلاص يا عمّة ولا يهمّش، يوم الخميس كذنا عندش بالعربيّة. ودِّعي جيرانش وصاحباتش هنا في نخلة، ويوم الخميس بانبيِّت ألا في دارنا، إن شاء الله. يالله يا عمّة استودعتش الله، الوعد ألا لمّان يوم الخميس المقبل.»

- «ذحين اليوم ألا تغد عندي، باتروّح ذحين ظهر الظهيرة؟»

- «ذلا شتاء يا عمّة وشمشه ألا باردة، ماشي علي لَه، هيَّا حيَّابش.»

عاتبته العمة على رفضه دعوتها للغداء: «الله يهديك بس يا ولدي...توَّك، الله معك.»

***

مضت ثلاث سنوات على هذه الحادثة، ترعرع فيها حسوني في أحضان أبيه وأمه والعمة عيشة، وكان يناديها (حباب) ويقضي أكثر وقته معها وينام في غرفتها. لقد تعلَّقت به كثيرًا وتعلّق بها حتَّى صارت ملازمة له أينما ذهب؛ خوفًا عليه من أي مكروه أو أي أذى قد يلحق به.

في عصر يوم جمعة، سمح مبارك لصفيّة أن تذهب لزيارة أهلها، فغادرت بعد أن تركت ابنها عند العمة عيشة، وبعد أن غادر هو نفسه أيضًا لزيارة أحد الأصدقاء.

قبل أن تدخل حوش منزلها عَرّجت صفيّة على دكان أبيها، علّها تراه هناك، وبالفعل وجدته جالسًا ينتظر الزبائن، ودكانه فارغ تمامًا منهم. تشجعت صفية، ودلفت إلى الدكان.

ظنّها أبوها في بداية الأمر زبونة جاءت لتشتري بعض الأغراض، فليس من عادتها الذهاب إليه في الدكان، ولكن وعندما كشفت وجهها وسمع صوتها فرح لرؤيتها كثيرًا. أخذت صفيّة يد أبيها تقبلها وتسأل عن أحواله، فأخبرها أنه وأمها والجميع في أحسن الأحوال.

لم تكمل صفيّة حديثها مع أبيها بعد، حتى دخل الدكان زبونان يريدان شراء بعض البضائع، فانسلت صفيّة بهدوء تاركة أبوها مع زبائنه، ودخلت إلى الدار؛ تطمئن على أمها وعلى البقية.

لم تجد يسلم في المنزل، كانت مريم هي التي فتحت لها باب الدار. وجدت صفيّة والدتها منهمكة مع خوصها في صنع سلة جميلة (قفّة) تُصنع لغرض حفظ الخُبز بعد أخراجه من التنور. تفاجأت الأم بزيارة صفيّة لهم، فقليلاً ما تزورهم في وقت العصر؛ خصوصًا بعد أن أنجبت ابنها حسن وانشغلت برعايته.

قبّلت صفيّة يد والدتها، وجلست أمامها تسألها عن أحوالها وصحتها وأخبار البلاد.

كان مما قالته أمها لها أنَّهم جميعًا مدعوون في الغد لحضور وليمة عرس أحد الأقارب من جهة أخوالها، ما عدا زوجها عمر، وقالت لابنتها في استغراب: «شفتي يا صفيّة يا بتي، آل خالي سعيد آه لقّوا فينا؟ عزموا نحنا كلنا؛ أني ومريم ويسلم، وخلوا أبوش مسكين قصّروا بُه. يع منّهم! ليه وراه بايكسر الصحن حقهم هو؟! ماني ألا قُت لبوش ما باروّح أبدًا؛ منشان يعرفون أنني حنقانة عليهم. كن أبوش الله يهديه، ما رضي أبدًا. قال روحي يا زينة واه بغيتي بالحنق؟ ماشي داعي، وهو ألا يوم وبايعبر، لقوا لي حبات رز طرحوها في التنّار، ولا كذ جيت من صلاة الظهر، بوكلها وبانام، والمغرب كذكم باتضوون.»

- «يووه يمّه! صدق شيه ألا ماهو ريض منّهم أبداّ، عيب عليهم! كيه في عرس يسلم وفي عرسي عزمناهم كلهم؟ ألا شيها بايقع غلطة قعت، وألا حد ما يعرف هو لي كتب العزام.»

- «مندري يا بتّي، ما درينا ليه جاء العزام ألا هوكذا.»

- «ذحين سمعيني يمّه، أبوي ما بيقعد في الدار وحده ولا حاجة، قولي له شُف صفية بتّك هي ومبارك عازمينك عالغداء عندهم، كذني ألا فقدانته جم يمّه، خليه يجي عندنا بانرتعش نحنا ويّاه، حتّى خالة عيشة شيها معزومة في العرس هوذا. أم الكلان عزمتها؛ يومها صاحبتها.»

- «خلاص طيب باقول له، عساه يرضى بس، عاد أبوش ما هو كما الناس يا صفية عني جم.»

- «عني حتى على بتُّه؟! لا لا يمّه شيش ألا غلطانة، انتي عليش ألا قولي له وهو بايجي عندنا معاد سيبش.»

- «إن شاء الله.»

- «طيب يمّه خلاص، شي العصرية ألا غلقت كما ساعة! وذحين ودّعتش الله. خلاص شيه هوذا الكلام، خلوا أبوي يجي عندنا غدوة.»

- «إن شاء الله يا بتي، أني باقوله وبانشوفه يقول هواه.»

- «هيَّا حيَّابكم، وسلمي على يسلم شيني ما شفته لَه، ما مريم نعم حصلتها قاعدة في الحوش تشطف، قعدِت عندها قليل قبل ما اطلع عندش.»

- «هيَّا حيَّابش يا بتي. سلمي على مبارك.»

خرجت صفية من بيت أهلها لحظة غروب الشمس. كانت تخشى أن يأتي مبارك ولا يجدها في المنزل، فحثّت الخُطى؛ علّها تصل إلى البيت بسرعة. ولكي تختصر الطريق، مرت عبر أرض غير مبنية، وبينما هي تمشي مسرعة، إذ عثرت قدمُها بما يُشبه الحبل كان مرميا على الأرض.

استطاعت صفية الحفاظ على توازنها بصعوبة، وعندما نظرت إلى ما كاد يُسقطها، وجدت بعض ثمار القرع. قالت لنفسها: «الحمد لله، كذها ألا باتسقطني الفقوزة ذي!»

التفتت لتجد أن هناك العديد من الثمار مزروعة في الخلاء، مختلفة الأحجام. مدت يدها تنتزع البعض منها وتضعه في جيب ثوبها، قبل أن تُكمل الطريق إلى منزلها.

سلَّمت صفية على العمَّة عيشة، فقد وجدتها مع حسُّوني في مدخل الدار، وسألتها: «حد مبارك جاء وألا عاده؟»

- «لاه، عاده شيه ما جاء لَه.»

فرحت صفية لأن مبارك لم يعد من زيارة صديقه بعد، وبعد أن دخلت الدار، نزعت قميصها ووضعت فقوزها في المطبخ، ثم صعدت لترتاح في غرفتها.

عندما وصل مبارك وجدها في انتظاره، فظنَّ أنها لم تذهب إلى أهلها: «كنش ألا هنا يا صفية؟ معاد رحتي عند أهلش لَه؟»

- «نعم رحت، وعادني ألا قبل قليل جيت.»

- «هاه وكيه أحوالهم؟»

- «بخير يسلمون عليك. ألا صدق باقول لك يا مبارك قبل ما انسى، شفني عزمت أبوي غدوه يتغدّى عندنا.»

- «أبوش بس؟! ليه كذا؟ بغيتي الباقيين يحنقون مننا؟»

- «الباقيين ألا معازيم في العرس حق أخوال أمي، عزموهم كلهم إلا أبوي، قصّروا بُه. يع منهم!»

- «ألا بايقع غلطة في العزام والا شي.»

- «بايقع، حتى أني قُت هوكذا، بس خلاص مكتوب لنا شُوْف فيه. رجعت أني عزمته عندنا، بايتمي وحده في الدار كما النقرور مسكين! بغيناه عندنا وبانرتعش مرّة.»

بعد أن صمت مبارك قليلاً سأل صفية: «وراه هوذا العرس اللي عمَّتي عيشة معزومة فيه؟»

- «بِيْوا هوذا حق آل علي عبود، حتى أني ما عزموني، يَع منّهم!»
- «خاف صغَّروا العرس؟ ماحد داري بأحوال الناس.»
- «مندرري! المهم ذحين شفني عزمت أبوي وخلاص.»
- «ريض ريض. وافي عليش يوم عزمتيه، بايفرح منّش جم.»

الفصل السابع والعشرون: وليمة

في اليوم التالي بكَّر مبارك قليلاً في العودة من عمله في المزرعة، وأحضر معه بعض الخضروات التي أعطاها إياه العم عوض بعد أن علم أنَّ لديه ضيف في المنزل.

فرحت صفية، وأرادت أن تطبخ لأبيها وزوجها أكلة شهية مكونة من الأرز الأبيض وإدام الخضروات المنوّع، فقد كانت وجبة أبيها المفضلة.

غرقت صفية في المطبخ؛ لإعداد وجبة الغداء قبل أن يصل أبوها، وقد وصل إليهم متأخرًا لأنه آثر أن يجلس في دكانه يستقبل زبائنه أطول فترة ممكنة، فالأسواق كانت حينها متحركة. عندما وصل قابلته هي ومبارك فرحين ومستبشرين بوجوده عندهم.

بدوره جاء إليهما العم عمر محملاً بالهدايا من دكانه؛ أقراص بسكويت، وصرة من المكسرات المتنوعة، إضافة إلى أصناف من الحلوى اللذيذة.

- «يا حيا يا حيا بالعم عمر، آنست يا عمي، يا حيابك.»

- «الله يانس بك يا ولدي.»

- «كنّك بطيت علينا؟ كذ نحنا ألا قلنا إنك معاد باتجي.»

- «ألا قعدت في الدكان عادنا بعد صلاة الظهر، شفت الحركة ذي الأيام لا باس بها، قلنا يالله بانلقط لنا كم زبون، وإنتو عادكم ألا لي. وين حسُّوني؟ والا عند عمَّته عيشة؟»

أجابت صفية: «لاه نيم، ما عمَّتي ألا معزومة في العرس هوذا. أم الكلان صاحبتها.»

ثم سألته بدورها: «وآه انته؟ عساك بعت شي بعد صلاة الظهر عادك؟»

- «نعم ما شاء الله. هو السوق أصله ذي الأيام متحرّك قليل.»

- «الله يبارك يا عمّي.» قالها مبارك ثم التفت إلى صفية: «يالله قومي يا صفية قدّحي الغداء هيّا، كذه ألا قريب عصر شيه، قومي اشتلّي!»

- «طيب طيب.»

توجهت صفية إلى المطبخ، وسكبت الأرز الأبيض في صحن، ووزعت إدام الخضار فوقه بصورة جذابة وجميلة تفرح الناظرين، وقَدِمت إلى حيث يجلس أباها وزوجها.

رأى الوالد طبخة صفية، فأعجب بترتيبها وتزيينها لها في صحن التقديم، وذوقها الرفيع في توزيع الإدام بصورة فنية مُتقنة، فقال يُطريها: «ابببببب! آه ذا يا صفية؟! تطورتي يا بتي! شكل الأكل بس يفتح النفس. ما شاء الله، ما شاء الله! يالله بسم الله قربوا قربوا.»

فرح مبارك من اطراء العم لزوجته، ونظر إليها مخاطبًا أباها الذي لم يطق صبرًا ومدَّ يده قبلهم؛ ليستمتع بطبخ ابنته الرائع: «شفت لَه يا عم عمر؟ قلت لكم إنها باتعقل وباتقع ايش على حرمة، وانتو ما صدقتونا! ذحين شوكم تشوفون بأنفسكم.»

قال مبارك جملته الأخيرة وهو يرفع أول لقمة ليأكلها، لكنه توقف عن وضعها في فيهِ مستغربًا لمَّا وجد العم عمر مُتسمِّرًا بعينين جاحظتين أمامه!

لم يُسعفه الوقت ليسأله عن سبب ذلك، فقد التفت العم عمر جانبًا وبدأ يسعلُ بشدَّة، ثم قام بعدها مسرعًا خارجًا من الغرفة.

سألت صفية زوجها مستغربة: «كنه أبوي؟ آه حصل لُه؟»

- «شكله كان جويع جم مسكين، سرط لقمته بسرعة وشِرق بها. توِّش كمّلي غداش، وأنا باروح قداه.» قالها مبارك وهو يهمُّ بالقيام، متناولاً لقمته الأولى بدوره.

تغير وجه مبارك فجأة بعدما تذوق الطعام، فقد ارتفع حاجباه للأعلى، واتسعت عيناه بشدَّة، وبدلاً من أن يذهب ليطمئن على عمِّه ركض باتجاه النافذة، وبصق ما أكله من الطعام.

كان صوت العم عمر يُسمع من الحمام المُجاور، وقد توقف سعاله الشديد، واستُبدل بصوت استفراغ متواصل!

نظرت صفية في ذهول إلى زوجها الذي كان واقفاً على نافذة الغرفة يُعاني من غثيانٍ شديد، بعد أن لفظ الطعام الذي أعدته إلى الخارج. أخفضت بصرها إلى الطعام، ومدت يدها لتأكل لقمة منه. أخذت بضع حبات من الأرز الممزوج بإدام الخضار، ووضعتها في فمها بتوجّس.

صُدمت صفية، وعَلمت لمَ كان الجميع يتصرف هكذا، كان الطعامُ مُرَّاً كالعلقم! لم تتحمل الطعم الفظيع، فنهضت مسرعة نحو مكان الشاي، وفتحت الوعاء الذي يُستخدم لنفايات الشاي، وتخلصت فيه مما وضعته في فمها من الطعام ثم أعادت غطاءه، ومدت يدها نحو علبة السكر القريبة من عدّة الشاي، وتناولت منها ملعقة صغيرة.

شعرت صفية ببعض الارتياح، فقد خفف طعم السُّكر الحلو مرارة طبختها الكارثية! نهضت بعدها مسرعة نحو مبارك، الذي كان لا يزال مُطلاً من النافذة في حالة من الغثيان الشديد.

مدت له بملعقة من السكر مخاطبة إياه بتوتر شديد: «ششل... شل لك قليل من ذا السكر يا مبارك. بيروّح ب...»

لم تكمل صفية كلامها؛ لأن مبارك دفعها بشدة إلى الوراء دون أن ينظر إليها، فتراجعت مسقطة الملعقة، ليتناثر السكر على سجادة الغرفة. ابتعدت صفية عن مبارك، وجلست باكية في إحدى زوايا الغرفة.

عاد الأب من الحمام أخيرًا وهو يترنَّح، وخاطب مبارك بصوت مبحوح: «مبارك. مبارك كيه ناولنا... قصعة السكر يا ولدي، والا حتى قليل من الحلوى لي جبتها من الدكان، شفها في الكيس ذاك.»

كان مبارك قد هدأ قليلاً، فالتفت إلى عمه. كانت علبة السكر المفتوحة أقرب وأسرع إليه من الحلوى، فناولها مبارك إياه.

تساءل العم عمر: «ذحين وين المعلقة حقها؟»

أجابه مبارك بوجه عابس، وبعينين نصف مغلقتين: «شفها...ذي في القا...ع يا عمّي.»

التقط العم عمر الملعقة بسرعة، وغرف من علبة السكر ملعقة ووضعها في فمه. شعر بالارتياح بعدها، وعاد إليه هدوءه. كان مبارك لا يزال يعاني من غثيان شديد، فأسرع العم عمر يناوله ملعقة أخرى، فوضعها مبارك في فمه على عجل.

عاد الهدوء إلى الجميع أخيرًا، وجاء وقت اللوم والعتاب.

أخذ مبارك صحن الغداء، وألقى به مع محتوياته إلى الشارع من شدة غضبه وقهره، بينما غرق العم عمر في موجة من الضحك؛ نتيجة لتصرف مبارك الغريب. لكنه عذره، فما صار قبل قليل ليس بالأمر الهيّن.

نظر الاثنان إلى صفية القابعة في زاويتها تندب حظها، وصرخ مبارك يخاطبها: «وعادش تبكين يا المجرمة؟ خلّيتي نحنا في حالة كشفا أنا وأبوش وذحين قاعدة تبكين؟ آه لقّيتي في الغداء يا الحمارة؟!»

أجابت صفية بصوت متهدِّج متقطع: «والله... والله ما لقّيت شي... يا مبارك، والله ما لقيت شي. ألا رز... وخُضرة... وحواجات وملح... وبس.»

أستشاط مبارك غضبًا، وهتف بتهكُّم: «وبس، وبس؟! وبس هواه؟! ما طعمتيه لَه؟ قار كما الصُّبُر! حرام عليش يا حرمه، حرام وعيب لي تقّينه فينا ذا.»

أشفق العم عمر على ابنته الحبيبة من شتائم زوجها الغاضب، وعلم أن في الموضوع سرًّا ما، فاتجه إلى ابنته يسألها: «كيه تفطّني يا صفية آه لقّيتي في الغداء يا بتّي؟ تفطّني بس؟»

ردت صفية وهي تكفكف دموعها: «والله... ما طرحت فيه شيء أبدًا... ألا هيذي الأشياء... لي نقّيها دايم.»

أخذ العم عمر نفسًا عميقًا، وسألها مجددًا: «آه هيذي الأشياء؟»

- «أول طرحت ماء... وطرحت له قليل ملح، وبعدين طرحت الرز... بعد ما مَرَّسته ثلاث مـ...»

قاطع العم عمر كلام ابنته، وسألها: «خليش من الرز، قولي آه طرحتي في الصانة؟ القُرُرَّة كانت في الصانة يا بتّي، ماهي في الرز لَه.»

ردت صفية بصوت منخفض: «والله ماشي يابه أبدًا، أول حمّست البصل والثوم، وبعدين فوّرت الخُضرة لي جابها مبارك من حقُّه المزرعة، وطرحتها فوق التَّحميسة. بس هوذا لي لقِّيته.»

- «بس يا صفية؟ ما طرحتي شي حواجات ماهي زينة؟»

- «لا والله ألا هيذي حقَّنا حق كل يو...»

صمتت صفية برهة وكأنها تذكرت شيئًا، ثم قالت بعدها بتردد: «نعم يابه، عادني طرحت فوق الخضرة لي جابها مبارك مندري كم فقّوزات. لفلفتهن البارح واني جِيّه من عندكم.»

سألها الأب باندهاش: «منين جبتيهن؟»

- «من الشارع، طلعن حق المطر. وكذها ألا وحده منّهن باتعنكر لي. بعدين قعدت لفلف لي كم حبات، وجبتهن معي.»

- «وطرحتيهن فوق الصانة؟»

- «نعم يابه، طرحت ثنتين منهن بس، وثنتين عادهن.»

هنا أراد الأب التأكد من شيء ما، فطلب من ابنته أن تأتي بالفقوز الباقي، مع سكين من المطبخ. ذهبت صفية إلى المطبخ وأحضرتهما.

قطع الأب جزءًا من إحدى الثمرتين بالسكين، ثم وضع طرف سبّابته في الجزء الداخلي المقطوع، ثم وضعه على لسانه؛ يتحسس طعمه، فإذا بحالة الغثيان تعود إليه من جديد، فناولته صفية السكر، فأخذ ملعقة وهدأ بعد تناولها.

بعد لحظات تكلم الأب بصوت حزين: «ذا هو السبب يا صفية اللي خلى الصانة بالقررة ذي. ذا يا بتّي ما هو فقّوز لَه، ذا يسمونه حَدَج، قار ماحد يطرحه في الصانة لَه، يعصدها ويخليها قارّة كما لي حصل قبل قليل.»

- «ماني ماني دارية يابه، حسبته ألا فقّوز زين.»

- «يا بتّي لا كذ معش فقّوز والا حد جاب لش إياه، قبل ما تطبخينه أول قطعي قليل منّه وطرحيه في لسانش، إن حصلتيه قار انتبهي تطرحينه في الصانة، شيه بايخليها قارَّة، حتى الغنم ما بيوكلنها لا عطيتيه إياهن!»

همست صفية وهي تنظر للأرض: «طيب يابه، توبة خلاص، ذحين عرفت.»

لم يستطع مبارك تمالك نفسه، فهتف ساخرًا بعد أن كان يراقب الحديث بصمت: «بعد هواه؟ بعد ما عذبتي نحنا وحرمتي نحنا من غدانا؟!»

سكت مبارك قليلاً، ثم تنهَّد وهو يضع يده على جبهته قائلاً: «العفو منك يا عمّي على العزومة النكد ذي.»

رد العم عمر مواسيًا: «ما يقول شي، ألا قلة الخبرة هي اللي خلتها تقّي هوكذا، سامحها يا ولدي، الحياة ألا هوكذا، تجارب، والواحد يتعلم من لي يحصل له، ولعاد يكرره.»

- «الحمدلله يا عمي إن نحنا بخير، مانا ألا قايست عمري باموت! مانا داري آه لي حصل لنا.»

ثم التفت مبارك إلى صفية، التي أسرعت وأبعدت نظرها عنه، خاطبها بحدّة: «يالله يا البلهاء، قومي لقّي لنحنا غداء ثاني، جويعين!»

هنا تدخل العم عمر مبتسمًا: «غداء ثاني هواه؟! شفه ألا عصر أذّن. كيه شونا جبت بسكت من الدكان، خلوا نحنا نوكله ونسكّت جوعنا به. كيه ناولنا البقشة ذيك يا مبارك.»

ناوله مبارك عمَّه البقجة، فأخرج منها العم عمر أقراصًا من البسكويت اللذيذ وزّعه على الجميع، وجلسوا يستمتعون بأكله وطِيب مطعمه.

بعدها استأذن العم عمر، وغادر عائدًا إلى منزله، بينما جلس الزوجان في حالة من الجفاء والخصام.

عندما غادر العم عمر منزل مبارك، رأى صحن الغداء الذي ألقى به مبارك مرميًّاً في الشارع إلى جوار المنزل، فأحب أن يُبعده عن عيون المارة؛ حتى لا يتسبب في إحراجٍ لزوج ابنته، فأخذه من قارعة الطريق، ووضعه في مدخل الدار، ثم أغلق الباب، وغادرٍ إلى بيته.

الفصل الثامن والعشرين: ذوق رفيع

مرّت سنتان أخريان على زواج يسلم. بعدها حملت زوجته مريم، ففرح الجميع بهذا الخبر السار كثيرا، ولكن ما حزَّ في نفوسهم جميعًا أن مريم عانت في هذا الحمل كثيرًا. منعها المعالجون حينها من ممارسة الأعمال المنزلية حتى البسيطة منها، أو التعرض للحركة الزائدة حتى تضع حملها، فصارت عبئًا كبيرًا على أهلها وأهل زوجها.

في ظل هذه الظروف، خُطبت أختها نور صديقة صفية على محفوظ صديق مبارك، والذي يتناوب معه العمل في دكان الأواني المنزلية الذي يملكه الشيخ عبدالكريم زين. حُدِّد يوم زواجه، فكان على آل البقل تجهيز ابنتهم.

أبو العروس وأخوها كانا منشغلان في أعمال المزارع، ولن يتسنَّ لهما الذهاب إلى سوق المدينة البعيد، فأوكلا الأمر إلى خميسة والدة نور، وزوج ابنتها يسلم، وأمه الخالة زينة.

لم يُخبَر يسلم مسبقًا بالأمر، بل وجد خميسة تناديه عندما كان يهمُّ بركوب عربة الحمار للذهاب إلى المدينة؛ لشراء بضاعة الدكان، وقد أخبرت مريم أمها بأمر الجولة الشرائية ليسلم عندما وصلت لزيارتهم، فاعترضته أمها خميسة وطلبت منه أن ترافقه إلى المدينة للتبضع لشراء ماعون ابنتها العروس نور.

أخبرته خالته أن زوجها وابنها مشغولان في المزرعة التي يعملان بها، وقد رفض صاحب المزرعة إعطائهما إجازة للذهاب إلى المدينة؛ متحججًا أن بإمكانهما الذهاب إليها عصرًا. انضمت الخالة زينة والدة يسلم إليهما أيضًا.

وافق يسلم على أن ترافقه خالته خميسة وأمه إلى السوق، لكن الخالة خميسة طلبت منه أن يذهب لإحضار صفية أيضًا؛ لأنهما لوحدهما لا تستطيعان شراء ماعون جيد يليق بابنة خميسة الأخيرة (آخر العنقود) فهما لا تفهمان في الأشياء المستحدثة التي تحبها النساء من جيل الشباب كما قالتا.

اقترح عليهما يسلم أن يستعينوا بعمّتهم زهرة زوجة العم حسن مؤذن مسجد المؤمنين، فرفضت الخالة خميسة متذرعة أنها عجوزٌ لا تفهم في بضاعة الشابات الجميلات كما تفهم أخته صفية.

رفض يسلم طلب خالته خميسة في أول الأمر؛ بحجة أن مبارك زوج صفية قد ذهب إلى عمله، ولم تطلب صفية إذنه، وهو الآخر الآن مستعجل لشراء بضاعة الدكان.

أخبرهن يسلم أن يؤجلن جولتهن الشرائية إلى وقت آخر، فرفضت الخالة خميسة، وبدأت تمنُّ عليهم: «ألا بغيت هومن يجي قفانا يا يسلم، غير مانته عينك على مريم مرتك الحامل المُصَوَّنة، بغيتها تندر لي في شواها أهواه؟! كيه ما صدَّقنا إنها تشل بُه. رح يالله قل لصفية أختك تعالي ذحين، بانروح المدينة بانشتري ماعون صاحبتش نور، شفها باتفرح جم، وإنك ألا من شور مبارك، خلها تطرح خبر عند عمّتها عيشة، ولا كذ رجع مبارك باتقوله، والا خلاص استكفيتوا. نسيتوا إن مريم بتّي يوم خطبت أختك صفية هي لي أختارت ماعونها، ذحين جاء دوركم تردون الجميل. والا باتنكرون عادكم؟!»

تحت إلحاح الخالة خميسة وأمه، توجه يسلم إلى دار مبارك، وطلب من صفية مرافقة النساء في جولة السوق لشراء ماعون نور، لكن صفية رفضت وتذرّعت بأنها لم تخبر مبارك قائلة: «سمع يا خوي، ماني ما باروِّح لَه، مبارك ماهو داري. ما قلت لُه إني باروح السوق قفاكم، ما عندي خبر من أمس، ولا هو ريِّض روح من غير ما شاوره.»

ألحَّ عليها أخوها يسلم في الذهاب معه، ووعدها بالرجوع قبل عودة مبارك، وأخبرها أن تُخبر العمة عيشة بالأمر، لتُعلم مبارك بدورها، إذا ما صادف وتأخروا قليلا عن الحضور، أو حضر مبارك مبكِّرًا.

تحت إصرار أخوها يسلم، أذعنت صفية لأمره ولبست قميصها، وأخبرت العمة التي كانت في الحمام حينها تُغسِّلُ بعض الثياب أنها ذاهبة إلى بيت أهلها، لمرافقتهم إلى السوق. لكن العمة لم تسمع منها سوى أنها تريد الذهاب إلى أهلها فقط، فوافقت

وقد ظنت أنها اشتاقت لرؤية أمها، وستعود مبكرة، وذهبت صفية مع أخيها يسلم وأمها والخالة خميسة إلى سوق المدينة للتبضُّع.

***

كانت السماء صافية تمامًا، وحرارة الشمس قد بدأت تشتدُّ وتلسع كلَّ من يمشي تحتها. أسرعت العربة إلى المدينة، حتى وصلتها أخيرًا في وقت قياسي، وقبل أن يخرج يسلم والنساء من العربة، سأل يسلم العربجي: «متاه باترجع سبولة يا عم كرامة؟»

- «لمّان حصّل لي زبون بارجع.»

- «خلاص يا عم كرامة، نحنا زباينك. شف نحنا بانتبضّع من المدينة قليل، وبعدين بانلاقيك تحت قصر السلطان، عند الجامع حق السوق، تمام؟»

- «طيّب يا ولدي، وأنا في المدة هيذي إن حصلت لي شي توصيلة حق حد في داخل البلاد ذي كذه من زايد. ريّض يا يسلم والا لا؟»

- «ريض. توّك الله ييسر لك. وذحين العدي حقك شفها بعدين بعطيك إياها بعد ما نرجع سبولة تمام؟ كذها حق المشوارين؛ المراح والمرجع.»

- «طيب طيب، ما بانختلف لَه. انته ألا معروف، وكذك ما تقصر معي دايم أبدًا.»

- «يالله يا الحريم تبعنَّا، باروِّيكن الدكاكين وانتين تبضّعن لي بغيتينه. كنّكن سرعن؛ بغينا بانرجع سَمِح.»

بعد خروج النساء من العربة سرن مع يسلم للتبضع وشراء ماعون نور. بدأن أولاً بشراء أدوات الزينة والصناديق، ثم الملابس والعطور، ثم بعض الأواني التي تحملها العروس معها إلى بيت زوجها في عادة أهل القرية.

توجهن أخيرًا إلى سوق الشطف؛ لشراء الأشياء الغير متوفرة لديهم منه. وقمن ضمن جولتهن بشراء فضّة نور وبعض الذهب، ورافقهنَّ يسلم في هذه الجولة.

استغرقت جولتهن الشرائية ساعتان تقريبًا، ثم جاء دور يسلم لشراء حاجيَّات الدكان من المواد الغذائية التي أراد شراءها، والتي نفدت من دكانهم المتواضع، وحتى جولة يسلم أخذت من الوقت ما أخذت. أذّن ظهر ذلك اليوم وهم لا يزالون في المدينة.

تفاجأ يسلم بالأذان، فقد ظن الوقت مبكرًا، ولكن ظنه خاب بسماع المؤذن يرفع الأذان. بعد أن أكمل يسلم جولته الشرائية هو الآخر، وكان قد ترك النساء مع أشيائهن المشتراه في ظل دار كبير، وطلب منهن ألا يغادرن المكان حتى يعود إليهن، فجلسن في المكان المحدد منتظرات قدومه.

بعد قدومه إليهن توجهت العائلة إلى حيثما اتفقوا مع صاحب العربة، ليجدوه هناك، وبالفعل وجدوه فتحرك مع يسلم فقط للملمة البضاعة الكبيرة التي لا تستطيع العائلة حملها من المتاجر التي اشتروها منها، بينما طلب من النساء البقاء في ظل هناك قرب قصر السلطان.

حاول يسلم أن يُلطّف الجو على العربجي، فسأله: «عساك حصّلت لك كمّة مشاوير يا عم كرامة؟»

- «والله ما شاء الله يا ولدي. المدينة فيها حركة، ومانا ألا حصلت لي بركة الله.»

- «الله يهنّيك يا عم كرامة، يالله ذحين لوّل بانجيب الحاجات البعيدة، بعدين بانرجع للقريبة. ذحين توك يا عم كرامة، لا سوق الشَّطف.»

اتجهت العربة إلى سوق الشطف وهي تحمل يسلم والعربجي فقط، بينما وقفت النساء بانتظارهما حسب أوامر يسلم أيضًا. كانت صفية حينها أكثر قلقًا من الجميع؛ لأنها لم تستأذن زوجها في الذهاب إلى سوق المدينة. ولكن كون يسلم صاحبه هو من أصر على ذهابها كان يخفف عنها قليلاً من خوفها.

بعد عودة يسلم والعربجي تحرَّك الجميع إلى قرية سبولة.

***

في قرية سبولة، كان مبارك قد عاد من عمله. لم يجد صفية في المنزل، فسأل عنها العمة، فقالت له أنها ذهبت إلى بيت أهلها في الصباح ولكنها لم تعد إلى الآن، فخاطبها: «بايقع استهيت عندهم، حصّلت حد من صاحباتها وقعدت في كلام وخراط ما منّه فايدة.»

- «ذحّين باتجي.» هكذا هوَّنت الخالة على مبارك الأمر، وأردفت «بغيتني اغرف لك غداك يا ولدي؟ شفني ألا لقّيته يوم تأخرت مرتك.»

- «لا لا، بانوكل ألا مرّة لمَّان تجي صفية يا عمّة.»

انتظرا بعد ذلك قرابة النصف ساعة، ولمَّا طال انتظارهما نهض مبارك خارجًا للبحث عنها قائلاً: «خلاص يا عمّة، باقوم أنا ذحّين أحسن، باطرّب على الحرمة المسهوية ذي. ما تجي ألا بالتطاريب!»

ذهب مبارك يحثُّ الخطى باتجاه بيت عمّه. نظر إلى الدكان أولاً، فوجده مغلقاً. بعدها طرق الباب طرقًا خفيفًا، لكن لم يُجبه أحد. زاد من شدة الطرق قليلاً ولكن دون فائدة.

استغرب الأمر، وحدَّث نفسه متهكِّمًا: «ذحين ماتوا الجماعة ذيلا أهواه؟ وينهم كنُّهم ما لهم حس؟»

ثم أكمل وهو يحاول أن يتذكّر: «مانا فاطن إن صفية قالت لي إنها معزومة هي وأهلها عند حد. ماشي عرسات ذي الأيام في القرية أصلاً، طيّب ألا وينهم ذيلا الناس؟ لا يسلم، ولا العم عمر، ولا حتى الحريم في الدار؟ آه الخبر؟! أكيد فيه حاجة أنا معرفها. بس خلاص، ما ذحين ألا برجع الدار.»

***

كانت صفيَّة طوال الطريق من المدينة إلى سبولة متوتِّرة بشدَّة، لم تكف رجلها عن الحركة على الإطلاق طوال الطريق! لم تطق صبرًا حتى تتوقف العربة تمامًا أمام بيت أبيها، بل قفزت بسرعة عن سطحها إلى الأرض، وترنَّحت قليلاً قبل أن تعتدل في وقفتها.

صاح فيها يسلم: «تريَّضي، تريَّضي! خلاص وصلنا.»

لم تلتفت صفية إليه، بل هرعت نحو بيتها بخطوات متعثرة في البداية، ثم أسرعت الخطى وهي متأكدة تمامًا أن مبارك لابد أن يكون قد عاد من عمله.

سمعت أخاها من بعيد يصرخ مناديًا لها ثانية: «انتبهي تتكعولين! خلِّي الطعرة حقَّش!» لكنها لم تكترث لكلامه، وواصلت طريقها نحو دارها، تسبقها أشواقها إلى ولدها المسكين.

توقّعت أن يكون مبارك غاضبًا منها كثيرًا، ولقد صدق ظنها. فما إن وصلت إلى الدار حتى بدأت تقرع بابه بشدَّة وقلبها يخفق بسرعة.

بعد لحظات فتح مبارك الباب، ولم يمهلها كثيرًا حتى صرخ فيها غاضبًا: «ذحين وينش يا حرمة؟! وين رحتي؟»

أجابت صفية وهي تلهث: «ألا رحت... عند أهلي. رحت أني ويَّاهم لا سوق...المدينة نشتري الماعون حق نور صاحبتي.»

- «وليه ما قُتِّي لي انتش باتروحين معهم؟»

لم ترد صفية عليه، بل خطت مسرعة إلى الأعلى حيث يوجد ابنها. عندما صعدت صفية ودلفت إلى غرفة جلوسهم توجَّهت مباشرة إلى حيث يرقد ابنها، فوجدته يغطُّ في نوم عميق.

تساءلت صفية باستغراب: «ذحين كنه ولدي ألا نيم كذا؟! رجع ألا نوَّام ويخط في النوم!»

انتهرها مبارك ساخرًا: «عطيناه لبن دابّة، مَرَت الحمار! سمعتي؟»

- «هاه صدق يا عمّة؟ عطيتوا ولدي لبن دابّة؟! ليه هوكذا؟»

- «لا لا عطيناه لبن غنم. مبارك حلب له شاة، وسقيناه اللبن حقها كما كل يوم. وذحين نام.»

استمر مبارك في استجوابها قائلاً: «ذحين ليه ما ردِّيتي علي قبل قليل يوم سألتش؟ وليه ما قُتِّي لي انّش باتروّحين سوق المدينة باتتبضّعين؟»

- «ماحد قال لي يا مبارك، ذلا جالي يسلم هوكذا على غفلة، وقال لي ذحين بغيناش تروحين قفانا السوق؛ شي أمّش ماقفت لش هي وأم مريم في العربية. رجعت أني طرحت خبر عند عمّتي عيشة وروّحت.»

- «عمّتش عيشة ما سمعتش يوم قتّي بغيتي السوق حق المدينة، قايستش ألا بغيتي عند أهلش باتشوفينهم ساعة وباترجعين.»

- «لَه، ذلا هي ما سمعت سوا؛ يومها كانت في الطهارة تغسِّل.»

- «خلاص يالله خبِّي غرفي الغداء حقّنا. شي نحنا كذ نحنا ألا بانطق من الجوع.»

ردَّت صفية بأسف: «ألا عادني ما أقِّيته لَه، ذحِّين باتحيمش باقِّيه.»

- «عمَّتي عيشة استحيرتش وأقته، انتي الا غرفيه بس.»

- «طيب وليه آقفتوا لي؟ كان تغدِّيتوا.»

- «لوَّل غدينا حسُّوني، عطيناه لبن ونام.»

- «لبن شاة، ماهو لبن دابّة يا المتهقِّل!»

- «بحسِّش يا صفية؟! بغيتينا نسقي ولدي لبن دابّة؟ بغيتيه يطلع مصمَّخ كماش! هيا هيا بلا تليداد، قومي غرفي الغداء.»

- «أول باصلِّي يا مبارك، كيه يا عمّة عيشة غرفيه انتي جزاش الله خير، كذ أقِّيته وعادش تجمَّلي وغُرفيه.»

- «طيب طيب، باروح باجيبه، وانتي سرعي صلّي شيه كذه ألا قريب عصر.»

بعد تناول الغداء، أخذت صفية حسوني من فراشه واحتضنته وقبّلته بحرارة وشوق.

سألها مبارك مستفسرًا: «ألا باقول لش يا صفية؟ ذحين كلّكم رحتوا السوق؟ حتى عمّي عمر؟ كنُّه حتى هو بايعرّس والا هواه؟!»

- «يالله خَارَي من كلام التهقَّال حقك ذا! شيبه هو بايعرّس؟!» ثم استدركت: «أبويه ألا في الدار. ليه رحت انته؟»

- «وذلا، رحت ندور لش. ما حصلت ولا سكني في الدار!»

استغربت صفية مما قاله زوجها، وأكدت له أنه في المنزل: «لاه أبويه ألا في الدار.»

- «لا في الدار، ولا في الدكان.» ردَّ مبارك مؤكدًا كلامه.

- «مندري، ماني ماني داريه وين راح لَه، بايقع صلَّى الظهر ونام في المسجد.»

- «خلاص يا غير كذها فضيلة علينا. تجي في كور لقرح!»

أوقفت العمة عيشة الجدال بينهما: «خلاص يا مبارك يكفي. مرتك جات، ولعاد شي فايدة من المناقرة حقكم ذي.»

سكت مبارك بعدها، ولمَّا كان أذان العصر قد رُفع قبل قليل، فقد آثر أن يذهب إلى المسجد لأداء الصلاة.

الفصل التاسع والعشرون: مصدر تمويل

كان من المعتاد أن يزور يسلم أخته في بيتها؛ ليطمئن عليها بين الفينة والأخرى. زارها كعادته في يوم من الأيام، وسمعته العمة يُحدِّث مبارك قائلاً: «طيب آه رايك يا مبارك تبيع الأرض حقك، شفها ذحين باتجيب لك قيمة زينة، وبعدِّيها تقِّي لك شغل تكسب منه لقمة عيش، وقلعك من دكَّان الشيخ لي ما منِّه فايدة.»

- «آه من شغل يا يسلم الله يهديك، أنا مَعرف لشي أبدًا إلا الزِّراعة! آه من شغل بغيتنا أقّيه، قُلّي؟»

- «أي شغل يا مبارك، فتح لك بالعدِّي لي باتجي من قيمة الأرض دكان كما حق الشيخ.»

- «مانا حس عمري ما بفهم في التِّجارة أبدًا.»

- «ما تفهم هواه؟! ما انته تشتغل في دكان الشيخ لك سنين لَه؟»

اعتدل مبارك في جلسته قليلاً قبل أن يُجيب: «سمع يا يسلم، يومه ماهو حقي نشتغل فيه، وآه عسى الله فايدته منّه، شف عبدالكريم دايم يشوي الخوص! ويقول إنه ماشي فايدة من الدكان ذا أبدًا.»

- «يشوي الخوص هواه؟! ذلا شفه من العين يقول ماشي فايدة. والله إنه يحصِّل فوايد ما بعدها فوايد!»

فكر يسلم قليلاً، ثم اقترح على مبارك: «طيب إن كانك ما انته مقتنع بدكان الأواعي، لق دكان حق مواد غذائية كمانا.»

- «آه الخلق هم لي في سبولة عسى الله؟ يالله بهم يكفونكم! ويالله شراء الدكان بايشل قيمة الأرض كلها.»

- «كلين برزقه يا خوي، أمَّا من ناحية شراء الدكان، من قال لك أنك باتشتري دكان؟ وحده من المَيَاسِم حقكم فتح لها باب للشَّارع وخل العدي حق الأرض كلها ألا للبضاعة لي باتطرحها فيه.»

تردد مبارك قليلاً قبل أن يجيب: «مانا شفنا مانا مقتنع بالتجارة أبدًا، نفسي ما بغتها. هيذي الأرض بايجي وقتها إن شاء الله على قليل قليل، الحمد لله شفنا خلّيت واحد يحفر البير فيها على فضوته، وعاده ألا قبل كم أيام كلمنا، وقال لي شف الماء ظهر فيها.»

- «وخلّيته يقّي حَضَار حق شوك على درية البيِّر؟ منشان ماحد يتوهدر فيها؟!»

- «أيوا كيه! زَكَّنِت عليه. وهو كذه ماحد يعرِّف عارف، عرف من عنده ولقَّاه من قبل ما قولُّه.»

- «المسألة يا خوي ما هي مسألة ماء وبس. حتّى الأرض شفها بغت تسوير، والا شف السرق لا قعت مزرعة ما بايخلون لك شي أبدًا لا كذها مفتوحة هوكذا ولا شي حراسة فيها، والا الرعيان وحقهم الغنم بيعبرون فيها وبايبهذلون بها عليك، وانته باتطارد من والا من؟ بايبلّهون بك! لازم تسوِّرها، وهي كبيرة شفها بغت عدِّي واجده، والثيران بغت عدّي، ولوازم الحراثة بغت عدّي، وش قدرك يا خوي على ذا كله؟! بع أبوها ولق لك دكان كما يوم قُت لك أحسن لك، وأنا إضمن لك إنك تحصِّل زرقك.»

- «خلها على الله يا صهري، خلها أرض هوكذا حتَّى تقع للعيال لمّان يكبرون عسى العافية.»

- «الله يهديك بس يا مبارك، شفها ذحين بايقع باتجيب لك حوالي أربعين قرش! ارتفعت قيمتها، النَّاس حوشوا بي عليها، كُل مَسَاعِة يقرذبون عندي: (ذحين ما بايبيع صهرك الأرض لَه؟)، (ذحين مطروحة حسف ليه ما يبيعها؟) حوَّشوا بي ياخي!»

- «سمع هَه، ذحين إن حد عاده سألك عليها قُلُّه الظاهر أنَّه ألا باعها ولا بغى يتكلم، بعدين خلاص بايسكتون.»

كانت العمة تسمع الحوار الدائر بين الصديقين، وعرفت منه أنَّ مبارك يودُّ أن تكون له مزرعته الخاصة به، وقد اشترى الأرض بالفعل، ولكنَّه لم يتمكن من زراعتها؛ بسبب ضيق ذات اليد.

فكّرت العمة بِمَ يُمكن أن تنفع ابن أخيها وتحقق له حلمه في إعمار المزرعة، فهو في مقام ابنها تمامًا وتريد اسعاده ومساعدته في تحقيق حلمه، ولكن ليس لديها مصاغ يمكن أن تهديه له، وليس لها أرض في قريتها يمكن أن تبيعها وتعطيه ثمنها.

فجأة فطنت أن لديها بيتهم في القرية! نعم بيت أبوها الذي أغلقته بعد أن انتقلت للعيش مع مبارك وزوجته، وهذا البيت لمبارك نصيب منه أصلاً وهي حصَّة أخوها صالح والد مبارك، فعزمت على مفاتحته في الأمر في الوقت المناسب.

ذات ليلة كانت صفية قد خلدت للنوم، وكان مبارك في تلك الليلة مدعوًا إلى وليمة أقامها الأصدقاء دُعيَ مبارك إليها. ولما عاد من الوليمة، دعته العمة للدخول إلى غرفتها وحدَّثته في الأمر: «تعال يا مبارك يا ولدي دخل عندي هنا، معي كلمتين باقولها لك قبل ما تنام.»

دخل مبارك غرفة العمة مستغربًا، فأكملت العمة بعد أن جلس: «سمع يا مبارك، شفني سمعت قبل أيام صهرك يسلم يقولك تبيع أرضك الزراعية، والظاهر إنك ما بغيت عليها.»

- «ما بغيت عليها يا عمّة يومنا ما لي في البيع ولّشرا حق آل عمي ذا! أنا فلاح نعرف ألا للزّراعة وأمورها.»

- «كلامك في محله يا ولدي، على قول المثل وش عرفك يا حيك بالسناوة! صح كلامك، كن الأرض كما يوم قال يسلم ما هو ريِّض تتمي هوكذا بلا زراعة، زرعها يا ولدي.»

- «ومنين يا عمّة باجيب تكاليف المزرعة؟ حق السور والثيران والأدوات والبذور والسماد، شغلة مكلفة يا عمّة وانا مانا قادر عليها.»

- «وإن كان قت لك إنك باتقدر يا ولدي، باتزرعها؟»

- «أكيد يا عمّة ياريت.»

- «لا ياريت ولا حاجة، الدار حقّنا لي في نخلة بانبيعه، والثمن طرحه في المزرعة.»

تفاجأ مبارك باقتراح العمَّة الذي لم يُفكِّر فيه إطلاقاً، ولم يخطر بباله في يوم من الأيام، ولكنه استحى؛ كونه دار العمة: «لا لا يا عمّة، ماهو ريض لَهْ.»

- «ليه لا يا ولدي؟ هو أصله ألا حقك، قسم أبوك فيه أكثر من قسمي، وماحد لُه شي فيه الا أني وأبوك الله يرحمه بس، أبونا اشتراه بعد ما جاء من السواحل أيَّام ما كانت معه عدي، وذحين شفه جاء وقت منفعته. بانروح نخلة أني ويَّاك كم أيّام وبانشوف له مشتري، وبانرجع ومعنا عدّي المزرعة. آه رايك؟ ومن قدايه أني معاد بغيته، أني ألا قاعدة عندكم هنا ومرتاحة والحمد لله، لمَّان ذاك اليوم، يالله بحسن الخاتمة. وانته ذحين يا ولدي شغلك محتاج مصاريف، مرتك بعد كمَّه أشهر باتوضع وباتزيد المصاريف عليك جم، خل قيمته تنفعك، آه بانقّي به كذا حسف في قرية ما نحنا فيها وانته محتاج لعدّيه؟ الحرمة بغت والعيال بغوا والمزرعة ما باتقع ألا بعدّيه.»

كانت صفية حينها قد حملت للمرة الثانية، ومبارك كان في انتظار مولوده الثاني.

أطرق مبارك قليلاً يفكِّر فيما قالته العمَّة، ثم ردَّ عليها وقد استبشر خيرًا بما تقوله: «لي تشوفينه يا عمّة، صدق كلامش آه نقّي به في قرية ما نحنا فيها. خلاص أنا باعتذر من عم عوض غدوة، وباندبّر أنا ويَّاش لا نخلة وبانشوف له مشتري، والله ينوّر سوقه.»

- «آمين يا رب. شفك فرَّحتني ذحين، يالله قُم نم يا ولدي، مبيات عافية.»

- «الله يعافيش ويسلمش يا عمتي الغالية.»

توجه مبارك بعدها إلى غرفته، ونام قرير العين ليلتها من الفرح، ما كان مستحيلاً بالأمس هاهو يصير متيسِّراً اليوم، سبحان مغيِّر الأحوال! تعجَّب مبارك كيف لم يُفكِّر في مثل هذا الأمر من قبل.

في الصَّباح استيقظ مبارك مبكرًا وذهب إلى عمله في المزرعة بهمَّة ونشاط، وبعد انتهاء العمل أخبر العم عوض بأنه ذاهب إلى قرية والده لأيام في مهمَّة تخص العمة، فسمح له العم عوض بالذهاب، بعد أن عيَّن شخصًا يقوم بعمله كعادته.

***

في صباح اليوم التالي كان مبارك وعمَّته في طريقهما إلى القرية، كانت العمة قد أخذت معها بعض الطَّعام في صرّة أعطتها لمبارك؛ لتدبير أمر الطَّعام ليومين، إلى أن يتمكّن مبارك من التعرف على دكاكين القرية وسوقها، وأمر مبارك صفية بالذهاب إلى بيت أهلها والجلوس عندهم حتَّى يعودا بعد بيع (بيت العمة) كما يُسمُّونه.

وصلا بحمد الله إلى القرية ظهرًا. دخلت العمة إلى بيتها ونظَّفت إحدى الغرف وفرشتها، وبعدما وضع مبارك رأسه على وسادة وضعتها له العمة راح يغطُّ في نوم عميق، بينما ذهبت هي إلى المطبخ لإعداد الغداء.

بعد أن جهزته أيقظت مبارك للصَّلاة وتناول الغداء: «مبارك، مبارك، قم يا ولدي صل الظهر وبعدها نتغدى، يكفي من نوم!»

استيقظ مبارك يفرك عينيه من تعب ومشقة الطريق.

بعد أداء الصَّلاة وتناول الغداء قالت العمة لمبارك: «سمع يا ولدي، صل العصر في المسجد وتعرَّف على الخلق، وقل لهم أنا ود آل سالم علي، وإن أبوك صالح سالم، ورح السُّوق ودوِّر على دلال وقله إنك معك دار للبيع وتفاهم معه.»

- «انتي ما تعرفين حد يا عمة بايساعدنا لَهْ؟»

- «أني يا ولدي معرفتي ألا بالحريم، ما أعرف الرِّجال لَهْ، بس نسمع من النَّاس يقولون إنه فيه واحد اسمه الدلال علي جابر، دوِّر عليه هوذا وكلمه. إن كانه عاده يشتغل في الدلالة بانستنفع بُه.»

- «خلاص يا عمّة مانا شينا دبَّرت، بغيتي شي والا شي جيبه معي للدَّار؟»

- «أيوا يا مبارك شفك فطّنتني، هت معك خضرة؛ بصل وثوم وطماطم، وإن كان شي خضرة ثانية هتها، ولا تنسى الشَّخط، شفه لي هنا مغالق.»

خرج مبارك إلى المسجد فاستغربه النَّاس؛ لعدم معرفتهم به، ولكن ما إن جلس حتّى حضر إليه بعضهم يسألونه كعادتهم عندما يرون شخصًا غريبًا، فلما عرفوه فرحوا به واثنوا على والده المرحوم خيرًا.

بعدها ذهب مبارك إلى السوق لشراء الحاجيّات والبحث أولاً عن الدلَّال علي جابر؛ ليعرض عليه بيتهم للبيع.

دلَّه أحد النَّاس عليه، فذهب إليه وخاطبه: «السلام عليكم.»

- «وعليكم السلام، أهلاً وسهلاً.»

مكث الدلال يتفرَّس في وجه مبارك برهة ثم قال: «هومن انته يا ولدي؟ ما قد شفتك هنا من قبل، انته من عندنا هنا؟»

- «أيوا ولا في نفس الوقت!»

- «ما ذلا لغز شفه! يخاه هواه أيوا ولا؟»

- «أبوي أصله من هنا اسمه صالح سالم، بس الوالد انتقل من نخلة من زمان، وما تمَّت في نخلة من العائلة إلا عمَّتي عيشة آل سالم علي.»

- «أيوا أيوا عرفتك ذحين، انته ولد المرحوم صالح سالم؟ أوه أبوك كان صاحبي، كنا كل يوم نلعب قِلِة أنا ويَّاه هههههه.»

قهقه الدلال بصوت عالٍ، ثم سأله: «ذحين انته ولده؟ ما شاء الله! ورانا سمعت إنك شليت عمَّتك عندك؟ صح وألا أنا غلطان؟»

- «صح يا عمي بغيناها ترعش بنا، آه تقِّي هنا قاعدة في الدار وحدها لا ولدها ولا تلدها؟ لا قع بها شي ماحد بيدرى بها.»

- «صح كلامك يا ولدي، جزاك الله خير.»

- «ذحين ألا شفنا جيت يا عمّي باكلمك في مسألة الدار لي هنا حق جدي، بغينا بانبيعه، وبغيتك تدور لنا على مشتري لُه.»

حك الدلال مؤخرة رأسه قبل أن يُجيب: «والله يا ولدي الأسواق ذي الأيام باردة، لكن بادوِّر لك إن شاء الله على مشتري، طيِّب يا خير شور، ذحين انته قاعد فيه أَلَهْ؟»

- «نعم بانقعد فيه أنا والعمة كم أيَّام، بانبيعه وبانرجع عند العيال.»

هنا نفد صبر الدلال وهو يلوم مبارك على عجلته: «أيوا يا ولدي بس البيع والشراء في البيوت والأراضي ماهي سهلة شفها لَهْ، ما باتقع بين يوم وليلة، ذلّا بغت شهور وأسابيع لمّان تحصِّل المشتري الموافق، ذحين انته مستعد تقعد هنا وقت طويل؟»

- «إن بغيت الصِّدق يا عمّي لَهْ مانا مستعد. شغلي هناك والحرمة وحدها، كُودنا إن طوّلت أسبوع.»

- «ما ذا الكلام شفه ما ينفع لَهْ، منين باجيب لك مشتري لُه في أسبوع؟!»

- «على كل حال يا عمّي أنا قاعد هنا أسبوع، إن حصلت للدار بِيْعِه في الأسبوع هوذا بعناه، وإن ماشي خلاص رجعنا وباسلّمك أقليد الدار، ولا جاء الموافق عط نحنا خبر، آه رايك؟»

- «اه هوكذا ريض، خلاص تمام التَّمام.»

- «اتفقنا. خلاص مانا شفنا باقوم، عادنا بغيت قليل حاجة من السوق لآل الدار.»

- «توَّك توَّك، الله معك يا ولدي.»

غادر مبارك الدلال، وحمل من السوق ما طلبته منه العمَّة وعاد إلى المنزل. وعندما وصل سألته العمة: «عساك حصَّلت دلال يا ولدي؟»

- «حصلت الدلال لي قُتِّي لي عليه، آه هو يا عمّة هوذا الرجال عليه عمد؟»

- «آه كل النَّاس في نخلة تبيع وتشتري على يدُّه، وذحّين قلّي جبت الشخط؟»

- «جبته وجبت قليل حاجة شيها ذيك هناك، شلّيها.»

- «مادامك لوّل عرضت الدار على الدلال خلاص يا منوِّر السوق، خلها بالسهالة الباقي على الله.»

آثر مبارك أن يتعرف على النَّاس أكثر ويجلس إليهم، فاستأذن عمته وغادر المنزل إلى إحدى المقاهي حيث يجتمع الرِّجال.

مر الأسبوع، كان مبارك يتردد فيه على الدلال بين فينة وأخرى؛ لمعرفة ما إذا كان هناك مشترٍ للدار، ولكن دون جدوى.

كان الدلال خلال هذه الفترة قد زار الدار وقام بتقييمه، وعندما حضر مبارك في اليوم السَّابع إلى الدلال يستطلع الأمر أخبره بأنه وجد مشترٍ للدار أخيرًا، فبشَّره قائلاً: «سمع يا مبارك، شفنا حصلت لك مشتري للدار. واحد من اللي شغلتهم بيع البيوت، متفوّد وفلوسه جاهزة. بس الصدق يا ولدي شفه ما عطاه قيمته، أنا جيت لا عندكم ودريت فيه وعرفت كم بايجيب.»

- «ليه كم قيمته يا عمّي يومك تعرف تقيّم انته؟»

- «والله يا ولدي شف قيمته هوكذا حوالي أربعين قرش، والا زايد حتَّى.»

- «طيب وصاحبك ذا ألا بغاه بكم؟»

- «بغاه بسفالة، قال بايدفع فيه عشرين قرش!»

- «ذحين بحسُّه هوذا؟ عطاه النص!»

- «آه يوم تكلمنا فيه قال هوكذا شفه.»

- «ذلّا حرامي ذا! بغى بيقمرنا؟!»

- «السَّماسرة حق الديار هيذي شغلتهم، لا شافوا حد مستعجل على البيع اشتروا منه بالهباء، وبعدين يبيعونه في تالي حِلْصَة! انته لا تستعجل، خله بايجيب قيمته في وقته، ماشي داعي للاستعجال.»

- «على قولك يا عم علي، ماشي داعي للعجلة أبدًا، إن جاب قيمته لي بغيناها ولي يستاهلها بعناه، والا خل أبوه يتمّي لمّان ذاك اليوم.»

- «بايجيب قيمة زينة لا تخاف لَه، قيمته بايجيبها بس بغى صبر. انته توّك رجع لا عند عيالك وانا لاكذ جاء لي بايدفع القيمة لي يستاهلها باجي لا عندك نقول لك.»

- «ريض ريض ما بتقصر أبدًا يا عم علي، يالله نشوفك على خير، ولا كذ نحنا مروّحين باجيب لك لقليد، إن حد بايدري فيه والا شي كذ لقليد معك.»

- «طيب يا ولدي، الله يوفّقك، سلم على عمتك عيشة.»

- «يصل إن شاء الله.»

أخبر مبارك عمته بما قاله الدلال، واستعدَّا معًا للعودة إلى العائلة.

الفصل الثلاثون: تحقيق الحلم

مرت الشهور وولدت صفية بنتًا جميلة أسموها زينب، فرحت العمة بها كثيرًا، وكذلك أمها وأبيها.

كانت (زَنّو) كما كان الجميع يُطلق عليها تخطو خطواتها الأولى وقد جلس مبارك مقابلاً لعمّته يحث ابنته الحبيبة على المجيء إليه مُشجّعًا إياها على المشي، فتأتي إليه بخطواتٍ مترنّحة تسقط فيها أحيانًا، وأحيانًا أخرى تواصل المسير وتنجح في الوصول إلى أبيها فترتمي على صدره ويهلل الجميع على وصولها سالمة، فتفرح الطفلة بإنجازها الرائع.

كان حسن حينها يلهو بلعبة أهداها له أحدُ أصدقاء أبيه، تمثّل عربة حمار من صنع محلي استخدم فيها الحداد علب الصفيح الصغيرة كعجلات مثبتات بخشبة عريضة تمثل العربة تنتهي بخيط يحمله الطفل وهو يسير بعربته هنا وهناك.

كان حسن فرحًا بهذه اللعبة يجوب بها أرجاء الغرفة، وحينما سأله أبوه بفضول مصطنع: «آه هيذي يا حسن؟»

أجاب الطفل: «ألا أربيه هَق الهمار!»

سأله مبارك بعدها: «فيين الحمار يا حسن؟»

نظر حسن إلى العربة وكان حينها واقفًا، وسكت برهة يفكّر، وفجأة جثا على ركبتيه وبدأ يمشي على يديه ورجليه جارّاً العربة خلفه قائلاً لأبيه: «بابا بابا، أنا الهمار! أنا الهمار!» ثم نهق مقلِّداً صوت الحمار: «هاءء هاءء هاءء!» فانفجر الجميع ضاحكين.

طلب منه أبوه بصوت رزين أن يقف، وقال له: «سمع يا حسن، انته ما انته الحمار لَه، انته العم كرامة صاحب الحمار. تعرفه يا حسن، لي يجيب الماعون لخال يسلم ألَه؟»

هبَّ الطفل واقفًا ووافق أباه قائلاً: «بابا بابا، أنا أمو ألامَه!» وبدأ يلم أشياء صغيرة كانت ملقاة في أرضية الغرفة؛ مقصٌ، ومشط، وملعقة، وأشياء أخرى ويضعها فوق عربته الصغيرة.

سألته العمة حينها: «آه هوذا يا حسُّوني؟»

أجابها الطفل: «مآؤون هق التُكَّان!»

صححت له العمة نطقه قائلة: «آه ماعون حق الدكان؟»

فهزَّ حسُّوني رأسه موافقًا.

سألته العمة ثانية: «وينه الدكان ذا يا حسُّوني؟»

أشار الطفل إلى حيث تجلس أمه صفيّة، وأمامها (عِدّة الشَّاهي البخاري) من فناجين وملاعق وأواني سكُّر وغيرها، وقال: «ذا التُكَّان!»

ضحك الجميع من هذا الاختيار. في تلك الأثناء سمع الجميع شخصًا ينادي من الشارع بأعلى صوته: «بو حسن، يا بو حسن.»

نظر مبارك من النافذة؛ ليرى من هذا، فوجده العم علي جابر ينادي عليه، ذلك الدلال الذي قابله منذ أكثر من سنة ونصف عندما أراد بيع بيت العائلة في القرية. استبشر مبارك خيرًا بقدومه، وحمل في إحدى يديه صينية بها فنجانين من الشاي البخاري الفاخر، وخرج للقائه وتضييفه بهما.

رحب مبارك بالدلال عند لقاءه: «يا حيَّا بالعم علي، كيف حالك وحال آل نخلة عساهم بخير؟» قال هذا الكلام وهو يمد يده لمصافحته.

ردَّ العم علي التحيَّة قائلاً: «بخير ولله الحمد، ألا شفنا جيتك بخصوص بيع البيت، شفنا حصلت له مشتري دِسِم ما شاء الله!»

- «خير إن شاء الله، بايدفع لي بغيناه؟»

- «بايدفع أكثر! ذلا من أصحاب العوين. شفه قال بايشتريه بخمسة وأربعين قرش!»

ابتهج مبارك عند سماعه الخبر، وقال فرحًا: «هوه هوه! ما شاء الله، ما شاء الله! ذلا صدق الصابر ظافر! خلاص يا عمي، أنا باجهز نفسي وباجيب وثيقة الدار وباجيك. عطنا كذا يومين والا ثلاث وكذنا عندك.»

- «خلاص ذلا قُت بعطيك خبر بس.»

- «طيب قعد قعد شرب الفنجانين حق الشاهي ذيلا، شفنا اندرت بهن لك.»

جلس العم علي يتناول الشاي الذي أحضره مبارك، وأثنى على طعمه: «ذحين آه تقُّون له الشاهي ذا؟! كنُّه زين ماهو كما حقّنا؟»

- «آل الدار يقّون له شاهي عطري، الحريم ذيلا شفهن فنّانات في الشاهي جم!»

- «ذلا الحريم حقّكم يا بو حسن، ما حقّنا ألا حق مزارع وبس!»

- «وبعد، الخير والبركة يا عم علي.»

بعد أن أكمل العم علي تناول الشاي، استأذن مبارك قائلاً: «خلاص ودَّعتك الله يا مبارك، شفنا ألا تأخرت، وأنا مستعجل بالحق صاحب العربية لي جيت معه فيها، حصلته بغى البلاد ذي معه حاجة حق ناس بايصِّلها قُتْ له معك، وذحين طرحنا وزكَّنت عليه إننا بارجع معه، قت له ذلا كلمة ورَد غطاها وبارجع لك، ما هو ألا وافق وذحين مسكين بايقع ماقف لي في الطريق، هيّا يا مبارك متشاوفين إن شاء الله.»

- «إن شاء الله، ولا يهمّك يومين وكذ نحنا عندك، أنا وعمَّتي. في أمان الله.»

صعد مبارك إلى الدار بعد ذهاب الدلال، وأخبر العمة بما قاله، واستعد الاثنان للمغادرة إلى قرية نخلة في قادم الأيام.

اقترحت صفية على مبارك أن تذهب مع ولديها إلى بيت أهلها عندما همَّ مبارك وعمته في الذهاب إلى قريتهم القديمة لبيع المنزل.

استأجر مبارك عربية العم كرامة، وبمصاحبة العمة غادرا قرية سبولة عند الفجر، وعند وصولهما إلى هناك ضحى ذلك اليوم استوقف مبارك العم كرامة، وطلب منه

أخذ بعضًا من ماعون العمة الموجود في دارها، تخلّصًا منه مبدئيّاً. أخذه العربجي معه وهو عائد إلى قرية سبولة بعد أن أعطاه مبارك (أقليد) البيت، وأمره أن يضع هذا الماعون في مدخل الدار.

كان هناك المزيد من الماعون، آثر مبارك أن يأخذه معه في رحلة العودة النهائية بعد بيع المنزل. كانت العمة تراقب نقل ماعونها إلى عربة العم كرامة، واستغربت كيف أن العربة قد امتلأت بماعونها، وبقي منه المزيد: «يوه يا ولدي! ذحين الماعون ذا كله معي وأني ماني دارية؟! ذلا ثرها قرابيع جم! بايقع ماشي معكم حتى نفس لها.»

- «لا لا يا عمة، النفس في دار سبولة ألا واجد. بانطرحه كله في الدِّرِع لي تحت حقِّش المحضرة، وبانعطيش أقليدة، لكذش بغيتي شي منه والا شي شليِّة، وذحين ألا شيه درع فاضي ماشي فيه لَه، هوذا لي يسلم ياخنُّه بغانا إفتح فيه دكان.»

- «أيوا أيوا، كبير شفته. بايشل الماعون والزايد.»

- «خلاص ما ذحين يا عمة، شي نحنا وصلنا بالسلامة ما شاء الله، ووكلنا شق من الماعون مع عم كرامة.»

- «طيِّب، والباقي بانقِّي به هواه؟» تساءلت العمة بقلق.

- «لي عاده يا عمّة ألا قليل، بانشلُّه معنا لكذ نحنا ريجعين. ذحين لوّل انتي توِّش، إن باتزورين حد من آل البلاد وباتودِّعينهم روحي، وأنا باروح السوق بادوِّر للدلال، وباقوله إن نحنا جينا.»

- «توّك يا ولدي الله يوفقك. وأني باشوف عمري لوّل باتفاقد حاجاتي، عاد شي مدخوش هنا ولا هنا بالاوفه كُلُّه في بُقعة وحدة؛ منشان يكون جاهز لكذ نحنا بانشلّه، وإن عاد شي وقت معي باروح بازور صاحباتي، وباخلِّي لك الأقليد فوق المجر. لا جيت وأني ماحد أني توّك فتح ودخل.»

هزَّ مبارك رأسه موافقًا، وخرج مودِّعًا.

عند وصول مبارك إلى مكتب الدلال وجده يهمُّ بإغلاقه، ولكن عندما وصل مبارك إليه أعاد فتح الباب، ودخلا معًا للتفاهم.

ابتدره العم علي بعد أن جلس على كرسي هناك وبدأ يقلّبُ بعض أوراقه: «جيتوا؟ يا حيَّابكم يآل سبولة. وين عمَّتك؟ جات معك والا لا.»

- «نعم جات معي، البار ألا عليها، كيه! لاكذه وقت البيع باخلّيها تجي للمكتب، ذحين ألا في الدار مسكينة.»

- «لا لا، نحنا كلنا بانروح لمّان عندها في الدار، لا تعذبها لَه.»

- «خلاص جزاك الله خير، وذحين يا عم علي عط المشتري خبر إن نحنا جاهزين للبيع.»

وأما العمة، فبعد ذهاب مبارك، دخلت إلى مستودعها تبحث في صناديقها عن وثيقة الدار، فوجدتها بعد عناء طويل من البحث في صندوق معدني صغير موضوع في إحدى الجحال الفارغة.

حمدت الله على ذلك، وانتظرت قدوم مبارك لتعطيها إياه، وشغلت نفسها بعدها بلملمت حاجياتها المبعثرة هنا وهناك.

حدد الدلال بعد صلاة العشاء لإتمام البيعة في بيت العمة، وبحضوره وحضور شاهدين والمشتري تمَّت البيعة، وأخبر الدلال مبارك أن عليه إخلاء المنزل في فترة أقصاها ثلاثة أيام؛ لتسليمه للمشتري.

***

في قرية سبولة كانت أسرة العم عمر يسمرون في حوش دارهم كعادتهم على ضوء مصباح كبير يملأ ضوؤه المكان.

كان السكون قد خيَّم لسنوات عديدة ماضية على دار العم عمر، وهاهو الدار الآن قد عاد يعجُّ بالحركة، وأصوات الأطفال تملأ المكان.

كان الجميع حينها حاضرًا، مريم وابنها سالم، وصفية وطفليها حسن وزينب، والخالة زينة ويسلم. كان الجميع مبتهجين بوجود صفية وأولادها عندهم، وكان الأطفال يلعبون في حوش الدار.

عاد العم عمر من دكانه وهو يحمل في يديه الحلوى لجميع الموجودين، ووزعها عليهم ابتداءً بالأطفال، وما إن أكمل توزيع الحلوى على الكبار حتى نشبت ما يُشبه المعركة بين الأطفال؛ لأن حسن ابن مبارك وبعد أن التهم حصَّته من الحلوى، هجم على حصة سالم أيضًا وانتزعها من يده ووضعها في فمه دفعة واحدة!

انفجر سالم بالبكاء، وغضب يسلم لابنه، وبدون شعور صاح يسلم في وجه حسُّوني: «يا حسُّوني الحمار! ليه شلّيت الحلوى حق ولدي؟ هجمت عليه تو هوكذا كما الشاة!»

استاءت صفية من ألفاظ أخيها الجارحة، ونظرت إليه نظرات عتاب، ولكنها لم ترد عليه، بل قامت إلى ابن أخيها مسرعة، وأعطته جزءً من حصتها من الحلوى، بدلاً عن التي أخذها ابنها.

ندم يسلم على تسرعه في الشتم، وقام إلى صفية يعتذر إليها بصوت منخفض؛ حتى لا يسمعه الجميع: «العفو منِّش ياختي على كلمة (الشاة) ذي. ذلا بغيته يعرف غلطه.»

ردت عليه صفية بصوت سمعه الجميع: «سُقْلِة لِي يِدخل بين السَّقَل!» كانت جملتها كافية لردعه عن الاستهزاء بها بعدها مُطلقًا.

قهقه العم عمر بصوت مرتفع لمَّا سمع جملتها، وأردف: «تستاهل يا يسلم!»

ثم التفت إلى صفية وأكمل: «عطيتيه لي يستحقه يا بتِّي!» وأقبل نحوها وأعطاها من حصته من الحلوى التي أبقاها لنفسه قائلاً: «خذي ذا من قسم أبوش، تستاهلين.»

عاد العم عمر إلى مكانة وأكمل: «والله إنكم رعشتوا بنا يوم جيتوا لا عندنا، يا ريتكم ألا دايم هوكذا نترعَّش نحنا وإياكم.»

بعدها جلس الجميع يتحدثون ويسمرون كعادتهم، إلا يسلم الذي انسحب إلى داخل الدار، ولم يحضر حتى العشاء عندما تناولته الأسرة في الحوش.

في هذه الأمسية اقترحت صفية على أبيها أن تعود للطحن بعد أن كبرت زينب، وتبيع عندهم طحينها؛ لتوفير المال، فأجابها الأب: «وذحين يا غير زوجش بايقع طبين! ذحين عادش ليه تشتغلين وتتعّبين نفسش؟! خليش في ترباة عيالش أحسن.»

- «عيالي ألا دايم عند حباب عيشة، وأني لاكذني خلّيه باطحن؛ منشان وفّر كم خماسي، حتى حق المستقية.»

- «خلاص توّش، مانا دكاني شيه تحت أمرش. ما بايقول لا من لي تقّينه أبدًا. إنُّه شَطِف هاتيه وبانبيعه لش، وإنه طحين توّش طحنيه وخلّي مبارك يجيبه عندنا، ولش ألا عدي. شيش ما شاء الله عليش يا بتّي، ذحين رجعتي ألا شغالة وتردّين. ما شاء الله! يا بخت مبارك بش يا بتّي.»

- «ويا بختي بُه يابه.» قالت صفية كلمتها معترفة بأفضال زوجها عليها أيضًا.

- «أوهوي ما شاء الله عليش! سمعتي يا زينة؟ تعلّمي من بتّش، شيها هَه تمدح في زوجها، ماهو كما بعض الناس!»

تجاهلت الخالة زينة كلمات زوجها متذرعة بوقت النوم: «يالله يالله قوموا ناموا. شوه كذه ألا ليل، ونحنا عاد نحنا ألا ذاهنين. هيَّا كل واحد لا مكانه.»

آثر الجميع أن يخلدوا إلى النوم، فقد سمروا بما فيه الكفاية.

***

بعد ثلاثة أيام قضاها مبارك وعمَّته في قرية نخلة، عاد الاثنان إلى سبولة، يحملون معهم المال اللازم لتعمير مزرعة مبارك، وتحقيق حلمه بعد بيع الدار وغنم العمة.

استأجر مبارك حينها عربة من قرية نخلة، ووضع فيها ما تبقى من ماعون العمة، وغادروا القرية في وقت الضحى عائدين إلى سبولة، ووصلاها قرب صلاة العصر.

بعد أن أفرغ مبارك العربية من ماعون العمة المتبقي إلى داخل منزله، حاسب العربجي، بينما دخلت العمة مسرعة إلى المنزل تُصلِّي الظهر، وكذلك فعل مبارك بعدها، ثم ذهب إلى بيت أنسبائه يُخبرهم بعودتهم من نخلة.

فرح حسُّوني بقدوم أبيه، وارتمى بين ذراعيه، فأخذه وعاد به إلى المنزل، وطلب من صفية اللحاق بهما مع زينب.

بعد يومين من وصوله إلى قرية سبولة وترتيب ماعون العمة في مكانه، تفرَّغ مبارك لترتيب أموره الشخصية. أخذ خمسة عشر قرشًا من المال الذي كان بحوزته من بيع الدار، ودخل إلى غرفة العمة.

بعد أن سلَّم عليها واطمأن على حالها، سلمها القروش التي أحضرها لها: «يا عمَّة شي ذيلا هَه القروش حقِّش، نصيبش من بيع الدار.»

امتنعت العمة عن أخذها: «آه باقِّي بها يا ولدي؟ خلها معك باتنفعك.»

- «أنا معي لي بايكفِّينا والزايد يا عمّة، وذي العدي ألا حقّش، خبِّيها في صندوقش، خاف بعد كم سنين نطلع الحج إن شاء الله. باشلِّش معي، ما بغيتي تحجِّين لَهْ؟»

- «ومن ما بغى الحج يا ولدي؟! ما ذي ألا تمناه ما كنت دارية إنني بقدر عليها.»

- «باتقدرين عليها يا عمّة باتقدرين، شلي عدّيش وطرحيها في صندوقش ولا كذه وقتها باقولش هاتيها.»

تناولت العمة نصيبها من الميراث، على أمل أن تحج به بيت الله الحرام، وتزور المدينة المنوّرة وتزور قبر النبي وتصلّي في مسجده.

***

كانت صفية في يوم من الأيام جالسة في غرفة المعيشة تشطف خوصها، فلاحظت العمة أنَّ ما تشطفه صفية خالٍ من الألوان تمامًا، فتدخَّلت: «ذحين كنَّها المسرفة حقِّش ذي يا صفية تصيب بالهم؟! ما فيها خوص ملوَّن يرعش بها؟»

بعد أن تنهدت صفية، ردَّت على العمّة بأسف: «ألا غلَّق الخوص الملوَّن حقِّي، وقُت ليسلم هت لي من المدينة ونسي ما يجيبه.»

سألتها العمة باهتمام: «ليه ماحد يقِّيه هنا لَه؟»

ردت صفية وقد أوقفت عملها ونظرت إلى العمة بتعجُّب: «لَه، ماحد يقِّيه هنا لَه. ليه عندكم في نخلة يقُّونه أهواه؟»

- «آه، أني لقِّيه للحريم.»

فغرت صفية فاها، وصمتت للحظة اعتراها فيها ذهول مفاجئ ثم أردفت: «انتي تعرفين تقِّينه يا عمّة من صدق هاه؟!»

- «آه من صدق لقِّيه على فضوتي وعلى الخرمة. حتى الصبغات لي لوّن بها الخوص شيني جبتها معي يوم جبنا الماعون. شيها هَابَط في هوذا الوَضِيْع لي فيه ماعوني.»

- «يوه يا عمّة! خلاص لقِّيه، وعلّميني، حتى أني باقيِّه باساعدش، شي الحريم حق سبولة تو بايشلِّينه. عاده غالي شيه، بانطرحه في الدكان حق أبوي.»

تشجَّعت العمة على العودة إلى عملها السابق في تلوين الخوص، وخرجت إلى المستودع الذي وُضع فيه ماعونها، وبحثت عن الأصباغ فوجدتها، وأحضرتها لصفية لتراها.

وهكذا، طلبت العمة من مبارك شراء الخوص الأبيض، ولمَّا أحضره لها قامت بصنع أول عمل لها منه في بيت مبارك وصفيَّة تراقبها، فتعلَّمت الصَّنعة منها، وتعاونت المرأتان -صفية وعمتها- في صنع الخوص الملون.

بعد أن انتهت صفية والعمة من إنجاز أول دفعة من الخوص الملون، طلبت المرأتان من مبارك أن يحملها إلى دكان العم عمر لبيعها هناك.

خاطبته صفية: «مبارك... يا مبارك. كيه آقف قليل. بغيت فين ذحين؟»

- «بغيت عند خوش يسلم، بادق لحي معه قليل.»

- «طيب كيه مسك هَه، عطه الخوص ذا خلُّه يبيعه لنا. قُل له الرُّبطة بخُمسيَّتين شفها.»

- «هوذا لي أقِّيتيه انتي وعمَّتي أهواه؟»

- «أيوا هوذا. آه رايك فيه؟»

حدَّق مبارك في الخوص بإمعان، ثم ردَّ: «والله يا خير خوص! زين ما شاء الله عليكن! ذحين ألوانه هيذي لوَّل ثابتة؟ غير ماهي باتنقض في يدَّات الشطَّافات عادها؟»

- «لا لا، عمَّتك كذها هيذي شغلتها من قبل ما تجي عندنا، ودايم كانت تقِّيه وتبيعه في نخلة، وذحين حتى أني علَّمتني يا مبارك. شفت الحزم ذيلا؟ شفني أني ويَّاها لقِّيناهن.»

- «خلاص باشلهن وباطرحهن في الدكان، عساهن يشتلِّين بس.»

وبالفعل، أخذ مبارك الخوص ووضعه في دكان عمِّه عمر، وما مرَّ شهران على هذا حتى صار الطلب على خوص صفية والعمة يكاد لا ينقطع من دكان العم عمر.

لقد استغنت النساء عن الذهاب إلى المدينة لجلبه من هناك، وأصبحت صفية وعمَّتها تُزودان القرية من حين لآخر بالخوص الملون إذا نفدت الكمية عند العم عمر، وصار يسلم هو الذي يجلب الأصباغ لأخته وعمتها من المدينة عندما يحتجنها.

أما عن مبارك، فإنه بعد أن باع داره في قرية نخلة، فقد انسحب من العمل في مزرعة العم عوض، وتفرَّغ لإنشاء مشروع مزرعته الخاصة، وترك لمحفوظ العمل كاملاً في دكان الشيخ على فترتين؛ صباحية ومسائية. ولما كان محفوظ محتاجًا للنقود -خصوصًا بعد زواجه- فقد وافق على ذلك.

استطاع مبارك أن يشتري كل ما يلزم لإعمار مزرعته، وقام بتسويرها، وأزهرت مزرعته بعد عدة أشهر من العمل المتواصل فيها، وطرحت خيرها، وفي غضون سنتين كان بو حسن من مورّدي الخضار والفواكة والبرسيم إلى سوق قريتهم المتواضع، وأسواق القرى والمدن المجاورة.

مرّت السنوات، وزادت الثروة في يد مبارك، فقرر أن يحجَّ بيت الله الحرام وأعلم عمَّته بالأمر، ففرحت بذلك كثيرًا، وما إن جاء وقت الحج التالي حتى كان مبارك وعمته من حجاج بيت الله الحرام مع الوفد القادم من حضرموت.

وما إن بلغت صفية من العمر ثلاثين عامًا إلا وقد ولدت من الذُّكور أربعة وهم حسن ومحمد ومحمود وياسر، ومن البنات اثنتان هما زينب ودُرَّة، وعاشت الأسرة عيشة كريمة وحياة هانئة سعيدة.

المحتويات

المقدمة ٧

الفصل الأول: مواساة..... ٩

الفصل الثاني: معاناة ١٧

الفصل الثالث: صفية ٣٥

الفصل الرابع: بيع المصاغ..... ٤٥

الفصل الخامس: جولة تسوق..... ٥١

الفصل السادس: حبيس العاصفة..... ٥٧

الفصل السابع: أرق..... ٧١

الفصل الثامن: ورطة..... ٧٩

الفصل التاسع: صدمة ٩١

الفصل العاشر: نقاهة..... ٩٧

الفصل الحادي عشر: العودة إلى سبولة..... ١٠٥

الفصل الثاني عشر: الخِطبة..... ١١٣

الفصل الثالث عشر: ترميم..... ١١٩

الفصل الرابع عشر: طريح الفراش..... ١٢٩

الفصل الخامس عشر: سند..... ١٣٧

الفصل السادس عشر: اللمسات الأخيرة..... ١٤٧

الفصل السابع عشر: ليلة العمر..... ١٥٥

الفصل الثامن عشر: حياة جديدة ١٦٣
الفصل التاسع عشر: زيارة خاطفة ١٧٣
الفصل العشرون: رمضان ١٨٥
الفصل الحادي والعشرون: فرصة ذهبية ١٩٣
الفصل الثاني والعشرون: زوجة مجنونة ٢٠١
الفصل الثالث والعشرون: عمل مسائي ٢١٣
الفصل الرابع والعشرون: فرح وألم ٢٢٥
الفصل الخامس والعشرون: تجديد ٢٣٥
الفصل السادس والعشرون: حنين ٢٤١
الفصل السابع والعشرون: وليمة ٢٤٩
الفصل الثامن والعشرين: ذوق رفيع ٢٥٧
الفصل التاسع والعشرون: مصدر تمويل ٢٦٥
الفصل الثلاثون: تحقيق الحلم ٢٧٥
المحتويات ٢٨٧

تمت بحمد الله قصة جحلة رمضان
تليها بإذن الله قصة (مطر الشُربة)

المؤلفة في سطور:

- شاعرة وروائية وجامعة للتراث الثقافي الحضرمي.
- وُلدت في مدينة سيئون في ١٣٨٢/١٠/٨هـ وتلقت فيها تعليمها الأساسي والثانوي.
- التحقت بقسم التاريخ في كلية التربية بجامعة عدن، وتخرجت منها عام ١٩٨٦م.
- عملت كمدرسة لمواد مختلفة في عدة مدارس في مدينة سيئون ثم انتقلت كمدرسة تاريخ في ثانوية باكثير للبنات.
- طلبت التقاعد المبكر وحصلت عليه عام ٢٠١١م لتتفرغ لممارسة اهتماماتها؛ كحفظ القرآن الكريم وتدوين وترتيب كتب التراث الحضرمي الذي بدأت بجمعه في وقت مبكر جدا من حياتها العملية.

قصة جحلة رمضان:

في التراث الشعبي الحضرمي قصص طريفة تُروى؛ لامتاع المستمع وإضفاء جو من المرح والدعابة على حياته، وللتخلص من رتابة الحياة والملل المصاحب لها، ومن هذه القصص قصتنا هذه التي تحكي عن سذاجة امرأة بسيطة تأخذ الأمور على ظواهرها لم تَخبر الحياة بعد؛ لصغر سنها وقلة تجاربها فيها، وتقع بسبب ذلك في العديد من المشاكل.

من كتب المؤلفة:

للمؤلفة العديد من الكتب ما بين مخطوط ومطبوع، لكن أيّاً منها لم ينشر للأسف؛ بسبب عدم إهتمام السلطات والجهات ذات الإختصاص. من كتب المؤلفة:

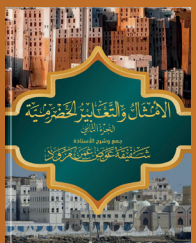

كتاب الأمثال والتعابير الحضرمية

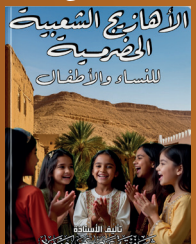

كتاب الأهازيج الشعبية الحضرمية

كتاب قصص الأمثال الشعبية الحضرمية

كتاب المرأة في حضرموت

كما أن لها سلسلة قصصية أحداثها مستوحاة من الحزايا والحكايات الشعبية في حضرموت، منها:

قصة مطر الشربة

قصة مرعاض مريم

قصة كيد النساء

قصة جومو